

موريس غ. ديموريني

النظم الأستلامية

نقله عن الفرنسية

فبصل السامر

و

صالح الشماع

١٩٥٢

موريس غ . ديموبين

النظم الأستلامية

نقلا عن الفرنسية

فيصل السامر

و

صالح الشماع

حقوق الطبع محفوظة للمترجمين

١٩٥٢

مطبعة الزهراء : بغداد

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٤	مقدمة المترجمين
٧	مقدمة المؤلف
٩	الفصل الاول : الحكم الاسلامي
١٥	» الثاني : الجماعة الاسلامية
٣٧	» الثالث : الحركة الفكرية
٦٣	» الرابع : العقيدة الاسلامية
٨٢	» الخامس : أصول الشريعة الاسلامية
٩٥	» السادس : الفرائض
١٤٦	» السابع : الخلافة
١٧١	» الثامن : العائلة
١٨٩	» التاسع : الاملاك
٢٥٢	» العاشر : القضاء
٢١٦	» الحادي عشر : الحياة الاجتماعية
٢٣٩	» الثاني عشر : الحياة الاقتصادية
٢٦٠	» الثالث عشر : الحياة العقلية
٢٨٣	» الرابع عشر : الاسلام الحديث

مقدمة المترجمين

لبي الاسلام اهتماما كبيرا من المستشرقين وكتاب الغرب في مختلف العصور، وقد اشبعوا كثيرا من نواحي الفكر الاسلامي بالدرس العميق والتحليل المفصل . لكن هؤلاء الكتاب ان التقوا في أساليبهم التحليلية ، وطرائق بحثهم ، فقد اختلفوا في مقدار نزاهتهم ، ودرجة انصافهم ، فمنهم من مال مع الهوى فنضج قلبه بالدس والكيد ، ومنهم من حاول التجرد عن الهوى ، فاعترف قليلا أو كثيرا بالحق . ومع ذلك يجب أن نعترف بأن المستشرقين — عموما — تجاوزوا بالمقدرة الفائقة على عرض المعلومات بعد هضمها وتحليلها .

ان الذي دفعنا الى نقل « النظم الاسلامية » للمستشرق الفرنسي موريس غودفروا . ديمومبين ، هو حاجة المكتبة العربية الى أمثال هذا الكتاب . والمؤلف ، فيما يبدو ، منصف الى حد كبير ، يتميز باعجابه الشديد بالاسلام وحضارته ونظمه ، لهذا انكب على الدراسات الاسلامية ، فأخرج كتباً عديدة تستحق الإعجاب ، لعل أشهرها كتابه عن المالك في سورية .

انه لمن النادر ان يخلو كتاب غربي عن الاسلام من بعض توجيهاات خاصة ، قد لا يرتضيها المسلمون كلياً أو جزئياً . ورغم انصاف المؤلف ودقته ، فقد وقع في بعض الأخطاء التي تستدعي المناقشة والرد . ان الاسلام لم يعارض حرية الفكر ، وأعظم ما عني به مفكرو الاسلام هو

التوفيق بين العقل والنقل ، لذلك لن يضربنا أن قف على ما يكتب عن ماضينا وحاضرنا ، مادام ذلك يتيح لنا أن نفكر ونتدبر .

وإذا استثنينا بعض الشطحات التي وقع فيها المؤلف عن قصد أو غير قصد ، فكتاباه في مجموعهما يتميز بالفائدة الكبيرة والعرض المشرق الشامل لجميع مجالي الفكر الاسلامي وخصائصه واتجاهاته وتطوره في مختلف العصور ، وهذه مزايَا يندر أن نجتمع في كتاب واحد .

ونحن وإن لم نوافق المؤلف على جميع آرائه ، فقد حافظنا على حرفية الترجمة ، وحاولنا ان نضع بعض الهوامش كردود أو تعليقات ، مع شعورنا بأنها مقتضبة غير وافية ، ونرجو ان تكون هذه الردود أكثر كالا في طبعة ثانية للكتاب . كما انا سنفيد من مجموعة الملاحظات والردود التي سيدكرها الخاصة من العلماء والمختصين ويعلقون فيها على هذه الطبعة الاولى ، ذاك اننا نعلم ان هناك اموراً أثارها المؤلف ، بعضها مصطبغ بالتفكير الفرنسي خاصة ، والتفكير الاستشراقي عامة ، وبعضها الآخر جاء دون تفصيل ، وهو في حاجة الى مزيد من الايضاح الذي لم نستطع القيام به في هذه الطبعة . ولا نستطيع أن نأتي هنا على جميع هذه النقاط ، ونضرب لذلك الامثلة التالية :

١ — يقول المؤلف ان الامامية ترى ان الامام يحل فيه بصورة جزئية جانب من الالهية . ونحن رجعنا الى عالم فاضل من علماء الشيعة أفادنا أن الامامية « الاثنى عشرية » تنكر مطلقاً القول بالحلول ، وتكفر من يقول به كلياً أو جزئياً .

٢ — ويذكر المؤلف ان العامة وقفت ضد الامام أحمد بن حنبل ،

والواقع ان الخلافه هي التي اضطهدته لرفضه الاعترال .

٣ - كما يفترض المؤلف بعض فرضيات عن حاضر العالم الاسلامي ومستقبله ، لم نستطع الاقاضه في الرد عليها ومناقشتها ، وكان الأخرى أن يجرد الكتاب من التوجهات السياسية الخاصة التي تقتضى مع للبحث العلمي .

لقد طبع كتاب وعمومين هذا ثلاث طبعات في الفرنسية كانت آخرها عام ١٩٤٦ ، وهي الطبعة التي ترجمنا عنها ، لاسيما وان المؤلف أدخل فيها تعديلات واضافات لم تكن في الطبعتين السابقتين . وقد ترجم الكتاب الى الانكليزية عام ١٩٥٠ ، وحين راجعنا هذه الترجمة وجدناها أسوأ مثال للنقل المليء بالنقص والتشويه والحذف دون عناية بسياق الموضوع .

وقد ظهرت بعض غلطات مطبعية أصلحنا أهمها ونعتمد الى القارئ عن ذلك .

وأخيراً ، يسرنا أن نقبل أي رد يتقدم به القراء في الصحف أو الرسائل ، كما يفيدنا وينير السبيل أمامنا حين نقدم على طبع الكتاب ثانية ان شاء الله .

مقدمة المؤلف

يتكون العالم الاسلامى اليوم من جماعات مختلفة تسعى من أجل تكوين دول ، والعمل في نفس الوقت على الاحتفاظ بشيء من الوحدة الدينية . هذه الوحدة اختلطت لمدة عدد من القرون بالوحدة السياسية ، بحيث جمع الخليفة في شخصه بين القوة الزمنية والسلطة الروحية . هكذا وجدت الجماعة الاسلامية ، متشعبة نظمها الروح الدينية . وهذه النظم ذاتها ، هي التي نحاول تقرير القول فيها هنا ، مشيرين الى تطورها ، والى انها حتى في العصر الذي بلغت فيه اكل وحدة في الظاهر ، كانت خاضعة الى أمرجة متنوعة ومأثورات متباينة .

حفظ هذا الكتاب الصغير الحجم في طبعته الثالثة نفس الترتيب الذي كان للكتاب في طبعته السابقتين تقريبا ؛ ولكن لما كنا وجدنا في الطبعتين السابقتين بضعة هفوات وفراغات وامور غير دقيقة ، فاننا اخذنا انفسنا بكتابة اجزاء باكملها من جديد ، أملا منا بتقريبها اكثر من قبل الى الجمهور المثقف ، وجعلها اكثر نفعاً للباحثين في الاسلام .

وقد سجلنا قائمة من المصادر في الطبعتين السابقتين حذفناها في
هذه الطبعة ، واننا نحيل القارئ الى كتاب جان سوفاجيه:
Jean Sauvaget وهو مقدمة لتاريخ الشرق الاسلامي : رسالة في
المصادر :

Introduktion al'histoire de l'Orient musulman:
essai de bibliographie (1948)

وننصح بقراءة الست والخمسين صفحة الاولى والتأمل فيها .
وحسبنا هنا في كل فصل الاشارة الى بضعة مصادر يمكن الحصول
عليها بسهولة والى بضعة مقالات من دائرة المعارف الاسلامية E. I .

الفصل الاول

الحاكم الاسوي

استراة . لغاة . نظم

إن نظم العالم الاسلامي هي تلك النظم المشتركة بين الشعوب التي اعتنقت الدين الاسلامي ، كنتيجة للفتح او كثمررة للدعوة السلمية التي قام بها الدعاة ومختلف هيئات التبشير الاخرى . ولازال للاسلام مكانة محترمة في الحياة الدينية للبشرية ، فهو ينتشر بين مئتين وخمسين مليوناً من المؤمنين به المنبشرين في بقعة واسعة جداً تمتد ما بين الصين ومراكش .

حمل الفاتحون العرب الاوائل هذا الدين في القرن السابع الميلادي الى سورية ومصر والعراق ، حيث تقطن شعوب لم تكن بأية حال غريبة عنهم ، كما ان فروقهم الدينية لم تقف حائلاً في سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلم العربية واعتنق الاسلام . ومن مصر انتشر

الاسلام الى بلاد البربر التي لاقى المسلمون صعوبة في فتحها . وما لبثت العقيدة الاسلامية ان اجتاحت في النهاية المذاهب الدينية المتباينة ، كما سادت العربية ، لغة القرآن ، غيرها من اللغات المحلية . الا انه على الرغم من هذا احتفظت بلاد المغرب بخصائصها الفردية ، وقدر لها ان تتابع تطورها الخاص في العصر الحديث بتوجيه من الثقافة الفرنسية (١) وفي خلال القرون الواقعة بين عام (٧١١ و ١٤٩٢ م) قام المسلمون بدور حاسم في تقرير مصير اسبانية ، وتركوا طابعهم الفني في مدنها ، ولا زالت لغتها تحمل اثاراً للكلمات العربية ، كما ان حياتها الاجتماعية تحتفظ ببعض عادات الشرق . ولكن من ناحية اخرى نجد ان استرجاع المسيحيين لاسبانية وحكم الملوك الكاثوليك لها لا يزال يكن لها المغرب كرها عميقا . وبتمزب الاسلام في افريقية مع مسالك التجارة وانتشاره على ايدي دعاة المسلمين دخل الى بلاد الزنج وتوغل حتى المناطق الاستوائية . الا ان الاسلام في هذه البلاد الاخيرة لم يتغلغل في قلوب الاهاليين بدرجة كافية .

اما في آسية فقد تم فتح فارس سريعا على اثر انتصارات الصحابة الاولى . وكان للفارس الاثر الاكبر في دوام مجد الخلافة العباسية . الا ان فارس بتشجيعها قد اكدت على اصالتها الذاتية ، وباحتياثها للغتها وفكرها الهندي - اوروبي صان شخصيتها وحققها في تقرير

(١) من المعروف ان المستشرقين وكتاب الغرب اكثرهم ان لهم نزعات وتوجيهات قد تجانب الحق وتظلم الشرق وثقافته ، وهذا مثال له مشابها في هذا الكتاب وشبهه . ونحن هنا ننقل بامانة تاركين التعليق للمفصل والرءد لمناسبات اخرى قد تقوم بها نحن او غيرنا .

مصريها (١) وما زال السبعون مليوناً من المسلمين الهنود يشغلون مركزاً بارزاً في شبه القارة الهندية . وتظهر أهمية مسلمي الملايو بكثيرتهم التي تبلغ خمسين مليوناً وبذشاطهم التجاري . وساعدت الاصول البشرية والموقع الجغرافي والحماية الهولندية على اعطاء اهل الملايو شخصية ثابتة . فاذا انتقلنا الى الصين وجدنا ان الجماعة الاسلامية رغم اهميتها قليلة العدد (حوالي ثمانية ملايين) مما يجعلها غير ظاهرة في زحام مئات الملايين الذين يكوّنون الشعب الصيني . والعريضة عندئذ مجرد اداة دينية لا يعرفها سوى المثقفين .

سار الاسلام من فارس شمالاً عبر نهر جيحون وما وراءه الى الشعوب التتارية التي مازالت متمسكة بهقيديتها . ونحت ظل الاثراك العثمانيين اقتحم الاسلام آسية الصغرى وتركية الاسيوية وتقدم باتجاه نهر الدانوب والبحر الادرياتيكي . وفي الشمال حل التتار هذا الدين الى روسية حيث ما يزال موجوداً كقوة حية . ونستطيع هنا ان نتجاهل جماعات اسلامية اخرى صغيرة ذات اصول مختلفة تنبت هنا وهناك في اقطار العالم .

لم تفقد اية من المجموعات الكبرى الالفة الذكر باعتمادها الاسلام خصائصها الاصلية المنبثقة عن وضعها الجغرافي وماضيها وعن الصفات الذاتية التي يتميز بها افرادها . وتظهر تلك الخصائص بجلاء في لغاتها . ونستطيع القول بشيء من المبالغة ان نظم اي شعب اسلامي

(١) في صدد الحديث عن فارس والهند والملايو يضيف المترجم الانجليزي بعض الجمل من عنده لم ترد في النص الاصل . وقد اثّرنا ان ننقل بعض الاضافات التي حشرها المترجم الانجليزي لاسيما البعيد منها عن موضوع الكتاب .

تكون اكثر اسلامية كلما اقتربت لغته من لغة القرآن . باتخاذ هـ .
المبدأ ، نستطيع ان نضع في الصفوف الاولى من المسلمين اولئك
الناطقين باللغة العربية ، وان كان هؤلاء قد تكلموا العربية بعد الفتح
كما في حالة سكان سورية والعراق ومصر والمغرب . ومع هذا فيلزمنا
الا نعتقد بأن هذه الشعوب تتكلم بلهجة واحدة او ان عاداتها واحدة .
فلهجة الشامي وعاداته تختلف بصورة واضحة عن لهجة المراكشي
وعاداته . لكن اوجه الشبه بينها اقرب شقة بكثير مما نلاحظ بين
العرب وتلك الشعوب والعروق التي احتفظت باصالتها القومية عن
طريق استمرارها على لغاتها القديمة . واقتباسات هؤلاء الاخيرين من
القرآن ذات صفة شكلية جانبية ، فهي تقتصر على المصطلحات الدينية
والتعابير الادارية والكلمات المجردة [كالحق والايمان . . .] وبكلمة
اخرى لم يشمل الاقتباس غير التعابير التي يتلفها شعب محكوم من
آخر يسوده ويفوقه تمدنا . واكثر من هذا نلاحظ ان العربية قد
فرضت كتابتها على الفرس والترك والملايو . . الخ . وقضت نهائيا على
الالفباء القديمة لهذه الشعوب . حصل كل هذا باستثناء لغة واحدة هي
الاوردية وهي لغة تكونت في القرن الثاني عشر الميلادي من
الالفباء السنسكريتية وبعض خصائص العربية . لكن كل لغة
احتفظت بطبيعتها الخاصة بها وذلك لان هذه الطبيعة لا تنتج عن
الكلمات وحدها وانما عن النحو والصرف ايضا اي ما ينشأ عن
التركيب الشكلي للجملة وترايط الكلمات فيها . وقد اقتبست الفارسية
ثلث الفاظها من العربية و اضافتها الى مجموعة كلماتها الهندو - اوربية ،

نكنها احتفظت باصول تصريف الفعل الخاصة بها وطريقتها الاصلية في تركيب الجمل . اما لغة الترك العثمانيين المستخدمة في الكتب والوثائق الرسمية فقد غالت في اقتباسها : بان اقلمت الالفاظ العربية والفارسية حتى انها لم تحتفظ باكثر من ثلث اللغة التركية الشائعة آنذاك . الا انها فرضت قواعدها التركية التي تبعد كثيراً عن قواعد اللغات السامية والهندو - اوربية . ونفس الحكم يصدق على الاوردية ولغة الملايو والبربرية والصومالية وغيرها . فرض الاسلام تأثيره في الحقل اللغوي ، كما في غيره ، على الحياة العقلية للشعوب التي انضمت به كثيراً او قليلاً . ومن الناحية النظرية ، يلزم كل مسلم بقراءة القرآن في نصه العربي ، من حيث ان العربية هي اللغة الدينية للمسلمين واسطة المؤاخاة كما كانت اللاتينية بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى . فقد اضافت اللغات التي دخلت في حوزتها مجموعة من الالفاظ الدينية والمجردة ، التي لم تعترض سبيل النمو الطبيعي لهذه اللغات بآية حال . وسوف نتطرق الى عيوب الالقاء العربية في الفصل الثالث عشر .

هكذا نتبين كيف ان نظم الشعوب المعتنقة للاسلام حافظت على اصالتها ، ووصف ذلك يمثل تاريخاً اجتماعياً لشطر من البشرية . واسننا من الجراءة بحيث نستطيع ايفاء هذا الوصف حقّه هنا ، وسنكتفي بتوضيح الخصائص الرئيسية للنظم التي تدين بها الشعوب الاسلامية المختلفة لعقيدتها تلك العقيدة المشتركة بينها جميعاً ، لا لان هذه الخصائص مقتبسة من القوانين الكلية للفكر البشري ، بل لانها نتاج الدين الاسلامي . ومما لاشك فيه انه قد يظهر هناك خلط

أحيانا بين العادات العربية والتقاليد الإسلامية ، في حالة تلك الأمم والتي لا تتصل بالدين اتصالا مباشراً ، اذ يكون ، التمييز هنا غير واضح ابدا لاسيما في دراسة عجلى كهذه .

ولما كان فهم العقيدة الإسلامية امراً مستحيلا دون معرفة الخطوط الرئيسية لتاريخها ، فاننا سنبداً بذكر النقاط الأساسية التي نما حولها الفكر الاسلامي في العصور الوسطى ، والاتجاهات المختلفة التي تطورت ضمنها . سنصف اذن العقائد الأساسية للإسلام وننتقل من ثم الى الواجبات الدينية للمسلم اي عباداته . ونحاول اخيراً توضيح تلك الحقائق المتعلقة بحياة المسلم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يبدو انها تميز المجتمع الاسلامي عن غيره : فبعض تلك النظم كنظام الزواج مثلاً يتبع عادات وماراسيم ليست اسلامية الاصل بل هي مقتبسة من افكار سحرية مشتركة بين جميع الشعوب ، رغم اختلافاتها المحلية .

المصادر

L. Massignon : Annuaire du Monde Musulman 3^e ed., 1929 Paris.

الفصل الثاني

الجماعة الاسلامية

بمرو العرب القرمية . محمد . الخوفنة الامرية . الخوفنة العباسية

القرية السبعية . الامراء الصني . الانراك

الاسلام دين توفيق بين عقائد متعددة ، وقد ظهر هذا الدين في بيئة واضحة المعالم ، وكان له كتاب ، هو القرآن ، احتفظ بنصه الاصلي حتى اليوم دون ان يطرأ عليه اي تحريف مهما كان ضئيلا .
وتعاليم هذا الكتاب المقدس اكملتها السنة والحديث الذي دونه بعناية وحرص شديدين علماء الاسلام الاعلام . وقد اضيف الى ما تقدم نصوص تاريخية وادبية ، وذلك كما يبدو لغرض توكيد المعرفة التامة باصول الاسلام وصدر تاريخه ، وهذه هي حقبة ليس لدينا عنها معرفة كاملة حتى اليوم على اية حال .

وليست هناك ، باستثناء حالات نادرة نادرة ، نصوص او كتابات مسجلة مدونة ، وهذه هي الاسس الثابتة للمعرفة التاريخية ،

نستقى منها معلوماتنا عن بلاد العرب الشاهلية والوسطى في تلك الأيام السحيقة في قدمها . اما النصوص والوثائق الخاصة بتاريخ جنوب بلاد العرب (اليمن وحضرموت) فهي قليلة العدد ولا تجدي في إعطاء صورة واضحة لماضيه . ومع ذلك فهي دليل على وجود حياة حضرية وتطور ديني واجتماعي اوفر نشاطا من بقية بقاع شبه الجزيرة .

من هذا وجب علينا ان نرجع الى الشعر القديم والكتابات التاريخية التي لم تجمع حتى القرن التاسع الميلادي ، اذا شئنا ان نرسم بعض المخطوط الرئيسية للحياة الدينية لبلاد العرب قبيل نزول القرآن . وفي عهد الجاهلية كانت الالهة ذات الصفات غير المحدودة تسيطر سيطرة ضعيفة كل منها على قبيلة مهمة او غير مهمة . وكانت العبادة المخصصة لهذه الالهة قلما تتميز عن عبادة الاوثان المقدسة ومنابع المياه والاشجار . ونجد عند كل قبيلة طقوساً للطواف والوقوف باشكل معينه والهرولة في صورة مواكب احتفالية وحمل المشاعل ، وكل هذه فيما يبدو تشير الى عبادة قديمة للشمس . لكن الاجرام السماوية الاخرى كانت تمجد كذلك ، كما تبقى في مكة طقس ديني هو التوجه الخاصة برؤية الهلال ، وهو يرجع الى الجاهلية دون شك . وفي كل عام ، وفي فترة تتفاوت من بقعة لاخرى ، عندما يهطل الغيث ويفتت الكلال ، يختار وليد حدث من الماشية ليقرّب في احتفال دعي الموسم ، توسم فيه صغار الحيوانات عند فطامها . وقد شعر الانسان بانه محاط بطبيعة فظة شحيحة ، وان قدرأ محتوماً . يجذبه الى الامام دون ان يحاول فهم غايته . اما آلهته فلم تمنحه من النبوءات سوى

القليل ، كما عمر عالمه جن غير منظور ما زال حتى هذا القرن العشرين
يخشى من نزواته ومنعجانه ، ذلك الجن الذي يتقرب اليه بتقديم
النذور ويسترضيه طمعا في الحصول على حمايته . كان الجن يقيم
بصورة خاصة في البقاع المقدسة وبطون الوديان ، لذلك مر الناس بها
عجالي وجلين . وظهر عند الناس شعور غامض بان الانسان حين
يموت يترك خلفه قرينا يحيا من بعده حياة شاحبة بائسة ، ويتشكل
هذا القرين بشكل طير الهامة الذي يحوم حول قبر صاحبه القليل الذي
لم يؤخذ بشأه ، فيظل يندبه بنواح عال حتى يؤخذ له بالثار .

ان نبوءات الالهة يعبر عنها الكاهن ويفسرها للناس ، واونى
العرافون رؤى خاصة بهم ، فعملوا على تفسير الامور الخفية وتنبأوا
بالمستقبل . استعمل هؤلاء الكهان والعرافون السجع وهو نثر ايقاعي
مقفى كاسلوب للتعبير عن رؤاهم . واستخدم الشاعر حتى قبل القرن
السابع الميلادي ايقاعات (الاوزان الشعرية) غنية في تعدادها وقام
بدور الملهم مدافعا عن عرض قبيلته متغنيا باجسادها ومعرضا
بمثالب اعدائها .

لم تكن الطبيعة في بلاد العرب تدعو الى الحياة المتحضرة الا في
الجنوب والشمال الشرقي ، اما في البقاع الاخرى — ما عدا واحات
قائلة — فان البدو كانوا في ترحال مستمر لا لمجرد البحث عن
الكلاء لقطعانهم فحسب وهذا غرض سلمي ، وانما لغزو القبائل
الاخرى ليجلوا محايها ، وخلال هذا تدشب حروب طاحنة ، تنشأ على
اثرها طوائف اجتماعية جديدة وتباد اخرى . وبين جماعات الحضرة
والبدو الاقحاح ، الف اهل مكة طائفة اجتماعية هي مزيج من سكان
عدة مدن ، اخلصت للتجارة وسيرت القوافل . ويبدو ان العلاقات

التي كونوها مع اهل سورية واليمن (في رحلتى الشتاء والصيف)
ومع سكان المسالك المؤدية اليها ، كل ذلك مكنهم من الحصول على
مجد مؤثر ليهيكلهم الصغير وهو الكعبة وافادت اكثر من هذا من
مجاورتها للاماكين واقبال الناس على زيارتها المقدسة الخاصة بعبادات
البدو . هكذا غدت مدينة مكة مركز الحياة الدينية لاواسط بلاد
العرب والحجاز ، واخذت تجمع بالتدريج من يجا غربيا من الافكار
المتسربة اليها من العبادات الأخرى . وانتشرت النصرانية منذ زمن
بعيد بين بعض القبائل أمامن طريق دعوة الاحباش أو بتأثير فارسي
متمثلا في المذهب اليعقوبي (الذي بشر به نصارى سورية المعتقدون
بطبيعة المسيح الواحدة) . كما كانت هناك جماعات يهودية أو من
العرب المتهودة التي وان كانت ثقافتها الدينية ضئيلة الا انها تمسكت
بشدة بشرائنها وشكول عباداتها .

في بداية القرن السابع الميلادي تسربت الى الحجاز عدة تيارات
فكرية أجنبية فتأثر بها بعض الافراد بدرجة كافية مما دفعهم الى
رفع مستواهم الديني الى مستوى أرفع مما هو عند البدو وفي صورة
يدعوها الغرييون بال Animism [وهو القائل بان لكل موجود حتى
الجماد روحاً وحياة لذلك يترجم عادة بالمذهب الحيوي] . وفي الاجتماعات
التجارية المسالمة لدى القبائل وهي التي كانت تقام في عدة مواضع
بالحجاز خلال الاشهر الحرام حين تعقد الهدنة العامة (وهي الاسواق)
في هذه الاجتماعات ارتفع صوت المسيحية الذي يبدو انه تواعد بيوم
الحساب داعياً في نفس الوقت الى نعيم الجنة وعذاب الجحيم . وانتظر
يهود يثرب نبياً ، كما رجا كثير من المتلفين على مصائرهم ظهور من

بأخذ بيدهم ويرشد هم . ونشرت المجوسية في جميع انحاء الشرق فكرة الصراع بين الخير والشر وربما نجد لذلك أنشأاً في العقيدة الاسلامية . ونحن لا نعرف بدقة ولن نعرف حياة الرسول التي قضاها قبل البعثة كتاجر قرشي من أوساط الناس ، وكيف انه شعر بأنه الشخص الذي قدر له ان يحمل رسالة الى العرب هي كلمة الله الذي بدأ الناس يلهجون باسمه الأعظم .

يمكننا أن نفترض بأن النبي تأثر بالعقائد النصرانية اليهودية التي اعتنقها البعض في مكة (١) والتي وجهت أذهان الآخرين الى وحدانية الله . ولما تحرر محمد (ص) عند الزواج من أعباء الحياة المادية يبدو انه اتجه بكلية الى التأمل . فتحدثنا كتب السير النبوية انه كان يتجول على جبل أبي قبيس المشرف على مكة : وكانت له رؤى انهم بتعيينها في صورة منظورة عيانية هي صورة جبرائيل وهو لدى النصاري الملك الذي بشيـم مبعثه ميلاد المسيح ، وأصبح لدى المسلمين ملك الوحي في سنة ٦١٠ م نزل جبريل على محمد بالوحي فنقله الى زوجته خديجة ، ثم الى عدد غير قليل من المؤمنين ، ظهر هذا الوحي أول الامر على شكل تحذيرات قصيرة ملحة تضمنتها أقصر السور القرآنية وجاءت هذه السور الأخيرة في ترتيب القرآن الذي قام به جامعوه فيما بعد . وقد استقبلت قریش نبوة محمد بشيء من عدم الاكتراث في البداية ثم ما لبثت ان احتاجت حينما أدركت بأنه لم يكن يهدف الى اضافة اله الى آلهتهم كما ظنت بادىء الامر ، بل كان يريد ان يحل محل آلهتهم إلهاً جديداً مجهولاً لدى أهل قریش ، ولم يكن كما

(١) لم نشأ حذف هذه الفكرة او مناقشتها وذلك جرباً على عادتنا بنقل الاصل كما هو وان كان كفوفاً .

تصوروا ضامنًا لمكثهم الامن والثراء . ومع ان شخصيات هامة كابي بكر وعثمان وعمر دخلت الاسلام الا ان الجماعة الاسلامية كانت مجرد طائفة محدودة العدد من آل هاشم ، ومن أشخاص آخرين من الطبقات المستضعفة في مكة . وظن محمد أن دينه قد يليقبولا لدى الاحباش المسيحيين أحسن مما لقيه في بلده ، سيما وأن بعض اتباعه أقاموا مدة طويلة في ربوع الحبشة . وذهب هو نفسه الى الطائف الواقعة على مسافة يومين الى الجنوب الشرقي من مكة حيث حاول عبثا ان يجذب الى دينه طائفة نشطة من أهل هذه المدينة من الفلاحين والملاكين المتحضرين .

وعلى عكس هذا فانه حين تقصى اتجاهات أهل يثرب اقتنع بأنهم على استعداد للترحيب به اذا ما هاجر اليهم ، وذلك لوضع حد للخلافات الداخلية التي استنفدت كل قوام وبددتها . كان أهل المدينة خليطا غير مستقر من قبيلتين عربيتين وثلاث قبائل يهودية ، وكان نزاعهم يدور حول الاسماثثار بزعامة المدينة المتحضرة المحصنة جيدا من غارات البدو ، والتي كانت تحتل بقعة وافرة المياه تسمح بزراعة مطردة للأرض . وكان النصر هذا الوقت في جانب القبيلتين العربيتين الأوس والخزرج ، ولكن المنافسة الدائمة بينهما هددت بانتقال السلطة الى القبائل اليهودية . وقد قابل محمد أفرادا من القبائل العربية الذين جاؤوا لبشركوا في الاحتفالات الدينية التي كانت تجري سنويا في مكة وما حولها . اعتنق هؤلاء اليتريون دين محمد وشاطروه مصيره وفي سنة ٦٢٢ م ترك المسلمون مكة (الهجرة) في جماعات صغيرة وتبعهم في النهاية محمد وأبو بكر وبعدهم علي .

استمر الوحي على الزول خلال السنوات الشاقة التي قضاها النبي

في مكة ، بكلمات نارية محاطة بهالة من العظمة ، يهيب يوم البعث والحساب الذي سينتاب فيه المحسنون عن حسناتهم بحياة خالدة في جنات النعيم ويجزى الكافرون على ما قدمت أيديهم بثس العقاب في عذاب السعير . كما أكد الوحي وحدا نية الله التي انكرتها قريش ، وفرض واجبات الصلاة الا انه لم يحدد شكلها وهددها . ولم تلبث الدعوة الالهية ان فقدت حماسها حين انشغلت بتقرير قواعد الحياة وبصورة خاصة حين اخذت تروي قصص الانبياء القدماء الذين كان محمد خلفا لهم ، والذين كانوا ارهاصا للإيمان الحق ، ذلك الايمان الذي لم يخرقه سوى شرو وضمه لال اليهود والنصارى ، ولم يدع محمد في الواقع بأن دينه دين جديد ، ذلك انه جاء لينذر بالحق كخاتم للنبيين بعد عيسى المسيح ، وليجى ويؤكد دين ابراهيم القديم . هكذا صار ليهود المدينة مجال للدخول في هذا الدين الجديد .

خلال المفاوضات التي شرع بها الرسول في السنوات الماضية ، وفي غمرة الصعاب التي لاقاها في توجيه طائفة المؤمنين المحدودة العدد ، قام محمد بدور القاضى والمشرع والزعيم ، وهي مهمات قام بها خير قيام بشكل مفاجيء معجز بمجرد ان وطلت قدماء قباء عند ابواب المدينة . واستغرق الوحي بعمق حتى ظهرت له افكاره الخاصة فيما بعد وكا أنها افكار الله . واستطاع محمد بسهولة وباخلاصه التام مستعينا بكلمة الله ان يحل كل المشاكل التي اعترضت حياة الجماعة الاسلامية ، كما تبسر له كذلك حل مشاكله الشخصية التي بلغ بعضها في التطرف حد الانارة . ومن المحتمل ان القرآن حين هدد قريش في سورة الاولى بالعقاب الاليم ، كان محمد مؤمنا بقرب يوم الحساب ، ومما يدعو الى

الدهشة ان هذا مماثل ما تنبأ به المسيح ، لكن القرآن هجر في المدينة
نعمة التحدث عن العالم الغيبي وتوجه الى تشريع ما يتصل بهئون الواقع
وماله اثر باق .

هكذا نجد ان السور المدنية في مادتها وصورتها ظهرت للمفسرين
من المسلمين والاوربيين من بعدهم على انها تتميز عن السور المكية على
الرغم من ان الترتيب الزمني معدوم نهائيا في نص القرآن في وضعه
الاخير .

حين وصل الرسول الى المدينة عقد بين القبائل العربية ميثاقا
يدعوم لا الى الدخول نهائيا في الاسلام ، بل الى الاعتراف بسلطته
الشخصية ، التي امكن بصفته نبيا ان تظهر بالتدريج للمؤمنين على
انها ممثلة للسلطة الالهية .

اما اليهود فقد جاهد الرسول ان يجذبهم الى جانبه مستعينا في
ذلك بالوحي القرآني الموائم لما في ضائرتهم ، لكن جهوده ذهبت سدى .
وعلى الرغم من تهاوة الثقافة العقائدية ليهود المدينة ، فانها كانت كافية
لمنعهم من اعتبار شخص محمد النبي المشرع والمنتظر عندهم في التوراة .
ولما صدم محمدا خداعهم ، اسرع الى بغضهم ، وساعدته ظروف
مواتية ، كما ابده الوحي في ذلك ، فعمل على افنائهم او طردهم .

ان الاتفاق الذي عقده المهاجرون مع الانصار من اهل المدينة
والمتضمن للتآخي في ، الجانبيين المعنوي والمادي ، لم يتيح للمهاجرين ان
يساهموا مساهمة فعالة في الحياة الاقتصادية للمدينة ، وقد اعتمد
وجودهم على ضيافة الانصار لهم ؛ تلك الضيافة التي ثبت انها لو استمرت
طويلا لغدت عبئا ثقيلا على كاهل اهل المدينة . عندها اتجه المسلمون

الى التعرض لقوافل غير المسلمين وماشيئهم المارة بالمدينة (١) وجهر
المسلمون حملة ضد قافلة مكية كانت تجلب من الشمال بضائع غنية ،
وفي حراستها نفر من قريش ، فأدى ذلك الى واقعة بدر التي اعتبرها
مؤرخو الاسلام هزيمة للمشركون كالمهاجم المسلمون بعون من
الملائكة . ولم تحل الحملتان اللتان قادها اهل مكة ضد المدينة دون
اغناء النبي المؤمنين به باموال اليهود ، كما عمل في نفس الوقت على تثبيت
دعائم سلطته ونشرها بين القبائل البدوية . وفي ذات الوقت ، اعلن
القرآن قدسية الاماكن التي قدسها ابراهيم نفسه في مكة ، فأصبحت
صلوات المسلمين تقبل الكعبة . وشعر القرشيون بفائدة وضرورة
عقد اتفاق ، وقد انجز هذا العمل على يد اشخاص عقلاء هم العباس
عم الرسول وابو سفيان . وفي سنة ٦٣٠ م دخل محمد مكة منتصراً ،
وطهر الكعبة من الاصنام ، فغدت بيت الله الذي هو معنا ايها كنا .
توفي الرسول سنة ٦٣٢ م دون ان يعين للمسلمين خليفة له ،
كما لو كان يعتقد حقيقة بان العالم سيفنى قبله . ان الجماعة الاسلامية
ايام الرسول لم تكن متجانسة ، الا انه استطاع الجمع بينها عن طريق
وحدة العقيدة وسمو شخصيته وكونه نبيا مرسل . وقد كان شيوخ
قبيلة وحاكما اعلى يوحى اليه من الله دون ريب ، وذلك من غير ان
تكون له السلطة التي مارسها الملوك او جرت بها التقاليد السياسية في
تلك العصور . ولم يعلن الوحي عن السلطة التي تخلفه والتي ينبغي ان
تضمن استمرار الجماعة الاسلامية ، مما ادى الى ارتباك الحالة والتهيدة

(١) يشير هنا المؤلف الى ان المسلمين « مارسوا في هذا عادة البدو التجارية في
نهب ولب بضائع جيرانهم » ولما نظن ان هذه المقابلة صادقة لاسيما وان المسلمين
الاولاء عرفوا بالتمسك بالفضائل الرفيعة .

لحصول انقلاب . اما فكرة الوراثة الغريبة عن العادات السياسية للعرب فنبتت نهائيا لاسيا وان محمداً لم يخلف ولداً ذكراً . ولم تبعث فكرة الحكم بالوراثة الا بعد حين . وبصيرة غريزية استمعين بنظام الشورى الذي اتبعته قبائل العرب قبل الاسلام في انتخاب شيوخهم . وجرت محاولة للتوفيق بين الطموح الشخصي والاعتداد القبلي والميول الشائعة ، الا انه في الاخير كان من حظ المسلمين ومستقبل الاسلام ، ان يصبح ابو بكر صاحب النبي وابو زوجته الاثيرة لديه خليفة لرسول الله . وكما توفي محمد ولم يعين له خلفا ، فانه لم يفكر كذلك بجمع آيات الوحي التي نزلت في مدى عشرين عاما ، والتي رسخت في اذهان الناس باعادتها وتكرارها عند اداء الفرائض الدينية . ولم يجمع القرآن جمعا نهائيا الا زمن عثمان .

اخذت الجماعة الاسلامية بتكوين نظم اجتماعية وعائلية جديدة . وبعد جمع القرآن في نصه النهائي ، اصبح للمسلمين تشريع قانوني ، تطرق احيانا الى امور فرعية جانبية ، وان لم يكن له قاعدة عامة او مبدأ دستوري . وكان محمد المرجع الاعلى في التوفيق بين الطوائف الاجتماعية المتباينة العادات ، مادام ذلك التوفيق لا ينافي الناموس الالهي . وتعم تعاليم القرآن اسلوب الحياة الجديد الذي نشأ عن الدين الاسلامي ، ذلك الاسلوب الذي حل محل فضائل الجاهلية التي يمكن جمعها في صفة « المروءة » وهذا هو عين الاسلوب الذي عاش وفقه الصحابة مقتدين بالرسول وعاملين جهدهم على ان يحتذوا حذوه . كما كان الطريق المستقيم الذي سلكه الخلفاء الراشدون ابو بكر وعمر وعثمان وعلي . لكن الانتصارات الباهرة التي احرزها الخليفة عمر غيرت في بضع سنوات معالم الحياة المادية والعقلية

كانت بلاد العرب تحيا حتى هذا الوقت على هامش المدنية الشرقية ،
نشاهد انها اخذت تدفع بقبائلها فجأة كالسيل الجارف في غمرة العالم
المجهول يحدوها الدين الجديد الذي اعتنقته قريباً ، في هذا العالم المجهول
وجدت معتقدات قديمة وحضارات رفيعة اختلطت ببعضها وتداخلت
وطبعت الحضارة الاغريقية باثارها الواضحة ، كما تركت فيها المجوسية
بعض الاثار . كما ان الاسكندرية لم تطمس حضارتها الا منذ عهد
قريب ، في حين ان انطاكية كانت لاتزال تحفل بمدارسها الفكرية ،
بينما جند يسابور نراها تقوم كركز مهم للمعاقبة .

في هذه البقعة من العالم الغنية بذكراياتها والازخرة بالحياة ، واجهت
فارس رومانيم يزنطة . ويتحدث القرآن عن الانتصارات المتبادلة بين
الفرس والروم والتي انتهت بانتصار هرقل ، ذلك الانتصار الذي
امتلك نخيلة اهل مكة . وهناك رواية نقول ان عمداً راسل اباطرة
بزنطة وملك الساسانيين يدعوم الى اعتناق الاسلام . وقد تجمل
صراعهم من اجل الزعامة في ذلك العداء المرير بين الحكام الصغار في
الدولتين العربيتين في صحراء الشام ، هاندولة اللخمين في الحيرة على
الفرات الادني التي حكمت تحت حماية الفرس ، والغساسنة في بصرى
التي حكمت باسم بزنطية في جنوبي سورية . وقد هددت جحافل العرب
في بضعة سنوات واكتسحت كلاً من فارس وبزنطية ، وحكم
العرب الشعوب التي طالما تعودت على تغير السادة الحاكمين ، واكثر من
هذا ظهر الاسلام في اعينهم على انه (دين خارج على المسيحية) او

نوع من الهرطقة المسيحية *Heresie Chretienne* .

لم يكن معظم الفاتحين من المسلمين قديسين ولم يتصفوا كذلك
بالرغبة على ارغام الشعوب على الدخول في دينهم ، وقد اتجهت هماسهم

الى التمتع بثمار فتوحهم بسلام ، فهم بعد ان يجمعوا غنائم الميسدان ،
يجنون غلال الارض دون مشقة زرعها . ولقد اعتاد البدو ان يأخذوا
القديمة من سكان الواحات المستقرين . وابتكر القرآن طريقة للتعاون
مع الشعوب المفتوحة ، من « اهل الكتاب » (اليهود والنصارى)
وحمايتهم . ثم عمت هذه الطريقة جميع الذين رضوا بحكم المسلمين ،
فدفعوا الجزية مقابل حماية ارواحهم وممتلكاتهم وترك الحرية لهم في
ممارسة معتقداتهم وعاداتهم ، والابقاء على حكاهم في وظائفهم . وكان
للسعوب المفتوحة حضارة ارقى من حضارة الفاتحين ، لكن الاخيرين
مالبثوا ان ادر كوا الحاجة الملحة الى النظام في سياسة الرعية والاستمتاع
بطبقات الحياة ، وشعروا ان هذا يجب ان يحصل في نطاق اوسع من
ذلك الذي حصل في حيز تطور الفكر الديني او مستوى الموازين
الاخلاقية . وفي ذات الوقت اكتسب المسلمون تحسناً بالفن لم يشه
فيهم اي حافز قبل اليوم . ولم يعد القرآن كافياً بنصوصه المحدودة
الى ان يلبي الحاجات الجديدة التي طرأت على حياة المسلمين . لهذا تطلب
المسلمون قانوناً جديداً لا يتنافى مع المبادئ الرئيسية للتشريع القرآني
ومع هذاتوفر فيه مرونة ومقدرة على التحور . ووجه هذا القانون في
السنة النبوية التي اعتبرها الخلفاء الراشدون صراطهم المستقيم ، ذلك
الصراط الذي شرعه الرسول كقدوة لامته من بعده .

هذه السنة ، كالقرآن ، تناقلتها الالسن من جيل الى جيل فجمعت
بذلك ذكريات متعارضة ومادة موضوعة ذات هوى ، اصبحت فيما بعد
حججاً للخلافات التي نمت واستفحلت في المجتمع الجديد الذي كان في
دور التكوين . وحين جمع علماء الحديث في القرنين الثامن والتاسع
للميلاد (الثاني والثالث للهجرة) الاحاديث المتفرقة وصنفوها كان

عليهم ان يميزوا بين الصحيح والضعيف منها .
وفي الفصل التالي سيعلم القارئ كيف فعلوا ذلك . واكتسبت
هذه الاحاديث بمجموعها صبغة العقيدة الاسلامية ، ودعيت بالسنة ،
والحديث هو رواية موجزة اللفظ منسوبة الى الرسول .
ان مكانة السنة قد جاءت في الحقيقة بوصفها تأكيداً لمنزلة
القرآن . لكن رواية الحديث من جيل الى جيل ، وحتى التعبير عنه ،
قد تضمنت عنصراً من عناصر الالهواء والازغات الشخصية . وكان في
هذا تحول عن كلمة الله الاولى التي اوصيت الى محمد ونقلت عنه ،
واتباع لكلمة محمد [الحديث] التي رواها عنه الصحابة والتابعون .
وبسبب الاحترام المطلق الذي تمتع به القرآن ، نجد الانشقاق الكبير
الذي اصاب الجماعة الاسلامية بعد اغتيال الخليفة عثمان سنة ٦٥٦ - ٨٣٥
واصبح علي خليفة ، وهو زوج فاطمة بنت الرسول ووالد حفيديه
الحسن والحسين .

واضطرب علي الى محاربة بعض الصحابة الذين شاركهم عاقبة
زوج الرسول التي ساهمت بصورة فعالة في النشاط السياسي آنذاك .
وفي النهاية سنة ٦٦١ م جابه علي اهل الشام بزعامة معاوية وجهاً
لوجه ، وقد ارغمه الاخير على قبول التحكيم الذي كانت نقيضته في
غير مصلحة علي ، والذي رفضه الخوارج اشد الرفض ، وتمسكوا
بحكم كتاب الله . وقد ترك الخوارج معسكر علي الذي لم يلبث ان
اغتيل فانتقلت الخلافة الى البيت الاموي (٦٦١ - ٧٥٠ : ٤١ - ٨٣٢)
ان القرن الذي حكم خلاله الامويون ليثير اشد الاهتمام دون
شك ، مع انه اقل فترات التاريخ الاسلامي وضوحاً في الازهار . ففي
هذا القرن وضعت جميع النظم الاسلامية وبدأت كافة الاتجاهات

الفكرية ، حينما اخذت الافكار تتجاوز حدودها الاقليمية الى آفاق أوسع . وهو عصر تفتح الروح الاسلامية وسط نراء مادي غزير ، وهي كذلك الفترة التي مهدت بعد سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) للدولة العباسية بان تكون مركزاً مهماً للحياة العقلية . وكان امراء الاسرة الاموية الذين حط المؤرخون العباسيون من شأنهم ، حكاما حاذقين واقوياء العزم في غالب الاحيان ، وقد مهدوا السبيل لكي يحتضن المجتمع الاسلامي اولئك الذين كانوا حتى الان مجرد دافعي جزية لا غير .

ان الامبراطورية الاسلامية التي استطاعت في بضع عشرات من السنين ان تمد رقعتها من خراسان والسند الى مراكش وبلاد الغال الافرنجية ، لم يكن لها دستور ولا ادارة منظمة . والخليفة وهو ممثل القرآن والسنة النبوية كان يتنازل عن سلطاته اللاحدودة الى وكلاء هم حكام الاقاليم وقواد الجيش وجامعو الضرائب والقضاة . وكانت واجبات هؤلاء هي ضمان الدفاع عن حدود الامبراطورية والحفاظ على الامن الداخلي والاشراف على جباية الضرائب والرسوم وتحصيلها في مواعيدها المقررة . وكان هذا نظاما لم تسبقه سابقة او مبدأ من قبل ، قام على كفاءة واجتهاد الرؤساء لا على قواعد شكلية مرسومة .

اما تقسيم الامبراطورية الى ولايات كبيرة فقد بني على اساس جغرافي . واصبحت بلاد العرب « مهد الاسلام » على هامش الامبراطورية ، بحيث ان محاولات ابن الزبير في اعلان نفسه خليفة في مكة ذهبت سدى سنة ٦٩٢ م (٥٧٣ هـ) . لكن بيت الله بقي مركزاً دينياً للعالم الاسلامي ، ولم يلبث قبر الرسول في المدينة ان

غدا مكانا مقدسا لدى المسلمين يحترمون به درجة تساوي احترامهم
أبيات الله ، وفي القرن الثامن الميلادي كانت المدينة مازنل مركزاً
للدراستات النقفية ، ويعتبر مالك بن انس ابرز الفقهاء الذين ظهوروا
فيها . كما احتوت المدينة الى جانب ذلك مدرسة شهيرة دربت فيها
الجواري على الغناء والموسيقى .

اما دمشق فصارت مركز الامبراطورية ، حيث ائيب الجند
جزاء خدامتهم في الحرب بقطع من الارض ، وهؤلاء هم اهل الشام
الذين كونوا جيشاً مخلصاً على الدوام لبني أمية الذين كان يعكر صفوهم
القيسيون من الشمال وبنو كلب من الجنوب . وقد احتفظ معاوية في ماصمته
بالادارة البيزنطية ، تلك الادارة التي جاهد اعقابها في ان يصبغوها
بصبغة اسلامية دون ان يمساوا تركيبتها الاساسي .

وكان الخوارج والشيعة يثيرون الاضطرابات في العراق ، وفي
نفس الوقت تطورت مصادر الثروة المادية في هذا البلد بتوجيه من
حكامه البارزين من مثل زياد بن ابيه والحجاج الذين بالاضافة الى
حكمهم العراق انابوا عنهم من يحكم البلاد الايرانية الفسيحة اي
خراسان . اما مصر فقد امدت الخلفاء بثرواتها الطائلة التي لم يفس
الخليفة ان يقدق منها على مجموعة كبيرة من عرب الجنوب (البايين)
الذين استوطنوا هناك ، وقد حكمها ولاية من حملتهم عبد العزيز اخو
الخليفة عبد الملك . اما الجزء الغربي من العالم الاسلامي فكان في
المراحل البدائية من تنظيمه الاداري .

احتفظ بلاط الامويين بمظهرين ، مظهر التمدن وما يتبعه من
ترف ، ومظهر اخر مفرط في البداوة . وقد احب الخلفاء غوطة
دمشق . وهي السهل الوافر المياه الواقع على بعد بضعة اميال شرقاً

والذي يتلاشي في الصحراء شذا فشيتا وكان النازحون من مكة والطائف على السواء من الحضر دون شك ، وان كان اجدادهم اصحاب قوافل طالما اخترقوا بها الصحراء ، وان هؤلاء جميعا لم يلبثوا ان تذوقوا حياة المدن مع ان اغلبهم من امهات بدويات . وقد ابنتى بعضهم بيوتا ريفية واخرى للصيد في مواقع جيدة الارواء ، كما كانت لهم قصور على حدود الصحراء كشفت حديثا مما اتاح لنا ان نتصور النماذج الاصلية لها ونستبين معالم الفن والتمدن في عهد بني امية .

بعد ان جاء معاوية الى الخلافة على اثر التحكيم الذي جرى في صفين وارتضاءه على السبي الطالع ، اخذ يطبق نظام الوراثية في الحكم بعد ان ايد ذلك رجال حكومته واعوانه ، وهي فكرة غريبة على التراث العربي . وفي اجتماع عقدين زعماء القبائل والشخصيات البارزة في الامبراطورية ، استطاع معاوية ان ينصب ابنه يزيد وليا لعهده . وقد تبنى العباسيون هذا النظام الجديد وان كان قد رافقه بعض الاغتيالات .

اما العباسيون فامسكوا بالسلطة بعد كفاح تعددت اصوله ، وقد ادى مجيئهم الى تغيير جذري في الخلافة . وبينما تمسك الامويون بتقاليد قريش فقد ظلوا عربا خلصا في اعماقهم رغم تكيفهم الحاذق للعهده الجديد ، واقتبسوا النظام المالي لنصارى سورية ومصر الذين اعتنق فريق كبير منهم الدين الاسلامي فيما بعد . لكن المسلمين الجدد في المقاطعات الشرقية كان اغلبهم من شيعة العلويين ، وظلوا كذلك رغم انهم امنوا بكثير من الهزائم ، اذ لم يكن على رأسهم من يقودهم قيادة حازمة . وقد اعتقد هؤلاء بشرعية آل الرسول في الخلافة وهي عقيدة ارتاحوا اليها لانها وائمت نظام الحكم الذي سار عليه ملوك

الفرس والمستند الى نظرية التفويض الالهي . وقد تنقل العباس عم الرسول ببراعة فائقة بين المسلمين وقريش وساعد على فتح مكة سنة ٦٢٩ م (٨٨ هـ) . وقدر لذيته الذين ورثوا عنه براعته ومكره ان يثيروا الخواطر ضد الامويين في العراق خلال القرن الثامن ، وقد تظاهروا متحمسين لارجاع الحق لآل علي ، في حين انهم لم يخدموا سوى مصالحهم الخاصة بصورة كلية . واستطاعوا ان يكسبوا ود المعتزلة الذين بدأوا في الظهور كقوة مؤثرة في الاوساط العقلية كما سنرى في الفصل التالي ، والذين وقفوا بقوة في وجه الامويين ، مع انهم لم يقبلوا بتاتا بتعاليم الشيعة المتطرفين الذين اعتقدوا بأن آل علي هم وارثو النور الالهي . وقد اعلن ابو العباس السفاح نفسه سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) خليفة شرعيا للرسول وبايعه في الكوفة جمع خطير من زعماء القبائل .

بمجيء العباسيين استطاع المسلمون الجدد والفرس خاصة أن يصلوا الى السلطة ، وقد جلبوا معهم الى المجتمع الجديد ميولا واذواقا تبدت في كل ناحية من نواحي الحياة العملية . وسرعان ما هجرت دمشق لتحل محلها بغداد اذانا بيده العهد الجديد . وادار الخليفة ظهره للبحر الابيض المتوسط وقطع علاقاته مع الغرب الذي اصبح فيما بعد مستقلا من مصر الى جبال البرانس لا تربطه بالخلافة سوى الاعتراف الاسمي وهذا ليس اكثر من عمل دبلوماسي فحسب . واتجه الخليفة الى الشرق حيث الاقاليم الفارسية التي كان مقدراً ان تخضع طاعته فيما بعد وترسل الى بغداد سادة للخلافة العباسية . واهتم الخليفة كذلك بالخليج الفارسي والبحار الهندية التي كانت تجارة يجلبون اليه منها طرائف الشرق البعيد .

لقد ادعي الخليفة العباسي انه سيعيد الجماعة الاسلامية الى طريق الاسلام الاولى التي انحرف عنها الامويون ، فتظاهر بالتقوى واحترام السنة النبوية واجلالها . واعتبر الخليفة العباسي نفسه كالنبي المفسر المأمم لكلام الله سواء . كان ذلك بشخصه او بوساطة علماء الدين والقضاة الذين تمتعوا بشفقة . وقابل المؤرخون بين تقوى الخليفة العباسي وقديسيته وبين زينج الخلفاء الامويين وفسوقهم وفي هذا ميل الى التحيز ظاهر يجب الا ينطلي علينا . واتخذ الخليفة العباسي في ذات الوقت مظهر اكاسرة الفرس ذوي الابهة والرونق البراق والترف المألوف لشعب العراق وفارس ذوي المجد الفني التليد .

وزخر بلاط الخلفاء بخليط عجيب من الاطباء الاخيار والقضاة والشعراء ومدعي العلم والمنجمين . وشهدت ليالي بغداد الساحرة محافل الخلفاء ومجالسهم ، فبعد صلاة العشاء الورعة تنشد الاغانى وتنداد كؤوس الراح خلال ذلك . ويعطر الجو بانسام عبقة تتصاعد من المبخرات ، ويحتاج الى رنين قطرات الينابيع ، ويهتز الجو طربا للاصوات القوية المفردة المنبعثة عن افواه المغنيات والحان الاعواد . وقد تعترض هذه الحفلات اليومية حوادث غير متوقعة فتكسبها طرافة ، كاستجواب سجين لبق ذي فصاحة مفحمة ، او زيارة ناسك متسول ذي كبرياء وفظاظة ، وقد يحز رأس بينما تدور الاقداح . وتقرب الليلة من نهايتها ، فيثقل الخمار قلوب النشأوى ، وتنهل الدموع ، وقد ينشد شاعر قصيدة ينحى فيها العمر القصير . وفي الختام يبرغ الفجر باضوائه المتهيجة ، فيؤدي صلاة الصبح اولئك الذين فيهم بقية من وعي بخشوع وتقوى : انها حياة ملأى بالاحاسيس ، عنيفة رقيقة معا ، تحفل بالفظاظة ورقة الطبع في آن واحد ، نجد مثيلا لها لكن

بصورة أوضح وأعنف ، وذلك في عصر النهضة الاوربية . وقد ورد وصف هذه الحياة الحسافة في ألف ليلة وليلة ، والاغاني ، ومروج الذهب ، وفي روايات المؤرخين وقصائد الشعراء .

لكن وراء هذا الوجه الرومنطيكي للحياة يعيش شعب بينهم من يفكر ، وفي فصلنا القادم سنتحدث عن أفكارهم وصراهم . لقد شهد القرن التاسع الميلادي [الثالث الهجري] قمة جهود المسلمين لفهم ذات الله والانسان والحياة ، والتوفيق بين العقل والنقل . وكان عصر ازدهار الادب العربي كذلك ، وبداية احياء آخر للفن الاسلامي بصورة فعالة . وفي هذا العصر كذلك نجد كل امكانيات الازدهار العقلي والمادي قد تحققت بوضوح . وفي السنوات الاخيرة من هذا العصر بالذات آذنت الساعة بزوال وتفسخ كل هذا المجد .

ذهبت الامبراطورية الاسلامية اشتاتا متفرقة تحت وطأة الضرورات الجغرافية والتاريخية . ففي القرن (١٠ م = ٤ هـ) كانت الحدود الغربية للامبراطورية المواجهة للامبراطورية البيزنطية مازالت في امان اذا استثنينا بعض الغارات الآتية القصيرة . لكن جميع الاقاليم الفارسية انفصلت ، وعادت تبعث بالامراء الفرس من البويهيين ليقبضوا على زمام الامور ويسيطروا على خليفة ضعيف طام ٩٤٦ م ٣٣٤ هـ . ولما كان هؤلاء من الشيعة ، فانهم ساعدوا على نشر دعاية شيعية معتدلة ، بينما كان القرامطة يفسرون الرعب والفوضى من مكة الى بغداد . وأسس الاسماعيليون في افريقية ، تونس ، المملكة الفاطمية التي حكمت لمدة قرنين مصر وسورية . وبقيت الاندلس مستقلة ومعادية تحت ظل خلفاء من الاسرة الاموية ، لكنها مع ذلك تابعت كغيرها كل

مظاهر الفكر الشرقى .

نلاحظ في القرن الحادى عشر الميلادى [الخامس للهجرة] ، أن الخليفة بدل أسياده ، فالتزك عرفوا سبيلهم الى بغداد منذ نهاية القرن التاسع الميلادى واحتلوها وحكوها في ١٠٥٦م = ٤٤٨ هـ ، وحكم الامراء السلاجقة العراق والجزيرة وجزءاً من سورية ، وقسموا هذه البلاد الى امارات صغيرة متنافسة . وان تبعثر القوى الاسلامية ووضع الخلافة العباسية المزرى ، وقفسخ الخلافة الفاطمية ، كل ذلك أناح للصليبيين من الفرنجة أن يقرموا بمغامرتهم البالغة الجراة ١٠٩٧م = ٤٩١ هـ . لكن هذه المغامرة باءت بالفشل بسبب ما وجد عندهم كذلك ، من تناحر شخصي ، وفوضى في الصفوف ؛ كما أدى وجودهم الى رد فعل في العالم الاسلامي ، فتوحد تحت راية الزنكيين والامراء الايوبيين ، وأولهم نور الدين زنكي ثم صلاح الدين الذي استعاد بيت المقدس (سنة ١١٨٧م = ٥٨٣ هـ) . أعاد السادة الجدد للشرق المذهب السني ، ومنذ ذلك الوقت اقتصرت الشيعة عدا فارس على أقلية منفصلة هنا وهناك . إلا انه تكون منهم طائفة كبيرة من الفقهاء حذقوا عقيدتهم في المدارس التي أسسها الشيعة .

أما الاحياء او الانتعاش السني فقد أكد على المظاهر المحدودة الضيقة للإسلام الاول . وحيث يكون زد الفعل سريعاً ، نجد ان النزعات المضادة لا يعوقها عائق عن الاستثارة . وقد ظهر رد الفعل هذا في التقدم السريع الذى أحرزته الصوفية حين غمرت الشرق في القرن (١١٢ - ١٢ هـ) بالتكايا ومراكز التبشير الصوفي . وقد نظر العالم الاسلامى الى الصوفية نظرة شك وريبة ، ومع ما كانت لهم من عبادات فانها لم تكن تتوافق مع تحسس الصوفي بفرديته المفزعة

البالغة ، إلا انه بفضل تعاليم الغزالي « ت ١١١١ م = ٥٠٥ هـ » انضم أهل التصوف تحت لواء السنية . لقد بثت الصوفية في الاسلام نزعات وجدانية أغوت صفوة الناس ، وبسطت نفوذها على كتل الشعب بنشرها تقديس الاولياء ، الاموات منهم والاحياء ، وذلك عن طريق تبجيل الشيوخ وكل ما يسمى في المغرب باسم المرابطين واهل الزوايا : marabouts et zaouias . وأصبحت الصوفية أحياء صورة الاسلام لمدة قرون . وفي الغرب ، في مراكش في القرنين (١١ و ١٢ م = ٥ و ٦ هـ) قاد المرابطون والموحدون اصلاً دينياً هدفه احياء القوة الدينية للكفاح ضد استعادة الاسبان للاندلس .

في القرن الثالث عشر (١٢٥٨ م = ٦٥٦ هـ) طوح المغول بالخلافة العباسية ، وفي بحر ان الاضطراب الذي عم البلاد بتأثير فتوحاتهم ، ركزت الحياة الفكرية الاسلامية حتى القرن الماضي . الا انه في هذه الفترة المظلمة لم يعز على الاسلام أن يجد بين آن وآخر رجلاً صادقاً يحدوا على القيم الروحية فيه . ففي القرن (١٤ م = ٨ هـ) جاهد ابن تيمية بحماس كبا يعيد السنية الى الحنبلية الخالصة كما كانت في القرن (٩ م = ٣ هـ) . وعلى الرغم من المقاومة التي لقيتها جهوده فان هذه كانت دليلاً على حيوية الفكر الديني .

أعاد الفتح العثماني الى الشرق النظام والوحدة ، وعامل السلاطين مختلف المفكرين بتسامح أو بعدم اكترات أحياناً أو بالاشق والاضطهاد تارة أخرى . هذه المعاملة على أية حال لم تعترض سبيل انتعاش الحياة الاخلاقية الجديدة واستيقظ العالم الاسلامي من سباته فجأة ، ففتح من ضعفه المادي

وعقمه العقلي ، وأنقلته الصلوات الرتيبة التي أصبحت آليسة لفترة طويلة حيث حق له أن يتقاعس طوال الفترة المظلمة من القيام بأي جهد من أجل البعث الديني . وهذه اليقظة حدث بارز ، بالغ الأهمية ولا يقل عنها أهمية قولنا بوجود افساح المجال لها ، وسط اضطرابات العالم الراهنة ، لتأخذ مكانها من جديد بين القيم الأخلاقية للمستقبل ، وهذا ما سنعالجه بالتفصيل في الفصلين الثالث عشر والرابع عشر .

المصادر

Halphen, Les Barbares; Diehl et G.
Marcais, Le Monde oriental;
Gaudefroy-Demonbynes ,Le monde musulman jusqu'
aux croisades; H. Masse, L' Islam; Tor Andrae,
Muhammad, trad. française; Buhl, Muhammad.

الفصل الثالث

الحركة الفكرية

الجبر والاختيار . الاعتراف . مذهب الخوارج . الشيعة : الإمامية
الزيدية ، الإسماعيلية ، الفرامية ، المروزي ، النصيرية . التصوف .
البرهانية . الوهابية .

إن الاحداث الدينية ذات علاقة وثيقة الصلة بالاحداث السياسية
وربما نلحس هذه الحقيقة في الاسلام بصورة أوضح مما نلحسها في غيره
من الأديان . يظهر لنا الوصف التاريخي المجمل السريع الذي قدمناه
في الفصل السابق ذلك الامتزاج الدائم بين ما هو ديني وما هو روحي ،
وهذه خاصية أساسية للحفظ في النظم الاسلامية . لم ينقطع المسلمون خلال
قرون كثيرة عن بحث أخطر القضايا التي تدخل ضمن دائرة المعرفة
الانسانية ، هذا مع العلم ان حياتهم اليومية قد نفذ فيها الدين وتشعب
خللها جيداً . أما عملنا في هذا الفصل فستوجزه في صفحات قليلة
بأسعراض هذه القضايا .

لم يكن محمد فيلسوف دين « لاهوتياً » ، وإنما كان نبياً ، وهذا أمر
لا يحتاج الى فضل بيان . وأحاطت به زمرة من الرجال كانت الصفوة
المختارة في الجماعة الاسلامية الاولى ، وقد روضت هذه الزمرة نفسها

على طاعة الناموس الذي جاءهم باسم الله والسير على تعاليم نبيه والاهتداء بهديه . وكان لهذه الجماعة إيمان قوي بريء اكتفوا معه بصدق يسير من القواعد والقرائن .

مع هذا ، استطاع المسلمون في بضعة عشرات من السنين أن يشاركوا في الميثاق شعوبا امتلأت بالمشاحنات الدينية ، واستطاع أبنائهم بالذات أن يساهموا باخلاص في المشاكل الأساسية التي انبثقت عن التأمل في مصير الإنسان والاحاطة بالسكون . وأدخلوا في مجالات بحثهم آراء بالغة التنوع ومقدرة غاية في الثراء إلى حد أن الباحث يتردد بعد اجمال الخطوط العامة للحركة الفكرية الإسلامية في استناد أي دور معين لأي مفكر إسلامي فيها .

يبدو أن الحجاج الذي أقام الكنيسة المسيحية وأقامها وجد سبيله إلى الفكر الإسلامي ، حتى قبل أن يدخل أهل الذمة من المسيحيين إلى الدين الجديد ويصبحوا شطراً من الجماعة الإسلامية . وأنه لم يؤثر عن الرسول فقط أن القرآن جاء مبشراً ومكملاً لما ورد في التوراة والإنجيل ، وإنما الأمر هو حقيقة ناصعة لا تقبل الشك . ولقد استمر تأثير اليهودية والمسيحية على تراث الإسلام بعد الرسول أيضاً . وعنق المناقشات التي أثارها التراث الإسلامي في مجالي الفكر الديني والميتافيزيقي لدليل قاطع على حيويته ، في حين أن ضعف التفكير الديني الحديث دليل مريع يشير إلى الآلية في ممارسة العبادات وعدم الاكتراث لها .

شغل الفكر الإسلامي نفسه باسمي وأرفع المسائل الخاصة بالمصير الإنساني ، تلك المسائل التي أشار القرآن إلى كثير منها ، على الرغم من أن القرآن هو كتاب وحي وليس بكتاب جامعي في فلسفة الدين .

ومشكلة الجبر والاختيار التي اثبت مبكراً في العهد الاموي غالباً ما وردت في القرآن من مختلف وجوها . كما أكد المؤرخون على وجود المتشابهات في القرآن ، وهي آيات تحتمل مختلف التفسيرات أصبحت غذاء لتأييد وجهات نظر الاحزاب المختلفة . ولا يسعنا في هذا المجال الا ان نظهر اعجابنا بثراء تفكير محمد ، ذلك التفكير الذي مكنته من استخراج الاسس الجوهرية لاية مشكلة من ذات نفسه ومن غيره ومن وضع الحلول المتعددة لها . ومع اننا لا نستطيع الجزم الا بعدد محوثر ضافية ، الا انه مع ذلك يمكن القول ان جميع القضايا المتناحرة التي شغل بها القديس أغسطين (١) في فلسفته الدينية قد وردت في صورة أولية في القرآن ، ولا يعوزها غير التمهيص المنطقي لفكر لاهوتي . يبدو من دراسة القرآن ان الفكرة المسيطرة عليه هي طبيعة الاله الواحد القدير منذ الازل والى الابد ، ذاك الاله الذي أصبح بعد عصر محمد يدعي بالاله المطلق الذي لا يحد بمحدود الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل . وانه خارج نطاق الزمن يقدر الله ، أو انه قدر فيما مضى مصير الانسان . وهنا قد يعتبر البعض اللغة هي المسؤولة عن عدم التحديد الظاهر في كون فعل الله ماضياً ناجزاً ، أو انه فعل حاضر غير منته بعد ، وبالتالي غير مستقل عن الزمن ، مما يجعل الله مرتبطاً بالزمن ، في حين انه من ناحية أخرى مطلق وفوق الزمن . ويعين الله مصير الانسان بإرشاده الى طريق الهدى ، فيتبعه البعض مهتدين بنعمة الله التي انعمها عليهم . في حين ان الله غشى عيون البعض الآخر ووضع في آذانهم وقرأ فعادوا لا يفقهون شيئاً ، هذا عينه أدى الى

(١) أعظم فيلسوف نافع عن المسيحية ومن أشهر ابناء الكنيسة اللاتينية طاس بين

جبرية لا مفر منها صار معها كل عمل للانسان باطلا وكل جهد مضيعا
 الا ان القرآن مع هذا ينص على عدالة الله : وقد كان تطبيق هذه
 العدالة التي هي ذلك الثواب الذي يثبته المؤمنون يوم الحساب قضية
 من القضايا الرئيسية التي أثبتت منذ الايام الاولى للرسالة باكبر حماس .
 لا يضر الله الانسان في شيء ، وسيجزيه الجزاء الاوفى على ما قدمت
 يده . هنا يبدو تناقض صارخ مع فكرة الجبرية المقدرة من قبل مما
 دعا الى محاولة التوصل الى ما يأتي : لما ذا قدر للبعض الخير وللآخرين
 الشر وكيف يثاب البعض على ذلك الخير ويعاقب آخرون على هذا الشر ،
 مادام الانسان غير مسؤول عن أفعاله ؟ أما العقيدة المسيحية فقد
 احتسنت بظل جهالة الانسان وغيبية الاحكام الالهية ؛ ولا ندرى
 لما ذا لم يلجأ الاسلام الى حجة كهذه .

كما قام غموض آخر حين حاول المسلمون ان يوضحوا أصل الخير
 والشر . أما القرآن فلم يقدم شيئاً محدداً في هذا الصدد . ولم يكن
 معروفاً ما اذا كان الله قد خلق الشر أو لم يكن له به علم أو انه تعالى
 قد احتمله وسكت عنه ، كما لم يعرف ما اذا كان الانسان قد ابتلى به
 منذ مولده او ان الحياة هي التي تأتي له بالشر . يعتبر الاسلام الخير
 طاعة الله أما الشر فهو عصيان لاوامره .

وفي الواقع لكي نقدر حلول القرآن حق قدرها ، يجب ان
 نتذكر ان الوحي في بحث المسائل العليا المتعلقة بمصير الانسان أو شرح
 ماهية الكون أو تناول أعم شؤون الحياة البشرية اليومية ، سائر
 ظروف الحياة لدى الجماعة الاسلامية ، عاملا على تذليل العراقيل بمجرد
 ظهورها ، وحل أية عقبة تعترض سبيل الرسول . والجبر الذي منع
 قريشاً من الاصغاء الى دعوة محمد وأسى الرسول على اخفاقه معهم ،

فترك الاشرار ليواجهوا مصيرهم غير مأسوف عليهم ، هذا رغم ان النبي
شعر بهي . من الرثاء لهم حينما كان يفكر باللعنة الالهية التي عليهم : فاذا
كانت لهم اية ارادة فان أفعالهم ستدلل على انهم غير مجبرين على فعل
الشر . وهناك آيات تنبئنا عن الخير غير المحدود لا له رحيم وعن الثواب
الذي وعد به الاخيار جزاء أعمالهم الصالحات ، هذه الايات تلتطف من
الوعيد الذي تذكره آيات أخرى ، وتشجع على اتباع تعاليم النبي . واننا
لا نعتقد بان فكر محمد قد اخذ شكله النهائي دفعة واحدة ، رغم
ما يقول به مشاهير المؤرخين المحدثين بانهم اكتشفوا ذلك عند محمد ،
ورغم ان دراستهم لتعاليم القديس أغسطين قد اظهرت لهم انها تكونت
دفعة واحدة . ان رأينا هو ان محمداً قد تمسك بالمظاهر المختلفة لقضيته
بتأثير الظروف المحيطة به ، تلك الظروف التي قد تخفى علينا حقيقتها
أحياناً .

ويبدو ان محمداً كونه فكرة عن تكوين الانسان متأثراً بالتراث
اليهودي المسيحي . هانحن أولاء نقرر ذلك فيما يلي : كان آدم آخر
صورة لخلق الله ، استقبل من حضرته النور في نفس الوقت الذي
وهبت له الحياة ، وقد علم اسماء الاشياء كلها واكتسب بذلك سطوة
عليها . واثمر الملائكة بامر ربهم حينما أطاعوا آدم فسجدوا له .
ولم يبق له شيء يفعله بعد ذلك غير التمتع بنعيم الجنة مع صاحبه حواء ،
لكن ملاكاً ثائراً هو إبليس رفض تكبراً السجود لآدم ، فاخرجه
الله من ملكوته ، مما دعا إبليس الى ان ينتقم لنفسه وذلك بتعليم آدم
المعرفة اي الشر . ومع ان الله قد غفر لآدم الا انه أرسله الى هذا
العالم وفي ذات الوقت والى عليه نعمة نوره والامل بالعود ثانية الى
الجنة . واعطى من ناحية أخرى الشيطان القوة على التفرير بالانسان

حتى يوم القيامة . والنوع البشري الذي بدا بتكاثر ويعمر الارض فيه قهس من نور الله ، الا ان البشر في خطر دائم من فقدان هذا القهس لو لبوا انحاءات الشيطان اليهم . والله يعين البشر بارسال انبيائه الذين ينقلون اليهم وحيه وهو ذلك النور الالهي ويهدونهم الصراط المستقيم . ولما كان الله لا يرسل انبياءه الى الناس جميعا ، فانه قد يبدو ان الله صفوة مختارة تمثلت في تلك الشعوب المختارة التي ارسل اليها سلسلة انبيائه من نوح الى عيسى (كذا) ، أما بقية البشر فهي مضحية مجبورة وذلك لعزوف مقدر من الله عليها . أما متى قدر الله هذا المصير فان الحديث النبوي يقدم وجهات نظر مختلفة ، فهناك حديث يحدد هذا الوقت بخمسين ألف سنة قبل خلق العالم ، وآخر متواتر يظهر الله كمشرف على نمو الجنين معطيا اياه صورته بالتدريج ، مقررآ مصيره في نهاية هذا التطور . الا انه مع ذلك فان الفكرة الخاصة بصيرورة الانسان التي اتينا على ذكرها قبل قليل لا تطيع الانسان على الشر منذ نكوته ، انما هذه الفكرة تسمح بالاعتقاد بضعف الانسان ذلك الضعيف المؤيد برحمة من الله . لذا يستطيع الانسان أن يقاوم بصجاح سطوة الشيطان ، وبالتالي صار للناس جميعا امكانية الفوز والخلاص . لكن القرآن يقول إن الله لم يشأ ان يغفر للناس جميعا وان له أقسم بعزته وجلاله ليلان جهنم بالكافرين ، فمن الناس من هدى الله ومنهم من حقت عليهم ضلالتهم ، هكذا في النهاية نجد أنفسنا وجها لوجه أمام أسرار مغيبة عنا .

ان اختلاف الاحاديث التي وصلت اليها والتي تؤيد ما جاء في القرآن من ناسخ وملسوخ تكون أساسا لعدم الاتفاق الذي ظهر عند الناس منذ بداية القرن (٨ م = ٥٢ هـ) أيام الامويين ، وغالبية هذه

الاحاديث تدعم فكرة الجبرية ، وهي الفكرة التي سادت المذهب السني .
دعي في البداية أصحابها باسم الجبريين (من الجبروت أي قوة الله
القاهرة) لكن أقلية لا بأس بها اعتنقت فكرة الاختيار أو حرية
الارادة في أفعال الانسان ، وباستفاق لفظي ما زال غير مشروح
شرحاً وافياً بعد ، دعي هؤلاء بالقدريّة (من القدر) وجاء رأيهم
مطابقاً للعقيدة المعتزلة الذين سنتحدث عنهم في الفصل التالي ، كما
سنتحدث بكلمة عن المرجئة الذين أرجأوا حكم الله الى يوم القيامة
ويرى الاوربيون عامة ان الاعتقاد بالجبرية هو في نهاية الامر
الفضيلة الاساسية للمسلم . ولن نحاول هنا ان نحدد الى أي مدى
ظهرت هذه الفكرة غريزة الحياة بين المسلمين وعملت على هدم قوام
تدريجياً .

في الخلاف الذي قام حول الجبرية ، ساند الخلفاء الامويون فكرة
أنكار حرية الارادة في افعال الانسان . وان سلطتهم قد تأتت نتيجة
عدم اشتراكهم مع الجماعة الاسلامية في فتنة عثمان ، التي أدت في
نفس الوقت الى ظهور ثلاثة أحزاب كبيرة متعارضة في الاسلام هي
الخوارج والشيعة والمعتزلة . أما اتباع الحزب الاول فهم الذين
خرجوا على جيش علي ورفضوا طاعة العلويين ونصبوا عليهم اماماً
أميناً على الدين الحنيف ؛ بينما الحزب الاخر هم شيعة علي كما يسمون
بصورة خاصة ؛ وأخيراً نجد صحابة النبي البارزين الذين اعتزلوا ،
وهذه حقيقة اذا أضيفت الى حقائق أخرى استطعنا تفسير أصل
كلمة المعتزلة الذين اعتزلوا الحزبين الآخرين .

وقف المعتزلة ضد الامويين على طول الخط واعترفوا باحقية علي
في خلافة محمد بعد وفاته ؛ لكنهم مع هذا اعترفوا بشرعية الخلفاء

الراشدين الثلاث الأول واجلوم لما قاموا به من الاعمال ، وهذا ما
 قدّم به معتدلة الشيعة وبعض الخوارج . ان هذا الاتجاه الوسط
 والا أموي معاً هو الذي أدى الى توحيد قوى المفكرين بحسب رأي
 نيرج Nyberg في النصف الاول من القرن الثاني الهجري لاسقاط
 الدولة الاموية والعمل لا على احلال ذرية على محلهم ، تلك الذرية
 التي اعتقد المتطرفون من المفكرين بان النور الالهي قد حل في آل
 الرسول ، بل لاحلال العباسيين الذين يتميزون بالاضافة الى حذقهم
 السياسي بالحكمة الصائبة والحكم الصحيح . ومما يكتن من أمر فان
 مذهب المعتزلة قد تبنته الخلافة العباسية منذ البداية حتى نجى المتوكل
 الى الخلافة سنة ٨٤٧ م = ٢٣٣ هـ وأصبح الاعتراف بمذهب الدولة الرسمي
 الى الحد الذي ينطبق فيه هذا القول على الاسلام . ساد الاعتراف
 وتغلب بصفته مذهباً رسمياً لا بصفته مذهباً عقلياً حراً كما اعتقد
 المؤرخون الاوربيون من قبل . لقد دافع الاعتراف بحرارة عن أركان
 الاسلام وهي القرآن والسنة ورفض الاعتقاد العامي التقليدي الخاص
 باهل الحديث ، وجعل العقل سنداً للعقيدة ، وباستعارته الاساليب
 المنطقية لفلسفة اليونان أوجد المعتزلة اسكلائية (١) اسلامية .
 والمعتزلة هم أول منطقة الاسلام والمسمون باهل الكلام أو المتكلمين .
 ان المعتزلة تعتقد بوحدانية الله المطلقة وتعارض كل نوع من
 الثنائية المجوسية وغير المجوسية ، وترفض تناسخ الارواح ، وتجرد

(1) Scholastique musulmane

الاسكلائية نسبة الى مدارس الفلسفة الدينية التي نشأت في اوربا في العصور الوسطى
 في القرون المتأخرة . وهنا يريد المؤلف ان يعتبر المعتزلة مدرسة فلسفية نشأت من
 جميع الاسلام .

الله عن كل صفة منفصلة عن ذاته . ويسود تعاليمها الاخلاقية فكرة عدالة الله ، الذي لم يوجد الشر لئلا يمحى وجوده في أعمال خلقه الاعتيادية . وعمل المعروف لديهم هو اطاعة أوامر القرآن والانسان حر في أفعاله وسيناب على ما قدمت يداه من خير . أما ذنوبه العظمى فهي معصية ما نهى الله عنه ، ومن يقترب هذه الذنوب فاسق يوضع في منزلة بين المنزلتين أي مقام يقوم بين الكافر والمؤمن . وعلى عكس ما ذكرنا أعلاه نجد الاسم الذي أضيف على هذه الفرقة قد أرجعه البعض الى الاشتقاق من لفظ « اعتزل » عن الناس في حين ان آخرين يرجعون اشتقاق لفظ الاعتزال الى ذلك الزهد الذي اتصف به المعتزلة الأوائل اذ الزاهد هو « المعتزل » عن العالم . وجد المعتزلة أنفسهم ضد الشيعة والغلاة منهم خاصة الذين أسبغوا نوعاً من الألوهية على أئمتهم العلويين وكذلك ضد الفقهاء المزمعين من السنة الذين كانوا في ذلك الوقت علماء للشرعية وبالتالي يعدم تنظيم الحياة الدينية للإسلام كما أظهروا معارضة الامويين الذين اعتنقوا رأي المرجئة وهو الجبرية المطلقة .

ان الموقف الذي وقفه المعتزلة ازاء صفات الله ، يتحدد بعدم أخذهم بخلودها ولا سيما فيما يتعلق بكلام الله . وهذا المبدأ الذي يكون عنصراً ثانوياً فحسب في مناقشات المعتزلة ، كان له أثر ملموس ومعين جذب أنظار الناس بصورة واضحة حتى أصبح هذا القول شعار المعتزلة . والمذهب الذي قبل حتى هذا الوقت كان يقول بأن كلام الله الذي فاض من أنواره لا يمكن أن يكون إلا أزلياً كما ان الله أزلي وانه لا يمكن أن يكون مخلوقاً في أية حال من الاحوال ؛ ووضعت عدة حلول للتمييز بين القرآن نفسه من حيث انه كلام الله وبين تجسده المادي

في نسخ مكتوبة أو بشكل متلو على اللسان في حين أكد المعتزلة أن القرآن خلق في نفس الوقت الذي خلقت فيه الكائنات الأخرى على وجه الأرض . وكان هذا هو المبدأ الرسمي الذي حاول الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م - ١٩٨ - ٢١٨ هـ) أن يفرضه بالقوة .

لقد أسس المهدي منظمة لتحقيق مع ذوي الميول المنحرفة السائدة بين طوائف الشعب الإيراني خاصة ذلك الشعب الذي اعتنق الإسلام حديثاً ، فسجنت هذه المنظمة وأعدمت أرواح الكثيرين من المتهمين بالزندقة ، تلك الكلمة الإيرانية التي أطلقت في البداية على المجوس (١) . أن التأثير الباقي للجوسية على التفكير الإسلامي هو حقيقة يجب أن نحدد مداها فيما بعد . وقد أخذ الخليفة يعرض للمحنة (امتحان) أفكار أولئك الذين كانت لهم أية مكانة بسبب مراكمز المهنية أو بسبب نشاطهم العقلي . ووجهت المحنة زمن المأمون ضد معارضي المعتزلة وكل ذوي المكانة كالقضاة مثلاً ، بحيث يلزمهم أن يؤكدوا إيمانهم الراسخ بخلق القرآن . وقد طورد الإمام ابن جنبل من جانب العامة وسجن لرفضه الاعتراف بمبدأ خلق القرآن . إلا أنه بعد حين أخذ الخليفة المتوكل يؤيد مذهب السنة تأييداً مطلقاً ويضطهد كل من عداهم من غير السنة من المراطقة والكفار والمنحرفين ، ونفس القضاة أو ذريتهم أضطروا في زمن المتوكل أن يعلنوا اعتقادهم التام بعدم خلق القرآن . هذه حالة من حالات تقلب الفكر طالما ظهرت بين الجماعات التي يغلب فيها الهوى على العقل ، وقد كان سقوط المعتزلة تاماً وفظيعاً بحيث يمكن الاستنتاج أن محاولة التوفيق بعد ذلك بين العقل والنقل لم تنتشر إلا في نطاق ضيق . ولم يكن تأثيرها شديداً

(١) زنديق من صديق : والصديقون هم أئمة المانوية .

حتى ضمن هذا النطاق الضيق : من ذلك ان أحد المعتزلة البارزين
 وهو ابن الراوندي تحول فجأة الى الشيعة المتطرفة . الا ان فسكر
 المعتزلة لم يمت على اية حال ومع ان التمييز المذهبي لمؤلفاتهم يجعلنا في
 شبه شك من الصورة النهائية للاعتزال ، فان الفكر المعتزلي قد فرض
 نفسه وعاش بصورة مطردة مؤثراً في بعض العقول التي لم تكن
 راضية تماماً عن أهل السنة المتنفذين في الحكم . من هذه العقول التي
 أثر فيها الاعتزال بقوة الاشعري ، وهو صاحب مبدأ التوفيق الذي
 قدر له منذ زمنه السيطرة على فلسفة الدين الرسمية في الاسلام . ونشطت
 مدارس المعتزلة زمن البويهيين (ق ١٠ م - ٤ هـ) في العراق وفارس
 وخراسان . وأثرت هذه العقيدة تأثيراً طيباً في الشيعة المعتدلة .
 تكون الحزبان الاخران الكبيران في الاسلام ، الخوارج والشيعة
 بعد الانشقاق الذي حصل أثر معركة صفين اسبب سياسي : كان
 الخوارج من المؤمنين الذين انفصلوا عن جيش علي وخرجوا عليه
 لقبوله التحكيم ذلك التحكيم الذي اعتدى على اختصاص الله في حل
 الخصام واعطاه لمحكمين من البشر . وبعد ان انتخبوا زعيماً لهم واعتبروه
 اماماً لجماعتهم تجمعوا في منطقة البصرة وكانت لهم بعدئذ امتدادات
 في شبه الجزيرة العربية . عارض الخوارج كلاماً من معاوية وعلي الا
 انهم ساعدوا في البداية انتصار الامويين على العلويين بسبب تلك الحملات
 والاضطرابات التي قاموا بها ، كما كانوا بعد ذلك سبباً لانتصار
 العباسيين على الامويين . وفي أواخر القرن الثاني للهجرة اختفوا
 من المسرح العام للتاريخ ، وان بقيت لهم مواطن بعيدة ضمت العباديين
 والنفاريين والتي ما زالت تعيش في عمان وزنبار والمغرب (في مزاب
 وجبل نفوسة) وتعاليمهم الخاصة بموضوع توجيه الجماعة الاسلامية

ما زالت السبب الرئيسي لعزلتهم . وقد قوى الحوارج بانفهام جماعات كبيرة من المؤمنين الجدد (الموالي) اليهم ولذا أكدوا على عدم ضرورة اقامة امام من قريش ، ولا حق من العرب ، بل يمكن أن يكون « عبداً حبشياً » . وقد أجلوا أبا بكر وعمر ونبذوا عثمان وعلياً .

دما بعض المؤرخين الحوارج باسم « البيوريتان (١) المسلمين » وهم في الواقع فرقة راعت بدقة نصوص القرآن ودعت الى التمسك بالوحدة الاجتماعية والاخاء الاسلامي الذين تميزت بها الجماعة الاسلامية الاولى . وبسبب تفسيراتهم لبعض الحقائق الاخلاقية نراهم ينفصلون عن السنة . فالرجل الذي يقترف الكبيرة يعتبر لديهم مرتدأ وبالتالي كافراً ، لذلك أباحوا دمه وممتلكاته ونبذوه من الجماعة الاسلامية . ويخضع المجتمع العبادي من الحوارج لقوانين اخلاقية صارمة يشرف على تنفيذها هيئة من الفقهاء . أما المزاويون من الحوارج الجزائريين فيتصفون بصورة خاصة بالامانة والشرف ، ذلك الى جانب كفاءتهم ومرونتهم في أداء الاعمال . ويدعون بازدراء باصحاب الفريضة الخامسة ، وهذه طريقة غم مباشرة لامتدادحهم بانهم لا يتعدون قيد شعرة عن التراث السني المأثور .

أما الشيعة فلها مدلول سياسي وديني آخر غير مامربنا ، ولهادور كبير في التاريخ . وهي حزب تلك الفئة التي ظلت بعد صفين والتحكيم

Puritains de l' islam

(١) البيوريتان أو أصحاب المذهب الطهري وم جماعة من البروتستانت الانكليز الذين اعتبروا اصلاح الكنيسة زمن البصابت ١٥٥٨-١٦٠٢ غير كاف، ونبذوا البدع التي ظهرت في المسيحية .

موالية لعلي ، حين تخلى عنه أهل الحجاز تحت ضغط بعض صحابة النبي كالزبير وابنه ، وحين تمسكت سورية ومصر بولاء معاوية أشد التمسك . وينتشر الشيعة انتشاراً واسعاً في العراق ومناطق إيران ، ويدعون شرعية الخلافة في ذرية علي حتى ولو كانت هذه الذرية لا بناء غير فاطمة . وحين قهر الأمويون الشيعة بصورة بالغة ، وخذعهم العباسيون ، غدوا فرقة ساخطة على مر الأيام . جمع أوائل العلويين حولهم في العراق المؤمنين الجدد في الإسلام وهم الموالي الذين وضعهم خلفاء الشام في مراكز اجتماعي ثانوي ، والذين جمعوا بين خصائص « النبط » والفرس معا . وفي القرن الثالث الهجري قامت حركة الزنج مصطبغة بصيغة علوية . وكان القرامطة والاسماعيلية من الشيعة كما كانت بعض الفرق الصغيرة ذات أصل غامض كالنصيرية . من هنا نجد أن العلوية والشيعة عبارة عن تعبيرين يكتمان وراء الولاء المخلص كثيراً أو قليلاً لامامة آل النبي . وفي دائرة العلوية والشيعة نجد اتجاهات اجتماعية ودينية مختلفة عن بعضها كثيراً .

تغير مركز الحزب المعارض على أية حال في القرن (١٠ م = ١٤ هـ) بصورة فجائية إلى حزب مؤيد للخلافة . وكان الخليفة في الواقع تحت سيطرة الأمراء الجوميين الشيعة منذ (٩٤٦ - ١٠٥٥ م = ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) ، وهؤلاء الأمراء خففوا من غلواء الثورة التي تشربها مذهبهم والذي كان يدعو إلى إبدال الخليفة العباسي بممثل عن الإمام الشيعي المختفى . وبعد اختفاء القرامطة انتشرت شيعة معتدلة انتشاراً واسعاً بصورة شبه رسمية في كل مدن الشرق الأدنى مصحوبة ببعض أعمال الاضطراب . وثناء ذلك نجد المتطرفين من الشيعة أي الاسماعيلية قد أسسوا في افريقية « تونس » (سنة ٩١٠ م = ٢٩٨ هـ) خلافة

مصرية انتقلت الى مصر (سنة ٩٦٩ م = ٨٣٥٩) ثم فتحت سورية
 وادعت ان لها النفوذ على جميع المواطن الشيعية . واتخذ هؤلاء مظهر
 العداء للخلافة السنية في بغداد ، لكن في سنة ١٠٥٥ م سقطت بيد
 الامراء السلاجقة الذين ادعوا انفسهم حماة غيورين على المذهب السني
 وقد حاول الصليبيون ان يستفيدوا من الاسماعيلية في اواخر ايامهم
 لكنهم لم يحصلوا على شيء منهم كما أملوا ذلك ، وفي (سنة ١١٦٩ م)
 انتهى صلاح الدين حكم الفاطميين في القاهرة . واستمرت الجماعات
 الشيعية على أية حال في الوجود في كل مكان في الشرق تقريبا ، ففي
 فارس أصبحت الشيعية مذهب الدولة الرسمي منذ مجيء الامرة الصفوية
 الى الحكم سنة ١٥٠٢ م = ٨٩٠٨ .

كانت العقيدة الاساسية لدى الشيعة سياسية الطابع ، فقالوا بعدم
 شرعية الثلاثة الاوائل من الخلفاء الراشدين وبحق على الخليفة الرابع
 باستخلاف محمد بعد وفاته مباشرة ، وبان الخلفاء الامويين والعباسيين
 كانوا غاصبين بجماعتهم . ان حقوق علي وذريته قد نص عليها القرآن
 في رأيهم ، لكن هذه الحقوق قد زيفت او فُمرت على غير وجهها
 الصحيح . وعلى هذا الاساس فهناك قرآن شيعي يختلف عن القرآن
 المتداول (١) ويعتقد الشيعة ان النور الالهي الذي حل في آدم
 والانبياء من بعده واحداً بعد آخر حل كذلك في آباء محمد وعلي
 وانتقل اليهما الى ذريتهما من بعد ، وبالتالي فقد تجلى هذا النور نفسه

(١) يتفق عامة المسلمين والباحثين في القرآن على انه هو القرآن الاصلي ،
 والاختلاف الذي يشير اليه المؤلف لعله ان يكون حول تلك الايات القليلة المتعلقة
 فقط بحق علي في الخلافة ، وهي آيات يعتقد بعض الشيعة المتطرفة بأنها غير موجودة
 في قرآننا الحالي .

في أبناء علي من غير فاطمة ايضا ، وم جميعا من « أهل البيت » وهذا تعبير فامض ادى الى ظهور جماعات عدة لكل امامها الخاص . ولما مات الامام الثاني عشر دون خلف ، فقد اعتقد الشيعة بفكرة رجعة الامام وهي الفكرة التي لها أصول دون ريب في العقائد اليهودية والمسيحية (كذا) . وبعد نهاية الغيبة الصغرى في (٩٣٩ م ٣٢٨ هـ) التي قام خلالها أربعة وكلاء عن الامام الغائب تبدأ الغيبة الكبرى التي تتوقف فيها صلوات الجمعة ما دام الامام مختفيا ، وسيظهر في الفرصة المناسبة . لقد وجدت الطائفة الشيعية وهي ترتقب رجعة الامام نفسها ضائعة في وسط سني وخاضعة لحكم غير شرعي وعاملة على كنان عقائدها الحقيقية خلف التطبيقات الدينية الظاهرية العامة . وهكذا اكسبت الشيعة مظهر جمعية سرية ازدادت نمواً بتأثير الفرق المتطرفة كالقرامطة والاسماعيلية .

نجد أنفسنا ثانية نقابل بين الشيعة والسنية على أنهما متضادتان لكن يجب الا يعني هذا انه ليس للشيعة سنة (بمعنى التراث النبوي) ، وذلك لان لهم مجموعات الخاصة من الحديث ، تكونت خلال القرن العاشر (الرابع الهجري) في وقت سيادة الامراء البويهيين على بغداد كما أقام الصفويون شيخا الاسلام كحارس للشيعة .

يكون الامام الشيعي معصوما اذا حاز على الصفات التي تقررها له العقيدة الشيعية ؛ وتختلف فرق الشيعة عن بعضها في صور القوى العلوية التي يصفونها على الامام . والزيدية بوصفها أكثر الفرق الشيعية اعتدالا ، والتي تعترف عن طريق غير مباشر بشرعية الخليفة أبي بكر وعمر تعتقد ان امامها يرشده الله بنفسه . ويعتقد الغلاة بالحلول ، وان العنصر البشري في الامام « الناسوت » يحتضنه العنصر الالهي

« اللاهوت » . أما الحال عند الامامية فان الامام يبقى بشراً ، ولكن حلولا جزئيا يضع فيه جانبا الهيا .

والامامية بوصفها الفرقة الرئيسية ، تعتقد بانني عشر اماماً آخرم محمد بن الحسن وتدعى هذه الفرقة بالاثني عشرية . أما الزيدية من الامامية فتجعل زيداً بن علي بن زين العابدين محل الامام الخامس عند الاثني عشرية وتعتبره الامام المخفي . والى هـ - هذه الفرقة ترجع الاسرة المالكية في فاس (٧٩١ - ١٧٥ = ١٧٥ - ٣١٤ هـ) وائمة اليمن . وما زال الزيديون موجودين في جنوب بلاد العرب .

اما الاسماعيليون فاشتقوا اسمهم من امامهم السابع اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو آخر خليفة شرعي لديهم . ولم يقتصر اثر الاسماعيلية على دورهم الهام في تاريخ شمال افريقية الذي لعبه عبيد الله المهدي والدولة الفاطمية التي قدر لها دون توقع ان تحكم في تونس ثم في مصر ، لكن تاريخ الشرق والحروب الصليبية زاحر بالجليل المدهش من أعمالهم كذلك .

وبلغ دور الشيعة الاقصى كجمعية سرية في ظل الاسماعيلية ، وقد تميزت هذه السرية بالطاعة المطلقة للرئيس ، والمؤمن بالاسماعيلية ينشأ على تأويل باطني مغالبه للقرآن لان ذلك سوف يؤهله للاستقلال التام في دينه وخلقه .

ولا تختلف الشيعة عن السنة الا في بعض أمور تفصيلية تختلف الاجابة عليها باختلاف الفرق . وفيما يتصل بحرية الارادة يقترب الشيعة بصورة عامة من المعتزلة ، وهم مثلهم آمنوا بخلق القرآن .

وقد اسلندت جماعات اخوان الصفا والقرامطة الى فلسفة غنوصية (١) بينما تعالت عامة الشيعة عن الصوفية ، وان شابهتها في بعض المظاهر الخارجية الممينة وتعدد اتجاهاتها . ان الشيعة تعتقد بامام الهمة الله من نوره وانابه عنه على وجه الارض ، بينما تدعو الصوفية الفرد الى أن يجاهد وحده كما يجد الله . وفي بعض الاوقات وقف الشيعة موقفاً المعارضة العنيفة ضد أهل التصوف كما حصل للحلاج . وتميز الشيعة ببعض خصائص تفصيلية في الاذان وفي تراويح رمضان وغير ذلك . وللفقه الشيعي أجوبته الخاصة على المسائل الفقهية سنشير اليها في مكانها المناسب .

ترتبط القرمطية بالشيعة ببعض أوجه الشبه الظاهرية ، والقرمطية في أساسها خليط من اتجاهات اجنافية وفلسفية نشأت في العراق الادنى في القرن التاسع (الثالث الهجري) . أما من ناحية ارائها الفاسفية فترتبط باخوان الصفا ، بينما يذكرنا مظهرها الاجتماعي بالشيوعية التي تميزت بها حركة الزنج . وفي كلتا الحركتين نجد الدعوة الى امامة العلويين تتخذ كستار يكسب مبادهم صبغة مقبولة لدى العامة . لكن القرامطة رفضوا قبول فكرة وراثة آل علي للنور الالهي واستعاضوا عنها بقيام مرشد للجماعة الاسلامية مها كان أصله ما دام ملهماً من الله ؛ وتزعم القرامطة رؤساء منظورون اعتبروا أنفسهم نواباً عن سيد تختف ، واقتبسوا من الشيعة هذه الفكرة كما اقتبسوا منهم مراسيم الانضمام الى الفرقة . والعقيدة القرمطية الخاصة

(١) الغنوصية : فلسفة نشأت من معتقدات شتى ، وهي مشتقة من المنوس أي المعرفة العليا ذات الاسرار . والغنوصية تهدف الى تخليص الروح من الجسد والسموها الى العلاء .

باكتمساب النور والمستقامة من الهلالية والمجوسية هي التي تقرر بنية
الفرقة ، تلك البنية المتكونة من عقائد وفرائض عملية تتدرج من
أبسط العقائد والفرائض التي يعتنقها مسلم بسيط وترتفع الى مستوى
عال من الادراك المباشر للوحدة الالهية ، ذلك الادراك الذي ينكر
فكرة الواجبات الدينية . هكذا تجمع القرمطية بتنوعها بين الفلاحة
في أعلى قمتها وبين أبسط مظاهر الشيعة المتطرفة في أساسها الى
جانب ما تقدم نلاحظ ان القرامطة لم يقوموا بشيء سوى التخريب
وحسينان نذكر رحلة أبي طاهر سنة ٩٣٠ م (٥٣١٨) على مكة وسلبه
الحجر الاسود الذي لم يعاد الى موضعه حتى سنة ٩٥١ (٥٣٤٠)
بفضل وساطة الخليفة الفاطمي فيما يظهر . وأشد القرامطة في خراسان
قلعة الموت التي غدت الحصن المنيع للاسماعيلية ولم تهدم حتى سنة ١٢٥٨ م
(٥٦٥٦) على يد المغول بزعامه هولاكو . وفي سورية بنى القرامطة
سامية التي أصبحت من نصيب الحشاشين من الاسماعيلية . وبجل
القول ان القرمطية لا تعني مؤرخ النظم الاسلامية الا من حيث انها
ساعدت ، كما ساعدت الشيعة في نفس الوقت ، على نمو النقابات
وأصحاب الحرف والجمعيات السرية ، وكان هؤلاء ذوي ميول متباينة:
من ذلك جماعات الفتوة في القرن السابع الهجري الذين كانوا ضد
الاسماعيلية .

ويكون الاسماعيليون الجدد في الهند الذين ينتمون الى ابن
الخليفة الفاطمي المستامن (المتوفى سنة ١٠٩٤ م = ٤٨٧ هـ) جماعة
متناسكة يترعها اغا خان . وفي النهاية نجد في فارس جماعة من غلاة
الشيعة هم مؤلهة علي أر (العلي الهيسة) يقفون على خط مستقيم ضد
الشيعة الاسلامية بعقائدهم وفرائضهم المعقدة .

والدروز فرع آخر من الشيعة المتطرفة ، ويدعون بمبادئهم الى فرد دعا في القاهرة الى الوهية الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (المتوفي سنة ١١٢٠ م = ٥١٤ هـ) ، وما زال الدروز مؤمنين بهذه الدعوة الى اليوم . يبدو ان مبادئ الدروز في أعلى صورها متأثرة بعناصر من الافلاطونية الحديثة كالقول بالعقل الفعال والنفس السكينة . وهذه الفرقة العنيفة المكونة من مائة وخمسين الفا والتي ما زالت معزولة وسط العالم الاسلامي قد اثارت هياجا في الشرق خلال القرن التاسع عشر ، هذا وان عقلية الدروز أبعد ما تكون عن الاصلية .

أما النصرانية في شمال سورية وجبل الانصارية فتكون جماعة انفصالية هامة يعتبرها الكتاب العرب من الاسماعيلية ، وهم في الواقع يؤمنون ببعض عقائد الاسماعيلية لكن اصلهم على اية حال غير معروف . واذا أمكن اجراء بحث محلي في مناطق النصرانية فان ذلك سيثبت دون شك وجود بطانة وثنية كما أشار الى ذلك د. د. Lassaud . وهم يعتقدون نظرية الفيض الالهي الذي حل في سلم متدرج من الناس على رأسهم علي . وامتازت النصرانية بوجود ثلاث مراحل يمر بها معتنق الدعوة ، كما امتازت بمراسيم خاصة بها .

ان الفرق الاسلامية الثلاث الكبرى والطوائف التي ترعرعت معها تميزت جميعا بطابع سياسي ، ولم تفترق الا بسبب الامامة . يؤمن الخوارج بان الحكم للمؤمن الذي تعتقد الجماعة الاسلامية بأحقية ، بينما تعتقد الشيعة بوراثنة الحكم في ذرية علي الذين يتمتعون بايثار الالهي خاص ، في حين ترى السنة ان الحكم ساطة منحها الله لقبيلة قريش ويجب الا يخرج عنها .

ان حركة التصوف بعيدة بالمرّة عن مجال السياسة . وقد ظهرت في الاسلام كنتيجة للتطور التلقائي لبعض العقائد القرآنية ، ذلك التطور الذي غذاه الجو الاجتماعي في القرن الثامن الميلادي . أما عن القواعد الواجب اتباعها في الحياة العملية ، فان القرآن أوصى الناس باتباع طريق وسط متوازن بين الزهد والاسراف في اللذة ، وهو الطريق الذي حاولت التعاليم فيما بعد ان تجعله صفة بارزة للنبي . واتبع الفاتحون من المسلمين بصورة طبيعية ما امرهم به دينهم من التمتع دون تهيب بالثروات الهائلة التي انهارت عليهم بشكل غير متوقع . وتشير بعض الاحاديث الى ان محمداً (ص) قد اثر عنه تذوقه للعطور الذكية والثياب البديعة والاسلحة الفاخرة والخيول المظهمة والطعام الشهي . هذا جانب لحياة الرسول ، أما الجانب الاخر فيظهر لنا عسر الرسول وهو يقاسي الجوع ويمارس القصد الى ابعد الحدود على الدوام ، غير غايي . بآية متعة عدا ما أحل الله له من النساء . ازاء هذا الوضع ظهرت أحداث معارضة لهذه النزعة دعت الانقياء الى التردد على الثراء الفاضح الذي تمتع به بعض الصحابة واعقابهم ، فوقفوا ضد جشعهم وحبهم للترف الذي نهى الله عنه . الا انه وجد في سورية ومصر رهبان من النصارى كانوا أمثلة للزهد ، وحين دخلت الاتجاهات البوذية الى العالم الاسلامي في العهد العباسي أخذت تساعد على نشر نزعة الزهد والتصوف . وتكونت منذ القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) جماعات المتصوفة في الكوفة والبصرة التي ترتبط باسم حسن البصري (توفي سنة ٧٢٠ م = ١٠٢ هـ) . أما المحاسبي (توفي سنة ٨٣٧ م = ٢٢٣ هـ) الذي وصلتنا تعاليمه برمتها فقد كان شيخاً للمتصوفة في بغداد . ولم يعد التصوف مجرد زهد لذات الزهد ،

بل أصبح وسيلة لقطع جميع العلايق التي تصل النفس بالعالم لتيسير التيسير
أمامها كيما تبلغ الذات الالهية .
وانتخذ الزهاد لباسا من الصوف الابيض كرمز للبساطة والظهر
ومنه اشتق اسمهم فيما بعد .

لم يلاق الصوفية طريقا ميسرا أمامهم لبث معتقداتهم بل لاقوا
مقاومة من جانب الاحزاب السياسية - الدينية المتعاقبة التي حكمت
الجماعة الاسلامية . وكيما ينجز الصوفية رغبتهم في تطهير نفوسهم ،
ويحققوا أمانهم في حب الله ، جانبوا الفرائض المألوفة التي شرعها
القرآن والسنة ، كيما يطبقوا طرائقهم الشخصية في ممارسة الزهد
والذمول ؛ وقد عارضت فردية الصوفية هذه عقائد الشيعة بصورة
خاصة ، لان هؤلاء اعتبروا تدخل امامهم في مساعدة المؤمن وهو
يحاول التقرب الى الله أمرا لازما . اما الخوارج فوجدوا التصوف
مناقضا للاداء الصحيح للفرائض الدينية ، وبالتالي فهو يعارض الصفات
التي يجب ان يتحلى بها المؤمن الحق . في حين كان علماء السنة اقل
عداء للمتصوفة في الظاهر وان ابطنوا لهم الحقد والكراهية ؛ بينما
برر المعتزلة موقفهم تجاه الصوفية باسباب منطقية . هكذا تعرض
وضع الصوفية في الجماعة الاسلامية الى كثير من الاتفاقات والصدف بحسب
ما يشهده أي صوفي من انتباه الناس اليه وبحسب ما يكون عليه مزاج واهتمام
ولاة الامر في حينه . وبقي الحال كذلك حتى جاء الغزالي فوفق بين التصوف
والسنة وذلك بادماج التصوف في اطار العقائد المتبعة ، والزام معتنقي
التصوف بمراعاة الفرائض الدينية . كما لطف الغزالي من صرامة الفرائض
الدينية ، التي يصعب القول بروحانيتها لمجرد النية وذلك باضفاؤه عليها
انوار الحب الالهي ، كما اضفى حياة جديدة على الفرائض الواجبة

التي كادت ان تصبح آلية انذاك . ولم يذهب بمحا تأليف « احياء علوم الدين » الذي كتب ببيان ادبي رائع قل له مثيل في النثر العربي . كان للجوامع الصوفية في الشرق كما في الغرب ، زواياهم وتكاياهم التي مارسوا فيها شعائرهم الروحية من المواعظ للتقية وتلاوة القرآن والاوراد المصحوبة بالموسيقى والغناء « او السماع » ، الى حلقات الذكر وصور التعذيب الوحشي للبدن . وفي القرن الثالث عشرم (السابع هـ) حوى الشرق عدداً عديداً من الربط والخوانق والزوايا حيث يجري التعليم ويتدرب المريدون .

اتنا لا نستطيع ان نوجز ماضي الصوفية وحاضرها في المامة بسيطة ، فالتدخلات السياسية لبعض جماعات الاخوان من الصوفية وشعوذات آخرين ادت الى اطلاق احكام مرتجلة لا تمت تفكير العامة الضيق ؛ ومن هنا اقرنت الصوفية لدى هؤلاء بصور الدراويش الحواة « والعيسوية » . وكما ان التأثير المقلق للتمارين المولدة للذهول الصوفي على ثبات وحصانة العقل الانساني ، تلك التمارين التي قصدها ان يبلغ المتصوف عن طريق شدة شوقه وتواضعه العميق مرحلة الاتحاد بالله . كما انهم المتصوفة ايضا بان « الانا » في تشريحهم للسكل الجليل [الله] تكون اقرب الى فقدان ذاتها في نوع من التضخم هو السبب الاساسي لاعام حالات الممس . لكن تصوير الصوفية بهذا الشكل يحرمنا من الاحاطة بما يلزم من مظاهر الصوفية ويحبطنا ننسى بان الارتفاع بالروح الى درجة معرفة الله بارغامها على التطهر قبل محاولتها الاتحاد بالكمال المطلق يجعل الصوفية تتخلص من المراسيم الالية التي لا ترضي الحس ولا العقل وبذلك تدفع الحياة الباطنية الى التحرر وتمنح الحياة الاخلاقية رونقا جديدا . ويمكن القول بان

الصوفية في عهودها السابقة انعشت الحياة الروحية للمسلمين الذين وجدوا بان مراسيم الدين الشكلية غدت كل شيء في الايمان ، مما اعمدصوت الضمير ، كما حزن المسلمون من ناحية اخرى لتفتشي وثنية تقديس الاولياء . وسترانا عالمين الى طرق موضوع الصوفية فيما بعد حين نتناول الحديث عن هذا التقديس .

ويبدو من المعقول ان نربط ، الى حد ما ، بين النزعة الصوفية ومحاولات نمو النزعة التوفيقية التي قامت بين المسلمين في فترة متأخرة ، والتي لا قيمة لها الا اذا اعتبرناها جهدا مخلصا لتوحيد جميع الناس من ذوي الارادة الطيبة في حركة عامة صحيحة متوجهة نحو الله . ولا شك ان المحاولة الخائبة التي قام بها في القرن السابع عشر الميلادي السلطان الفند « اكبر » الامبراطور المغولي لم تترك لها اثرا حيا في الهند . ويلزمنا ان نلاحظ ان الزمات الاسلامية في الهند الحديثة لا ترجع الى هذا الامبراطور وان كانت جهوده لم تذهب جميعها سدى لا سيما وان غيره من المصلحين الدينيين اقتدوا باعماله .

لقد ركزت الشيعة الفارسية ، شأنها شأن المذهب السني ، في صيغ ثابتة وانحصرت في نطاق حياة عقلية ارجال الدين تنصف بالضييق والالية معام طبقة « الملائية » : وقد اصاب المذهب الشيعي في القرن الماضي اطمة عنيفة تركته ضعيفا لزمان غير قصير . وظهر فرد مثقف ملهم هو الميرزا محمد علي ادعى بانه يجمع في شخصه علامات الامام المختفي والنسمة الالهية في آن واحد : واعلن انه هــ و « الباب » الذي يفتح عن انسانية كاملة . وقد اشاح بوجهه عن الاتجاه التقليدي للاسلام ولم يفكر بالرجوع الى المبادئ الاسلامية

القديمة ، بل هدف الى مبادئ جديدة ؛ ولما كان المرزا قد اشرب
 العقيدة الاشاعيلية التي لم تعر الفرائض الدينية الا اعتبارا قليلا وكان
 مستنداً تارة الى النزعة العقلية وطوراً الى نزعة صوفية فانه توقع
 الاسلام مستقبلاً تتابع فيه الدلائل الالهية على الظهور وتحمل كل منها
 بحسب رأيه أحدث ما كشف عن عالم الغيب . ومع ما كان للباب
 من لاهوت غامض فاننا نجد عنده نظاماً أخلاقياً عملياً قد يكون أكثر
 ثباتاً مما هو في الاسلام ، ادعى بانه يتطور بالتضامن بين أفراد
 العائلة ويزيد في استقرارها الخلقي ، وذلك بتحقيقه استقلال المرأة
 كما تجرأ على دخول معترك الحياة السياسية كعارض صلب للطبقات
 الحاكمة في ايران . وقد ألقت به طبقة « المللوية » في غيابة السجن
 وعذب سنة ١٨٥٠ م مما أكسبه صفة العظمة وأدى الى تقوية دعوته
 ونجاحها . لكن أعوانه انشقوا على أنفسهم بعد موته : فالجماعة
 التي التفت حول « صبحي أزل » استطاعت وحدها أن تحتفظ بأفكار الاستاذ
 وتصونها . ويبدو من الصعب علينا أن نقدر التأثير الفعلي لهذا الفرع
 من البابية من على التطور الديني لايران . أما البابيون الآخرون فقد
 ساروا في السبيل الذي وجههم نحوه بهاء الله ، الذي قام بدور المصلح
 والنبي ، وقد انتشرت تعاليمه في مؤلفات ترجمت الى عدد كبير من
 اللغات الأوروبية : وتعمل هذه التعاليم إما على القرآن أو على تعاليم
 الرسول وصحبه . والبهائية في هذه الصورة الأخيرة لم تلاق فيما
 يبدو سوى نجاح وسط في الشرق ، مع العلم انها بلغت امريكا في

دعوتها . واتخذت البهائية شكل عقيدة مركبة يظهر انه سام في تكوينها جميع الاديان البشرية الكبرى ، كما يظهر انها عقيدة تجاهدي في عدم « تثبيط » التزعة العقلية للعلم الحديث من ناحية وعدم « تثبيط » التزعات الصوفية لبعض الجمعيات المعاصرة من ناحية أخرى .

ومن الجدير بالذكر انه يلزمنا الان بالغ في الاعتقاد بوجود الجمود الروحي الذي ظهر في العالم الاسلامي حتى القرن الماضي ، فدراسة الفقه واللاهوت لم ينقطع عن مواصلتها أشخاص وجماعات ذووا وجدان ونيقظ ، ولم يخل بعضهم في نفس الوقت من عقول بلغت مراتب عالية من الكمال . لقد تمسك ابن تيمية الذي توفي سنة ١٣٢٨م (٥٧٢٩هـ) تمسكا شديدا بالمذهب الحنبلي ، الذي يحمل احتراماً بالغا للقرآن والسنة . وقد فكر ابن تيمية انه وجد في هذا المذهب الحل المبائر واليديهي لجميع تلك المسائل التي استصعب الاجابة عليها أهل « الكلام » الجدليون الذين استخدموا التفكير المنطقي والاستدلال العقلي في حل المسائل . كما انه بلور فكرته واكملها بعنايته الواضحة بمصالح الجماعة الاسلامية ، ومن هنا قال « بالمصلحة » ناظراً إليها على انها محاطة بنوع من العناية الالهية العملية . وقد وقف موقف المعارضة الشديدة من تقديس الاولياء . وفي نهاية القرن الثامن عشر قلده هذه الاراء شيخ من نجد هو محمد بن عبد الوهاب الذي بشر بالرجوع الى الدين كما كان في صدر الاسلام ، ودعى الى قمع كل البدع التي جاءت بعد ذلك ، ونبت جميع تلك الفرائض الجاهلية التي لم يقو الزمن على ازالتها . وقد أكد بصورة خاصة معارضته لتقديس الاولياء ،

وانتا نشاهد ان الوهاية حين اجتازت حدود نجد ومنطقة الخليج
الفارسي اجتاحت بشدة مكة والمدينة وحطمت كل آثار التقديس التي
أضفيت على الرسول وآله . ولم يقف هؤلاء المصلحين عند حدهم الا
تدخل الجيوش المصرية ، أولئك المصلحين الذين قدر لهم فيما بعد
أن يسودوا بلاد العرب في القرن العشرين .

المصادر

Goldziher, Dogme et loi de l' Islam ; Nyberg, mo'
tazila; Wensinck, Murdjiya; Massignon, Carmates;
Nocairis; tassawwuf; tariqa; Strothmann, shia.

الفصل الرابع

المقدمة الإسلامية

الاسلام والكفر . وحرانية الله . الملائكة ، الشياطين ،
الجنة . الانبياء . البعث . يوم الحساب . الجنة . النار . تعمير
الأولياء . الصفوات .

ان العقيدة الإسلامية التي نجد مبادئها في القرآن قد تكونت
في عدة عصور على يد علماء المسلمين في صورة فتاوى تعتبر بمثابة أجوبة
على مسائل آنية تحدث بين الفينة والفينة للجماعة الإسلامية ، وهذه
الفتاوى لا تخرج عما جاء به القرآن والسنة . وهي مع ذلك لا تخلو
من اختيار ناتج عن الاجتهاد الشخصي « الرأي » من أجل تفسير
قضية أو حكم عليها . وهكذا لا يستغرب أن تكون العقائد المتأنية
من هذه الاحكام تختلف الواحدة منها عن الاخرى بحسب زمانها
وبحسب الميول الشخصية للقائلين بها . وأول محاولة لجمع هذه الاحكام
نجدها في محاولة جمع الحديث ، ثم في الفقه المذسوب الى أبي حنيفة
وأخيراً في « العقائد النسفية » للنسفي المتوفي سنة ١١٤٢ م (٥٣٧)

هـ (١) أما الاحكام التي وضعها الغزالي في كتابه « احياء علوم الدين » فقد عمل على محاسنها من جاء بعده .

يدعي معتق الدين في القرآن المؤمن أو المسلم دون ما يميز بين التعبيرين . ويضيف القرآن الى كلمتي الايمان والاسلام كلمة البر (سورة البقرة آية ١٧٧) (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين واتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وقد تناول حديث من أحاديث الرسول ما في هذه الآية فيجمع في صيغة واحدة كل ما فرض على المؤمن من فرائض وأعمال . وهناك حديث آخر يبدو انه يميز بين الايمان والاسلام ويقرر ان الايمان هو اعتقاد بالله وملائكته وكتبه والتوجه اليه والاعتقاد برسله وبالبعث ؛ وهذا تعداد لا يخلو من غموض . بينما الاسلام هو عبادة الله دون شريك واقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المشروعة وصيام شهر رمضان . ويمكن ان نستنتج من هذا ان المؤمن هو الذي يؤمن بالعقائد والمسلم هو الذي يقوم بأداء الاعمال التي تؤكد هذه العقائد . لكنه ليس هناك في الحقيقة شيء هام في هذا التمييز الظاهر وهذا ما يجب أن نتذكره . ولقد كان الغزالي هو الذي أوجب على المسلم تطهير القلب الذي اعتقد انه يمنح

(١) النسخي : عمر بن محمد (٤٦١ - ٥٣٧ هـ) أحد الأئمة المشهورين بالحفظ والوارد ، وكان أصولياً . كل ما مفسراً محدثاً فقيهاً ، صنف قريباً من مائة مصنف وله كتاب « العقائد النسقية » في علم التوحيد .

حياة جديدة للفرائض الإسلامية . ولن نعبر اهتمامنا الى التمييز بين
الايمان والاسلام فيما سيأتي من شرح .

وفي عهد مبكر من الاسلام أقامت العقيدة الايمان على أساس من
التأليف بين ثلاثة عناصر : تصديق داخلي أو معرفة حقيقة
تكتسب بالوحي النبوي أو باستخدام العقل ، وشهادة باللسان ،
وأداء الفرائض الأساسية للمسلم وهي العمل بالاركان . وهذه
العناصر الثلاثة هي التي صاغتها العقيدة الاولى بالشكل التالي : تصديق
واقرار وأعمال .

ومسألة الاعمال أو فرائض الدين بالنسبة للايمان مسألة كبرى في
الاسلام كما هي في المسيحية . وقد أشرنا سابقاً ان المسلمين ناقشوا موقف
المسلم الذي لا يؤدي الفرائض وهو في نظر المعتزلة والاشعرية فاسق
في حين « علق » المرجئة أمره الى الله ليحكم فيه يوم الحساب ، بينما
أعلن الخوارج بانه كافر . لا يصحح المؤمن عند المرجئة كافر إذا
ارتكب الكبائر ، مادام عمل الحسنات لا يجعل من الكافر الا منافقاً .
والفتاح العملي في العقيدة العامة هو ان الذي يقيم الصلاة مولياً وجهه
شطر القبلة يعتبر مؤمناً ، بينما تارك الصلاة يعتبر كافرأ . وهذا
الاخير هو الذي يطلق على غير المؤمنين عامة وهم الكفار وبكلمة أدق
المشركون الذين يجعلون مع الله الهاً آخر .

ان العقيدة الأساسية هي وحدانية الله ويقر القرآن ان الله لم يلد
ولم يولد . وهذا هو فيما يعتقد المعنى الجارحي الذي يعطيه الاسلام
لكلمة التوحيد . ولكن حينما حاول الاسلام ان يعالج حقيقت الله ، أي
أن يقين الدلالة التي يجب ان تمنح لمواهب الله الخاصة بالمعرفة والعمل

والسمع والبصر... الخ ، وحينما بحث العلاقة بين ذاته وصفاته فهم العلماء ان اعطاء قيمة مستقلة لصفات الله يحدد بعض الشيء من فكرة وحدانيته . لذا قالوا ان صفات الله لا يمكن ان تكون الا معتمدة على ذاته ؛ وهذا المعنى يجب ان نفهم التوحيد في عقيدة الموحدين . ان الله خالق الكون ، وقد خلقه في ستة أيام ولم يسترح في اليوم السابع (سورة ٤٠ آية ٣٧) ، وقد خلق الله من دخان يملأ الفضاء المياه والارض والجبال والكائنات الحية وأخيراً خلق آدم في يوم الجمعة . وهناك سبع سموات وسبع أرضين كما ان هناك سبع مناطق في الجنة وسبع أخرى في النار . ولا نجد في الحديث تفاصيل عن الخلق ؛ الا ان بين الاخبار الكثيرة المروية التي تدعي تفسير العالم نلاحظ شيوخ الرواية التالية : خلق الله ملكا يحمل الارض على كتفيه القوتين ؛ قدماء مثبتان على يا قوته يحملها قرنا نور ينصب على سمكة سموت تسبح في أوقيانوس يشرف على جهة لا يمكن العلم بها . والملائكة وهي من خلق الله ليست بالذكور ولا بالاناث خلقت من نور ، وهي في منزلة أدنى من منزلة الانبياء ، مادام هؤلاء يكتبون ميزة خاصة كنتيجة للصراع الذي عليهم ان يقوموا به ضد الطبيعة البشرية . وعلى رأس الملائكة أربعة عظام مقربون هم جبريل حامل رحي الله الذي يدعو القرآن بروح القدس ، وميكائيل الذي يرعى نظام الطبيعة وحياتها ، واسرافيل الذي سبفخ في الصور يوم الحساب ، وعزرائيل ملك الموت الذي يقبض الروح من أفواه المحضرين .

ان الملائكة يراقبون البشر : فهناك الحافظان والكاتبان الذين يسجلان الحسنات والسيئات : وهناك شك فيما اذا كان هؤلاء الملائكة

تختلف اشخاصهم أو أنهم هم أنفسهم يقومون بوظائف مختلفة . أما الحافظان ، في الليل فيعمل عملها عند شروق الشمس آخران وهكذا الامر عند غروبها : وهنا لحظتان يتعرض فيها المؤمن الى الخطر ، وعليه أن يحذر خلالهما من اغواء ابليس واتباعه ، وكذلك عدم تميز بين الملكين الكاتبين وبين ملكي القبر منكر ونكير . أما الجنة فيحرسها الملك رضوان وأما النار فيحرسها مالك .

تتجول الشياطين حول الارض وفي السموات الدنيا وتعمل على مباغطة أسرار الملائكة على حدود السماء السابعة . تعمل الملائكة على طرد الشياطين باستمرار برجمها بحجارة تتمثل بالشهب ، وعمل الملائكة هذا هو شبيه بما يعمل به الحجيح اذ يرجون حجرة من مقليدين بذلك ابراهيم الذي تقول عنه الاخبار أنه طرد الشيطان الى متى رجمه بالحجارة ومن هنا لقب الشيطان « بالرجيم » : وبلا حظ ان معنى كل هذه المعتقدات المختلفة لا زال غير معين .

يحمل جيش ابليس من الشياطين أسماء متنوعة هي : جني ، شيطان ، عفريت ، مارد ، (عاص) . وقد خلقت هذه الشياطين قبل الانسان من نار : وهي ما بين ذكور وإناث ويستطيع جميعها الانحداد بالبشر . وبعضها مسلم لكن القسم الاكبر منها عدو للانسانية والاسلام . والاعتقاد الشائع الخاص بتقديس الاولياء والذي تطور كثير آ كما سنبين ذلك فيما بعد ، قد ملا العالم كذلك بالجن المقسمين في سبعة جيوش لكل قائده وواجباته والبقعة التي يحل فيها ؛ ويهاب الانسان من كل من هؤلاء طريقته الخاصة في مهاجمته ، وان استطاع الانسان في نفس الوقت ان يدافع عن نفسه ضد كل

طائفة من هذه الطوائف .

ان ابليس رأس الشياطين كان الملاك الاثيم عند الله ، وقد أرسله لمحاربة الجن المارقين على وجه الارض . وعند ما خلق الله آدم امتحن اخلاص الملائكة بان أمرهم بالسجود لآخر خلقه . فأطاع الجميع سوى ابليس الذي أبى واستكبر بسبب علو عنصره . ولما طرد من الجنة انتقم ابليس لنفسه باغواء حواء الذي أدى الى اقصائها وزوجها من الجنة . واستمر ابليس في حياة هذا العالم كوسوس للانسانية وعامل على اغواها ؛ وقد تأثرت المعتقدات القرآنية بعد القرآن الذي تابع الحكايات والقصص اليهودية والمسيحية بالذكريات الجوسية فاضفيت أهمية جديدة على الشيطان « ابليس » .

يجب على المسلم أن يعتقد برسل الله ويكتبه التي هي مظهر رسالتهم . وبعد هبوط آدم غفر الله له وأحل فيه نوره الالهي الذي انتقل من نبي الى آخر حتى استقر في محمد . وتروى الشيعة ان هذا النور انتقل من الرسول الى أئمتهم من ذرية علي الواحد بعد الآخر . ان آدم هو أول الأنبياء الذين يكونون سلسلة موصولة الحلقات . والأنبياء أفراد من البشر تميزوا بفضائل أساسية معينة : كالصدق والعقل وغيرها . كما انهم معصومون عن الكبائر ، ويعصفون عادة بالقدرة على اتيان المعجزات . ويختلف المفكرون الدينيون في عدد الأنبياء ؛ لكنهم تعارفوا على أن الذين جاءوا يكتب منزلة يبلغ عددهم مئة وثلاثة عشر نبياً ، وان كان معظم هذه الكتب قد ضاع : والانبياء الستة الرئيسيون هم آدم ونوح وابراهيم وموسى الذي جاء بالتوراة وعيسى صاحب الانجيل وخالعهم محمد (ص) وهو أعظمهم جميعاً . ومع ان هناك حديثاً واحداً ظاهر الصحة بقراران محمداً لم يؤت موهبة صنع

للمعجزات ولم يمكن له غير معجزة واحدة فافت جميع المعجزات الاخرى
وهي القرآن الموحى به اليه ، فان اعتقاداً شعبياً شائعاً ينسب اليه
معجزات صفوى كمعجزة شق القمر بصورة خاصة .

ان الكتب التي جاء بها الانبياء القدامى الى الامم لا تختلف عن
القرآن ؛ وهذه الكتب تقدمت بقوانين محتم على عباد الله طاعتها ؛
لكن اليهود والنصارى حرفوا ما انزل اليهم من كتب . فجاء القرآن
واحياً الاصل الحقيقي للوحي لا آخر مرة قبل قيام الساعة ؛ ومن
هنا كان محمد خاتم النبيين .

ومجمل القول ان العقيدة الاسلامية تقر بالبعث ويوم الحساب
والاتجاهات المتعاقبة في اليهودية التي روجت الاعتقاد بعقاب على
الارض ينال الاشرار أو يعقاب بعد الموت مباشرة أو بحساب عام
عند نهاية الزمان ، هذه الاتجاهات أدت الى وجود الاعتقاد الشائع
في الاسلام الخاص بقبول فكرة العقاب في القبر . ويروي القرآن من
سبيل التذكير النوائب التي أهلكت قوم عاد وثمود ؛ كما أسهب
الحديث كذلك في ذكر عذاب القبر . فما يكاد يتلاشى وقع خطوات
أولئك الذين أوسدوا الميت التراب حتى يزوره ملكان مرعبان
هما منكر ونكير اللذان يسألانه « من هو ربك ؟ » فاذا أجاب بالشهادة
الاسلامية التي تكررت اعادتها بجمانه عند موته والتي يجب أن تكون
آخر كلماته ، تركه الملكان برفق وفتحاه باباً يستطيع أن يرى من
خلاله موضعه في الجنة . أما اذا لم يجب أو أجاب خطأ ضربته الملكان
بأعمدة من حديد في قبره وفتحاه باباً يرى من خلاله مقدمه من
النار .

هذا الاعتقاد أدى الى قيام عادة في شهر وغيرها برؤيتها أحداث

دوت ان الرسول خاطب الموتى : مؤداها انه يقترب رجل معروف
بتقواه من اللحد المفتوح ، ويعلم الميت الجواب الذي يجب أن يقوله
للملكين .

ويبقى الموتى في قبورهم حتى يوم الحساب ، ما عدا الانبياء
والشهداء الذين ينقلون أثر موتهم مباشرة ، أما الى الجنة نفسها أو
الى محل وسط هو الاعراف .

إن يوم الحساب سيزدحم بالاحداث المروعة . أولها اضطراب
شؤون المجتمع الانساني : وسينمحي الايمان ، ويسود الارض الشر
والعنف والحرب ، ويتولى الحكم أراذل الناس ... الخ . وفي هذه
الاثناء سيبعث المهدي الذي سيملا الارض عدلاً بعد أن مائت ظلماً
وجوراً . وهو مؤيد بهداية الله ووارث كافة تعاليم الشرق الخاصة
بظهور منقذ للانسانية . وقد ظهر هذا المهدي فعلاً عدة مرات في
بقاع العالم الاسلامي لكنه فشل في كل مرة لأنه لم يكن المهدي الحقيقي
المنتظر عند المسلمين .

وسيقوم المسيح الدجال ما بين العراق وسورية وهو أعور
شفيح المنظر يحمل على جبينه حروفاً تنفي عن الكفر ، كما سيركب
حماراً ويتبعه سبعون ألفاً من يهود اصفهان . كذلك سيأتي من وسط
آسية أقوام أشداء هم اهل بأجوج ومأجوج . وبعد ان يشربوا
بحيرة الناصرة يسبرون قدماً الى بيت المقدس .

أما المسيح الذي ينزل من السماء ، فسيظهر في احد مساجد دمشق
عند صلاة الظهر في الزاوية الغربية من المأذنة الشرقية ، وسيعطيه
الامام محله ليصلي هو بالناس ، ثم يذبح الدجال عند أبواب الله ،
ويطلب المسيح من الله هلاك بأجوج ومأجوج . وسيتزوج وينجب

أطفالا ويحكم الأرض مدة أربعين عاماً ينشر فيها السلام والامن بين
البشر والوحش .

إننا لنشعر بشيء من التيه وسط هذه الاحداث التي تجمعت من
مصادر شتى والتي هي في نفس الوقت غير معينة في نظر التاريخ .
ولا ندري أين نجعل موضع ظهور الوحش ، والدخان الكثيف الذي
سيغطي الأرض لمدة أربعين يوماً ، ودمار الكعبة وشروق الشمس
من المغرب . علاوة على ما تقدم ، تمثل هذه الاحداث تجمع روايات
قديمة لم يقر الدين بها جميعاً . وقد نبذها الغزالي ، وإن كانت براءته
قد صاغت مشاهد الاحداث المقبلة بروح شعري وأسلوب فياض .

وفي النهاية سينفخ اسرافيل ملك يوم الحساب في الصور (نفخ
الفرع) فتهلك كل الكائنات وتبقى في البرزخ في حالة بين الموت
والحياة مدة أربعين عاماً . ويهطل المطر فيحيي موات الأرض ويستمر
حتى النفخة الثانية في الصور « نفخ البعث » فتعود جميع الكائنات الى
الحياة ، وهذا هو نشر يوم القيامة . وستنتظر الناس والحيوان كذلك
دون شك ساعة الحساب في بقعة من الأرض هيأها الله لهذا الغرض
ربما تكون في بيت المقدس ، وسيكون الجميع من البشر والوحش
عراة تصلبهم الشمس بوقدتها وينصب العرق من أجسادهم بغزارة
فيكون بحيرات واسعة ، وهم يقفون منتصبين ينتظرون بقلق حكم
الله فيهم . وآخر الامر يعطى الملائكة لكل كتابه الذي كتبت فيه
حسناته وسيئاته ، ويحمل الابرار كتابهم يمينهم والاشرار بشمالهم
ويمثل الانسان بعدئذ بين يدي الله الذي يأمر بوزن اعماله بالميزان
« ق : س ٢١ ، ٤٨ » وذلك بعد اتمام حسابه . وستبيض وجوه
المؤمنين واسود وجوه الكافرين « ق : س ٣ ، ١٠٢ » وفي هذه

اللاخطلة يشفع الرسول فيقبل الله شفاعة عن الجماعة الإسلامية .
وبعد الحساب يسير الناس جميعاً على الصراط وهو معبر أدق من
الشجرة وأحد من السيف . فيجتازه الصالحون بسرعة البرق ، أما
الذين حقت عليهم اللعنة فسيهرون الى قرار المجيم .

فاذا نهل السعداء من حوض النبي ، دخلوا الجنة التي قحتها
الاخبار الى عدة مناطق ، منها الفردوس التي ورد ذكرها في القرآن .
وصف القرآن الجنة بأسباب ، ووصف حياة المكرمين وكيف
يستمتعون بها ، وقد أضاف الحديث أوصافاً أخرى . ومنذ بداية
الدعوة الإسلامية يبدو ان الجنة كانت هي الموضع الذي يحلم به
اناس طامشوا في ارض قاحلة والفوا حياة بدوية شحيحة ، ويكرر
القرآن اسم الرياض والجنات المرة بعد المرة (ق : س ٧٦ ، ١٢ ، س ١٨
٣٠ - س ١٠ ، ٩ - س ٤٤ ، ٦٠ - س ٢ ، ٦٨ ، الخ ٠٠٠) وفيها جميعا
تجري الانهار من كل جانب وتندفق من ماء سلسبيل وانهار من لبن
والخرى من مخمر (ق : س ٤٧ ، ١٦) وانهار من عسل (ق : س ٤٧ ،
١٧) (١) تفرق في الظلال الكثيفة الاشجار الوارفة (ق : س ٤ ،
٦٠) ، والقرآن الكريم يسمى ثلاثة من الاحواض هي العكوتر
وعينان اخريان تلبعان من تحت عرش الله هما الزنجبيل والسلسبيل
(ق : س ٧٦ ، ١٧) . وقد نشر الحديث بين جمهور المسلمين عظمة
الشجرة « طوبى » التي تنشر وارف ظلها الى مدى بعيد : وهذه
الشجرة لها ذكر في القصص القديم ، وقد اشار اليها القرآن في

(١) يعطى المؤلف للسور والايات أرقاما لا تطابق أحيانا طبعات القرآن
المتوفرة لدينا ، ويبدو أنه اعتمد على طبعة خاصة مع العلم ان ترتيب آيات القرآن ليس
واحد في جميع الطبعات .

سورة الرعد (٢٩) ويكفي المسلمين على الارائك وسط خيام فاخرة لمدة طويلة (ق : س ٧٦ ، ١٣) ، ويكتفي اهل الجنة ثيابا زاهية ، وقد حلوا باساور [من فضة] ومن كريم الاحجار ، ويطعمون شهى اللحم ولذيذ الفاكهة (ق : س ٥٢ ، ٧٢) ، وقطوف الجنة من الاغاب والتخيل دائية على المؤمنين (ق : س ٧٦ ، ١٤) « كلوا واشربوا هنيئا بما اسلفتم في الايام الخالية » (ق : س ٥٢ ، ١٩) ويسقيهم ربهم من شراب طهور لا يصيب شاربيه بأذى (ق : س ٧٦ ، ٢١) ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا يسقونهم بكأس يمتزج شرابها بماء الزنجبيل (ق : س ٧٦ ، ١٩ — س ٥٢ ، ٢٤) . اما ما يقصل بالازواج المطهرين فان الحديث فصل ما ورد في القرآن على سبيل الاشارة العابرة تفصيلا وافيا : وهؤلاء مطهرون بمعنى خلوم من اي نقص يصيب البدن البشري . اما الحور العين ففي عيونهن حور اخاذ بلعمان سواده وبياضه (ق : س ٥٢ ، ٢٠) ، وهن حور مقصورات في الخيام .

وللمؤمنين الذين يرغبون بانجاب الاطفال ان يتمتعوا بهذه النعمة ، وهناك لفتة تشير الى حب العرب لصغارهم وعجبهم بأبوتهم وستكون تربيتهم مبصرة وسريعة كولداتهم .

إن السكن المثالي عند البدو المتحرقين الى الظلال الوارفة والمياه الجارية غير الآسنة والى انسياب الزاهية والحلى البراقة والعطور والنساء ، كل هذا تملك بخيلة المسلمين في اثني عشر قرنا (كذا) ويجب ان لا نفوتنا حقيقة هي ان المفريات التي قدمها القرآن بهذه الصورة يجب ألا ندهش لبساطتها لانها كانت مطلوبة في بيئتها الاولى كما نجدتها في التعاليم المسيحية التي ورد ذكرها في القرآن

كثيراً . إلا ان مثل هذه المنع لم تكف ذوي النفوس الملهقة المثالية من المسلمين الذين لم تأمرهم كايا هذه الامور المادية الرتيبة التي وعدها الدين الخفيف : بل طمحووا الى بركة رؤية وجه الله .

اما جهنم التي دعاها القرآن بالنار غالباً فتتكون بحسب كلام المفسرين من سبعة اقسام وضعوها اسماء لم ترد واضحة التسلسل في القرآن . وارفع الاقسام هو جهنم التي سيعاقب فيها المسلمون الذين اذنبوا عقاباً محدود الامد ، اما الاقسام الاخرى فقد حفظت لليهود والنصارى والصابئة والمجوس والوثنيين واخيراً المنافقين وادعياء النبوة الذين خاصهم الرسول في المدينة . ولم تعطنا المآثورات الاسلامية والاختبار المتواترة فكرة واضحة عما يقوله القرآن عن صنوف العذاب التي سيسامها اهل جهنم : إلا انهم سوف يقاسون ظمأ قاتلاً يدفعهم الى اروائه بشرب الحميم ، وسيتناولون من قعر آبار الجحيم قطراناً وقاراً مذاباً (ق : س ٤٧ ، ١٧ — س ١٤ ، ٢١) ، وستجف جلودهم وتصلى وجوههم النار الخ . . والقصص الاسلامية التي تعالج موضوع جهنم ليست جديدة ، بل هي كالقصص المسيحية ذات اصول في الكتب اليهودية . وقد اشرنا الى ان الآثمين من المسلمين ان يخلدوا في جهنم التي ستنمحي آثارها يوماً ما ، بل يعتقد بعض علماء الدين ان النار كلها ستزول وليست جهنم وحدها .

إن المؤمن ينتظر دون شك بطمأنينة وثقة نيل ثوابه من لدن رب عادل ، وهو لا يعلم ما اذا كانت جزاء افعاله سيغير في مصيره الذي قدر له من قبل . ان الله من سمو والبعد واللا تشخص بحيث ان المؤمن ليس متأكداً على الدوام ان دعاه الذي يوجهه اليه في صلاته اليومية سيجاب . وقد كانت الآلهة في الجاهلية ضعيفة إلا

انها قريبة ، ولذا كان الفرد متأكداً من سماعها دعوته إن لم يكن متأكداً من اجابتها رغبانه . وقد شعر المسلمون كالتصاري بسعادة نتيجة ان إلههم المؤلف لديهم كان قادراً على التجلي لهم من وراء حجاب والاضفاء الى رغائبهم وان كان القرآن لا يشير الى مثل هذا التجلي ، وقد مل الاولياء محل الالهة القدماء .

يحتل تقديس الاولياء مكاناً مرموقاً في حياة المسلمين . وهو من بقايا الطقوس التي يحاول فيها الانسان ان يكسب قوى الطبيعة المتجسدة الى جانبه ، بسبب ما يشعر به من ضعف بدني وقوة عقلية في آن واحد ، وحافظت العقائد الشعبية على هذه الطقوس في الاديان المنظمة الكبرى التي رمرت الى هذه القوى الطبيعية بماهية فردية ذات طبيعة ميتافيزيقية [مجردة] عليا من شأنها أن تكون بعيدة وعالية جداً عن معبوداتها . ورغم ان البوذية والمسيحية قربتا الى الانسان الها يرعاه ويحميه ، وجعلتا هذا الاله مألوفاً وعينياً عن طريق الصور والتشبيهات ، إلا انهما لم تستطعا نحاشي تقديس الاولياء ومخلفاتهم أكثر مما فعل الاسلام الذي حرم الصور والتماثيل على خلاف البوذية والمسيحية . وتشغل أماكن الاولياء المسلمين المواقع التي كانت فيما مضى محلات مقدسة : كنباع المياه والاشجار والاحجار وقم التلال ، كل هذه اختيرت لتكون بيوتاً للالهة الوثنية القديمة ومقامات لاواليا اليهود والنصارى كذلك .

إن نمو تقديس الاولياء تعرض بطبيعة الحال لمؤثرات جغرافية واقتصادية : فلئن ساعد سيد المكان المقدس على رفاه البلدة التي ارتفع فيها الى مكانته هذه ، فانه استفاد في ذات اوقت من أهمية مكانته في

حياة الامة . كما ان الاحداث السياسية من ناخيتها لم تكن دون اثر
 من ذلك ان مراكش بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ (٨٩٨ هـ) على
 يد اسبانية الكاثوليكية التي احتلت افريقية بنوع من رد الفعل بعد
 أن تخلصت من حكم المسلمين في ديارها « أسبانية » . فقام حينئذ في جميع
 أنحاء مراكش رجال أعلنوا بانهم قادرون على طرد الغزاة الكفرة بقدره
 خارقة للطبيعة : وكانت لهم هذه القوة ، اما بسبب قرابتهم للرسول
 « وم الشرفاء » واما لعلاقتهم الروحية بولي شهر : وسوف نرجع
 كرة أخرى الى موضوع هؤلاء المدعويين في مراكش باسم المرابطين ،
 ومما كان أصل الولي ، فان لديه البركة كخاصية أساسية ، والبركة
 نوع من الفيض المقدس وبها يمنح الولي مقدسيه السعادة وكل النعم
 الاخرى في عالمنا هذا . كما يستطيع أن يخلق نعمه لا على الفرد فقط
 بل على المقاطعة كلها أو قد تتجاوز هذا العالم الى العالم الآخر عن
 طريق شفاعته عند الله . وليس من الضروري أن يتدخل إرادة الولي
 لمنح البركة وجعلها نافذة ، بل يكفي حضور الولي والتمسح به
 لنعم البركة ؛ هكذا نعم فيض البركة ، ويستطيع حتى خدام
 الولي أنفسهم أن ينقلوا هذا الفيض . وفي حياة الولي تفيض البركة
 من بدنه ، وتبقى كذلك بعد موته ، لأن رفاته تملأ القبر بشكل
 معجز بالغير والبركة اللتين تتجاوزان الكفن وتنتشران الى التربة
 المحيطة بالرفاة . وأثر حماية الولي لغيره يتسع فيشمل مجالا واسعا .
 وهذا الاثر محلي في العادة ، ويعم مجموعة من القبائل أو منطقة
 جغرافية معينة . وحين يكون أحد القديسين كغبد القادر الجليلاني
 قد استطاع بقبه الكثيرة التي هي فوق الحصر أن يسود في جزء من
 العالم الاسلامي ، نجد ان تقديسه يتميز بخصائص عامة ، وإن كان

يظهر ان كل قبة من هذه القباب التي للولي الواحد تكون مقاما مستقلا وتشكل موضعا محليا لتقديس الولي . من ثمة يظهر ان الولي ذو صبغة إلهية مألوفة عند اتباعه ، ويحتفل بعيدة في مواعيد معينة منذ ازمان عريقة في القدم حددتها الظواهر الطبيعية « كوسم البذر والحصاد والجفاف ... الخ » حتى ان اصول هذه المواعيد غير معروفة تماما اليوم . وتقام أعظم الافراح عند ذكرى ميلاد الولي (المولد أو المولود) . كما يسمى أيضا بالموسم وهذا تعبير مشوق ، لأنه أطلق على الحج الى مكة [في الجاهلية] وفيه كانت تنجر الاضاحي على سبيل القرابين من المواليد الجدد لقطعان الماشية ، كما كان يجري رسم صفار البهائم . وبمعنى جد مختلف نقلت هذه الكلمة الى الغرب فاشتقت منها الرياح الموسمية . ويجتمع الحجاج في مكان العبادة حيث يقيمون خيامهم ويعتلي الفرسان خيولهم ويزاحم المشاة بعضهم بعضا . وتقدم الاضاحي وتتلّى صلوات خاصة ويمارس الجميع عبادة معينة ذات شعائر قديمة .

استطاع الرسول محمد بعد تطور بطيه في شخصيته أن يحتل المقام الاول بين طائفة الاولياء . ويؤدي لنا التراث الاسلامي ان الصحابة أجلت الرسول اجلالا يبلغ حد التقديس واءتبروه ذا بركة . انتشرت هذه الفكرة على مر الزمن : فكان محمد (ص) في نظرم الانسان الكامل الذي يجب أن يكون القدوة لجميع المسلمين ، ثم غدا بعد ذلك حامي المسلمين في هذه الحياة ، حيث يظهر لهم فيها في الاحلام ويرعاهم بنصحه ، كما سيفعل في العالم الآخر ، حين يشفع لهم عند الله . وليس من المبالغة أن نقول : ان محمداً عند عامة المسلمين احتل

في عقائدهم وطقوس عبادتهم نفس المكانة التي اسبغت على المسيح عند
النصارى تقريباً (١) وأصبحت زيارة قبر الرسول في المدينة طقساً
لا يقل وجوباً عن الحج الى مكة : كما ان اضرحة الصحابة وضيوعي
صاحبي الرسول الخليفين الاولين أبي بكر وعمر اللذين يرقدان عند
قدمي الرسول في مسجد المدينة ، وأضرحة شخصيات اسلامية لامعة
أخرى ، كلها تزار لغرض نيل البركة مع انهم ليسوا بأولياء بالمعنى
الخاص .

ان تقديس الاولياء أخذ يتصل بالتصوف . ومنذ القرن العاشر
الميلادي (٤ هـ) فصاعداً ، أصبح للمتصوفة أماكنهم الخاصة
للإجتماع وفيها يمارسون السماع ، وقد غدت هذه الأماكن على مر الأيام
ربطاً وزوايا وخواق . ولفظة رباط أطلقت من قبل على الحصون
الموجودة على الحدود والتي اتخذها المتطوعة من المؤمنين أماكن للجهاد
المقدس على تخوم البلاد الاسلامية ، ومن ثم اطلقت اللفظة على الأماكن
التي شغلها المتصوفة من حيث انهم جاهدوا فيها كذلك في سبيل الايمان
اما الزاوية فقد اشتقت من زوايا المسجد حيث يجتمع الطلاب باستاذهم
او اتباع مذهب ما يرئيسهم . وهذه الأماكن التي اتخذت كمبوت
استراحة للزهاد المتجولين صنفت في رتب متبايزة لكل منها شيخ
بارز . والصوفية في هذه المرحلة من تطورها أصبحت شبيهة بالرهبانة
في الغرب . وأصبح لكل جماعة متصوفة « طريقة » أي أصبحت

(١) يذكر المؤلف هنا ان مكانة السيد المسيح عند النصارى ترجع الى أسباب
أعمق ، ولعله يقصد بهذا الى أن النصارى ينظرون الى المسيح على أنه ابن الله
في حين ان المسلمين ينظرون الى نبيهم على انه انسان .

لها غاية دينية أخلاقية ، ورياضتها العملية الخاصة ، وهذه الطريقة تشمل تلاوة أجزاء من القرآن ، الذكر ، ونريد ايراد ذات صيغ خاصة من مثل « يا لطيف ! » مئة ألف مرة . ويصبح المريدون فقراء أو دراويش بعد البيعة أو التلقين ودعي هؤلاء الفقراء كذلك باسم الاخوان .

ولكل أخوة اسلامية طريقتهما الخاصة في البيعة أو التلقين ، وصيغتها في الصلوات ، ومركزها الرئيسي الخاص بها وفروعها التي هي مراكز لاجراء المراسيم الدينية والتعليم . لكن الاسلام في هذا المجال الخاص ، كما هو في جميع المجالات الاخرى لم يميز بين رجل الدين ورجل الدنيا : فكما يكون الامام في نفس الوقت تاجراً قبية وعباءات فقد يكون شيخ طوائف الصوفية اسكافيا . هكذا طورت الاخوة الاسلامية بصورة واسعة جداً ، تنظيم الرتبة الثالثة التي ألحقها الكاثوليك بطوائفهم الكهنوتية : لقد غدت الاخوة الاسلامية جمعية سرية بكل معنى الكلمة احتوت في داخلها مؤمنين من كل صقع ، واستطاعت هذه الجمعية أن تستجيب لكل حركة دينية أو سياسية . ومن المعروف جيداً ولا سيما في أفريقيا ان الاخوات الدينية أو اجتماعات الـ (خوان) قد درست وروقت ، وبالتالي ظهرت آراء معارضة لها تمتاز بنفس الاهمية والحيوية كما كان لها نفس الادارة الدقيقة . وكانت السياسة الاسلامية كما يرتأي البعض أما معارضة لهذه الاخوات على طول الخط أو موافقة لها ؛ وعلى العكس فان معارضي الاخوات لم يكونوا بحاجة الى كثير من الاستشارة لكي يعلنوا عدم أهمية هذه الاخوات على الاطلاق . واعتبر آخرون الاخوة كائناً عضواً حياً يولد وينمو ويتكاثر ثم يندثر أمام أعينهم ، ذلك

السكان العضوي الذي لا م جيداً عقلية البربر والذي نشأ درن شك استجابة للوقوف في وجه السيطرة الاجنبية ؛ وعلاوة على ذلك لاحظ هؤلاء الآخرون ان المسلمين لم يكونوا ليتأخروا عن الاتصال باخوة أوربية كالمساوية الحرة . كما رأوا في الاخوات الاسلامية مظهراً طريفاً من مظاهر الرأي العام من الخير توجيها ورعايته لا الوقوف ضده . ولا شك ان الظروف السياسية قد تضيف أهمية أخرى الى الدور الذي قامت به الاخوات . ومنذ غزوات رباح حتى حرب عام ١٩١٤ شغل السنوسيون مركزاً خطيراً في شؤون الصحراء الكبرى ونجح زعمائهم في تشكيل دولة وان كان شأنهم اليوم لا يبدو للعيان كثيراً ، بل ان خدماتهم ذاتها أدت الى خمرانهم .

والمقصود سواه كانوا مستعدين مخلصين أو مشعوذين ليسوا جميعاً منتمين الى الاخوات الاسلامية ؛ ذلك لان النفس الالهية يتجلى حيث يشاء وتستطيع ان نلاحظه عند أفراد يختلفون عن بعضهم غاية الاختلاف ، نلاحظه عند الملهم الذي يخلص نفسه كاية الى طقوس الزهد ، كما نلاحظه عند المسوخ أو نصف المجنون أو شبه الدعي الذي يستغل ايمان العامة بحيله وشعبذاته ، وكذلك عند المجنون والمعتهو الذي لا يحل قنماته الا مستخرج ماهر يعرف كيف يحول هذه القنمات الى تنبؤات الهية . هذه صورة حية لتقديس الاولياء . وقد أعطت العادة الجارية لكل من اسلفنا ذكره اسماً لا يطلق على الكثير منهم الا بصعوبة وهو اسم الم رابط : ومعنى الكلمة الاساسي هو المخلص للرباط ، أي الحصن الديني المشيد على حدود البلاد الاسلامية والم رابط شبيه بالراهب المحارب في المسيحية . وبهذا المعنى أطلقت الكلمة بصورة صحيحة على مرابطي مراکش . وللمرابطين دور

مهم في الحياة الاجتماعية الاسلامية : اذ أنهم يشيعون حولهم تأثيراً
 خلقياً سحرها ، ذلك التأثير الذي يرجع الى قيمتهم الشخصية أو الى
 السلطة الموروثة عن أسلافهم أو بسبب العاهات الفلسفية التي أوصلتهم
 الى الاستنارة . وقد يكون الم رابط وحيداً لا يخلف وراءه شيئاً ، بل
 قد يلحق نفسه كذلك بأخوة من الاخوات ؛ وقد يكون مؤسس
 طريقة جديدة فيصبح ضريحه مهما وبشرف عليه «مقدم» (١) وربما
 يكون مكاناً لاجتماع أخوة جديدة .

المصادر

Wensinck, Muslim Creed; E. I : Macdonald, imam ;
 Carra de Vaux, 'aqida.

(١) وهو الفيم في البلاد الاسلامية الشرقية .

الفصل الخامس

أصول الشريعة الإسلامية

القرآن . تفاسير القرآن . السنة . الإجماع . الفقه .

الفقه . المذاهب الفقهية .



رسمت المخطوط الرئيسية للعقيدة الإسلامية في القرآن ، في
السور التي نزلت في مكة . بينما حددت الآيات المدنية قواعد العبادة
المفروضة والعلاقات العائلية والاجتماعية . ولم تكن هذه القواعد ،
وهي أسس الشريعة الإسلامية كافية لاعطاء الصحابة الوسائل اللازمة
لحل المشاكل التي واجهت قادة الجماعة الإسلامية ، رغم ان تلك القواعد
جاءت احيانا ذات صبغة تفصيلية . لذلك لجأ الصحابة الى ذكرياتهم
والي السنة النبوية التي غدت فيما بعد عاملا مساعدا خطيرا من حيث
انها أحاطت بمصنوف من التفاصيل لم يتطرق اليها القرآن ومن حيث
انه صار من الممكن وضع الاحاديث وانتحالها . وأضاف الفقهاء
بعدئذ أصليين آخرين للشريعة هما الإجماع ، أي اتفاق عامة المسلمين ،

والقياس أي الاستدلال عن طريق التمثيل . تلك هي اذن الاصول
الاربعة للفقه في الاسلام .

ومنذ اختفاء مذهب المعتزلة ، نجد العقيدة الاسلامية تتفق بان
القرآن غير مخلوق ، وانه كتب خارج نطاق الزمن كما كتبت
كذلك حياة العالم أجمع على اللوح المحفوظ : لقد نزل وحي القرآن
الى السماء السفلى ومن ثم نقل الى الرسول بحسب الوقائع منجبا في
أجزائه بمختلفة الطول ولبس لها معدل ثابت . وفي العهد المبكر تعرض
الرسول لحالات صمت طويلة ملأت نفسه أسى .

وقد جاء الوحي الرسول عادة بواسطة الملك جبريل ، الا ان
محمداً كان يسمع احيانا اصواتا لا يتميز صاحبها وفي أحيان اخرى
جاءه الوحي بطريق نوع من الادراك الباطني اعتبره آتياً من لدن
الله مباشرة . وكان الرسول يتعرض لنوع من الذهول عند كل وحي
ينزل عليه ، يدفعه الى التدثر بعباءته حسب تقاليد قديم نلاحظه عند
الاهليين من حملة النبوة ثم يتلو الرسول بعد هذا ما أنزل اليه .

اتخذ الوحي في السنوات الاولى صورة دعوة ملحة الى الايمان
بالحقائق الاساسية : وحدانية الله ، البعث ، الجزاء ، اذار البشر بقرب
يوم العقاب . وقد تميزت السور الاولى بأنها كالرييح العاصفة تتفجر
عن وعيد صارخ ولعنات انتشرت بينها الوعود والصور الزاهية في
أسلوب موزون مقفى فيه ملامح من تلك المحكم والاقوال التي
استعملها رجال الدين في بلاد العرب القديمة . ونلاحظ ان الجزالة اللفظية
أخذت تتضاءل باستمرار نزول الوحي في مكة ، كما صارت الاختلافات
التي طرأت على الإيقاع اللفظي للآيات تساعد القامد المحدثين على اتمام
تصنيف الآيات بحسب نزولها ، ذلك التصنيف الذي بدأ على أيدي

علماء المسلمين . وفي الفترة المدنية تختفي هذه الجزالة ، ما عدا حالات خاصة يكون فيها الاسلوب أخاذاً ، ذلك لأن الوحي صار يصوغ قواعده الحياة العملية ، ويؤكد في أذهان المسلمين المعاني الاساسية التي نزلت في مكة . وقد قرر علماء المسلمين الخطوط العامة لترتيب آيات القرآن من حيث تاريخ نزولها ، رغم ان هذا الترتيب لا يناظر ما نجمه من ترتيب الايات في نسخة القرآن المعروفة لدينا : وجاء النقد الغربي فارتضى التخطيط العام الذي تقدم به علماء المسلمين هؤلاء . والواقع ان تاريخ عهد وتاريخ الاسلام الاول يعتمد على وثيقة واحدة راسخة الاصول هي القرآن .

لقد أعار علماء المسلمين كبير التفاهم الى تحديد الظروف التي ولدت فيها مختلف آيات القرآن والظروف التي تساعد على توضيحها . وأعطيت كل آية محلها اللائق بها قدر الامكان في تاريخ الجماعة الاسلامية الاولى ، كما غالى المفسرون في محاولتهم تفسير كل آية بارجاءها الى حادثة من حياة النبي ؛ إلا أن غيرهم مال الى انجساح آخر ولم يعتمد على هذا المبدأ وقال بان الذات الالهية تسمو عن التدخل في كل صغيرة وكبيرة الا ان هذا التفسير السطحي للوحي لا يخلو على أية حال من قيمة عند المؤرخ الذي يستطيع بعد تحديد زمانه ومكانه ان يوضح الخطوط العامة للسياسة والانظمة . وبلزنا ألا نسلم بصحة جميع هذه المصادر دون تمحيص .

ومنذ الايام الاولى للجماعة الاسلامية ، دعا الرسول اتباعه الى الاجتماع ليفي الهمم بالوحي ، وليعلمهم القيام بشعائر دينية معينة ليست لدينا معلومات محددة عن طبيعتها بشكلها الاول . ويحتمل أن تكون هذه الاجتماعات لغرض العبادة وتلاوة القرآن واحتمال تفسير

بعض غوامضه ومحاولة تثبيته في ذاكرة المؤمنين . والواقع ان ذاكرة هؤلاء المؤمنين الاوائل أصبحت خير مـؤتمن على الوحي وناقل له . ولا تزال الذاكرة أشرف مكان لحفظ القرآن ونقله ، ومما يميز الانسان ويرفع من قدره أن يكون حافظا يحوي القرآن كله في صدره لكن مع ذلك كانت الكتابة معروفة ومنشرة في مكة ، الى حد أبعد مما ذهب اليه النقد الحديث لمدة طويلة . وقد دونت أجزاء من القرآن على مواد مختلفة متبصرة في بلاد العرب في القرن (٧ م = ١ هـ) كالرفاق والفخار الذي استعمله البابليون والآشوريون للكتابة ، وعظام الواح الكتف للجمال ، ويبدو ان أوراق البردي المصرية لم تعرف في بلاد العرب انذاك .

لم تجر في حياة الرسول أية محاولة أكثر من جمع بعض أجزاء الوحي ؛ لذا لم تتوفر أية مجموعة للكتاب الهجيد ؛ كما لم تكن هناك جهود متواصلة لتصنيف أجزائه تصنيفاً منهجياً . والصعوبات المادية في سبيل جمع القرآن هي التي سببت دون شك تهيباً من الاقدام على ذلك . وفي خلافة أبي بكر ، شعر المسلمون بحاجة الى نص قرآني مضبوط ، يجمع كل أجزاء المدونة وغير المدونة ، يكون الرجوع اليه أضمن من الرجوع الى الذاكرة والى الاجزاء المتفرقة . واستند هذا الواجب الى كاتب الرسول المقرب زيد بن ثابت ، ويبدو ان أبا بكر لم يسر في خلافته نشر هذا النص . كما ان مختلف جماعات المحاربين المسلمين في سورية ومصر والعراق وايران ما لبثت ان وجدت لديها أجزاء مكتوبة تختلف الواحدة عن الاخرى اختلافاً يائساً . وهددت الظروف والملابسات بتوسيع شقة هذه الاختلافات ، كما بدأ النقاش يثور حول الآيات المتشابهة والغريبة ، كما اقترح ان

نضم الى القرآن الاحاديث القدسية المعتقد بانها موحاة بمعناها لا
بلفظها . من هنا قام الخليفة عثمان تدفعه تقواه وحبه للوفاق بين المسلمين
بإلّيف لجنة تعاونت مع زيد بن ثابت فوضعت الترتيب النهائي للقرآن
وكتبت منه أربع نسخ وزعت على المدينة ودمشق والبصرة والكوفة
وعنها نقلت حرفيا النسخ الاخرى التي نشرت في ارجاء الامبراطورية
وغدت نماذج لاقدم النصوص القرآنية الموجودة لدينا والتي يرقى
تاريخها الى القرن (١٠ م = ٤ هـ) . وتقول الاخبار ان الخليفة
عثمان كتب النسخ الاربعة بيده أو كتب واحدة منها على الاقل وهي
التي كان يقرأ فيها حين قتل . وحفظت مكتبات الجوامع والامراء
الصفحات المملوطة بالدم من هذه النسخة لمدة طويلة . وقد شاهد ابن
جبير سنة (١١٨٤ م = ٥٨٠ هـ) في مكة قرآنا خاصا بعثمان
عرض على باب الكعبة أثناء صلوات الاستسقاء .

يقسم القرآن الى مئة وأربع عشرة سورة ، لكل اسمها الخاص
المشتق من بعض محتوياتها ، وفيها عدد متباين من الآيات (الآية
= دليل معجز) . ان تلاوة القرآن كطقس ديني أوجب
تقسيمه لا حسب السور المتفاوتة الطول ، بل الى أجزاء متساوية
من حيث السك تقريباً ، وهذا ما دعا المسلمين الى تقسيم القرآن الى
ثلاثين جزءاً وستين حزباً ومئة وعشرين رباعاً . ان الفاتحة التي يبدأ
بها القرآن ، والسورتان الاخيرتان « ١١٣ و ١١٤ » وهما « المعوذتان
أي اللتان يستعين بهما الانسان من الشيطان » قصيرة جداً (١) والفاتحة

(١) يذكر المؤلف هنا ان السور الثلاث هذه ليست في الحقيقة جزءاً من الوحي
ولسنا ندرى الدافع الى هذا القول ، مع ان واقع الحال يستوجب قبول القرآن
جمله بوصفه كتاباً منزلاً مع ان المؤلف يقر من ناحية أخرى بان بقية صور القرآن
قد أوحى بها . وكان عليه أن يقيم الدليل على رأيه هذا لأن يكتمني بمجرد اشارة طارة

نوع من الدعاء ، أما السورتان الاخيرتان (١) فيختم بهما القرآن وهما بمثابة سياج حصين لطرد الارواح الشريرة . ورتبت السور الباقية وعددها (١١١) حسب ترتيب تنازلي من حيث الطول ، تبدأ بأطول سورة هي الثانية وتنتهي بأقصرها ويمكن القول بصورة عامة ان السور الاخيرة في القرآن تتضمن بواكير الوحي . وأول سورة نزلت من القرآن هي السادسة والتسعون ، والسور الطويلة التي يبدأ بها القرآن نزلت في المدينة . وقد أظهر النقد في السور المدنية آيات ترجع الى الفترة الاولى ، أهمل (٢) وضعها في مكانها فوضعت فيما بعد في ثنايا السور المتأخرة ، ولا نعلم اليوم الظروف التي أدت الى ذلك .

ومع ان نص القرآن ثابت رسمياً ، فلا يزال مبعث تردد عند قراءته وتفسيره . ان القراءات المتعددة بعد أن تعرضت لخلافات ومناقشات كثيرة أفرت العقيدة بعضها بوصفها صورة صادقة للوحي . هذه القراءات لم تنشأ عن الخلافات اللفظية للقراء ولا عن تباين لهجاتهم عن بعضها فحسب ، بل نتجت كذلك من الاختلاف في قراءة النصوص المكتوبة . ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا بان النقط لم تبتكر الا زمن الحجاج في عهد خلافة عبد الملك بن مروان في السنوات الاخيرة من القرن (٧٠ م = ١ هـ) ، فكان هذان التمييز بين الحروف مثال ذلك بين الـ « ب » والـ « و » ، والـ « ث » والـ « ن » ، والـ « ي » ، أما حروف العلة الثلاثة فانها لم تستعمل الا بعد هذا العهد : هذه

(١) Vieilles formules conjuratoires.

(٢) بخلاف عامة الباحثين في القرآن من المسلمين ما يقوله المؤلف في هذا الصدد ويؤمنون بان القرآن قد أوقف على ترتيبه الحالي توقيفاً الهياً .

التحسينات التي أدخلت على الكتابة العربية نه صر الإصلاح الماسوري (١) في الكتابة العربية . أما اختلاف القراءات التي تفيد بها العقيدة الإسلامية عادة فهي قليلة الأهمية في تفسير القرآن .

لقد بحثت الاختلافات النسخية للقرآن في علم التفسير الذي هدف إلى تحديد معنى الالفاظ وتوضيح معنى الآيات ، بالرجوع إلى الشعر الجاهلي من الناحية اللفظية ، وإلى الحديث النبوي أو إلى الاستدلال العقلي من ناحية الأفكار . هكذا تطور المفسرون بفروع خاصة من المعرفة : كعلم غريب القرآن وعلم النسخ والمسخ للتمييز بين آيتين متناقضتين وأيهما تبقى نافذة المفعول ، إلى غير ذلك .

أما الأصل الثاني من أصول الشريعة الإسلامية فهو السنة والحديث ولا يزال هذا الأصل إلى اليوم وثيقة باقية الأثر لدراسة النظم الإسلامية . أما الأحاديث القصيرة الشائعة التي يمنحها قيمة كبرى أسلوبها المباشر فتوقف القارئ على تفاصيل حياة الرسول ، وثائق الصلة بينه وبين الحياة الاجتماعية للعرب في القرن السابع الميلادي . ولا شك أن كثيراً من هذه الأحاديث موضوع انتحال في القرن (٨ م = ٢ هـ) ليلبي حاجة البدع والزعات التي ابتعدت كل البعد عن مقاصد الرسول .

هذه الأحاديث الموضوعة التي استعملت دون حذر تكون مرجعاً أخذاً يجذب أنظار الباحث . وكل منها يتصل بالرسول أو بأحد الصحابة بسلسلة من الأسانيد : روي عن فلان أنه روى عن هن آخر أنه ذكر عن أحد صحابة الرسول قال : إن الرسول قال :

(١) ماسور أو ماسورة لفظة عبرية تدل على ذلك النقص النقدي الذي قام به علماء اليهود للتوراة .

... وهذا هو الاسناد . ونلاحظ ان كل ما فعله الرسول او امتنع عنه وكل احاديثه وكل ما سكت عنه ، جميع هذه اكدت قوة القواعد ومفعولها .

جمع المثقفون المتتبعون من المسلمين في القرن (٩٠٠ = ٩٠٠)
أنواعاً مختلفة من البحوث هي أساس كل الدراسات في علم الحديث .
وقد رتب بعضها حسب أزمنة الاشخاص الذين اسندت اليهم تلك
الاحاديث . وأشهر هذه البحوث الخاصة بالحديث هي تلك التي جمعت
بحسب ترتيب موضوعاتها . فننقل (جامع الصحيح) للبخاري (توفي
٨٧٠ م = ٢٥٧ هـ) طالما طبع في الشرق ، وله كثير من الشروح
أشهرها (عمدة القاري) للعيني (توفي ١٤٥١ م = ٨٥٥ هـ) و
(ارشاد الساري) للقسطلاني (توفي ١٥١٧ م = ٩٢٣ هـ) . وهناك
مجموعة أخرى للحديث هي « صحيح مسلم » (توفي ٨٧٥ م =
٢٦٢ هـ) . وهناك الى جانب ما ذكرنا أربعة مؤلفين يعتمد عليهم أيضاً
هم : ابن ماجه (توفي ٨٨٦ = ٢٧٣ هـ) وأبوداود (توفي ٨٨٨ =
٢٧٥ هـ) والترمذي (توفي ٨٩٢ م = ٢٧٩ هـ) والمسائي (توفي ٩١٥ =
٣٠٣ هـ) . كما ان هناك بعض المصادر الشائعة أخذت من هذه هي :
« مصابيح السنة » للبغوي (توفي ١١٢٢ = ٥١٦ هـ) . وتنقيحها
« مشكاة المصابيح » للتبريزي وكتاب « الاربعين » للنووي
(توفي ١٢٧٨ م = ٦٧٧ هـ) و « جامع الصغير » للسيوطي (توفي
١٥٠٥ م = ٩١١ هـ) . و « تقريب النووي » مهم جداً في مجال
نقد الحديث .

ومع ان مؤلفي مجاميع الحديث حاولوا ان يرتبوها حسب نظام
خاص ونجحوا الى حد ما ، فان القرآن وتفسيره والسنة وتفسيرها

كوت رصيداً ضحفاً لا يمكن أن يحول بسهولة الى موجز ضيق من القواعد والمبادئ المحدد السلوك . ولم يقف الجدل عند حد ، وقد جاء وقت أصبحت الاحاديث الموضوعية نفسها لا تستطيع ان تلي وقائع الحياة الجديدة الا بصعوبة ، لا سيما حين فرضت رقابة ووجه النقد الى الاحاديث الموضوعية وتجريحها بغية هدمها . أما الرأي فكانت له قيمته الخاصة على الدوام ، وبواسطة المتكلمين ، لا سيما المعتزلة وهم انشطهم غدت الشريعة تستقي من أصل آخر هو الاجتهاد والرأي الشخصي ، وهذا مع العلم ان ممارسة الاجتهاد اقتصر على المجتهدين وهم عدد قليل من كبار العلماء المسلمين ، ولا نزال حتى الان نعجز عن ادراك مدى امكانية الاجتهاد بعدم .

واذا كان الرأي المنفرد غير كاف لوجود معتقداً ، فانه تصبح له السلطة حينما يستند الى اجماع المسلمين ، لا سيما ان حديثاً للرسول يقرر ان أمته لا تجتمع على ضلال . ويجب الا ننظر ان الاجماع هو رأي العامة من المسلمين بل رأى الخاصة من رجال الدين والفقهاء في زمن من الازمان ؛ وجرت محاولة لجعل الاجماع خاصاً بعلماء المدينة وحدهم في عصر من العصور .

أما التقدير أو الحكم الفردي فلم يقبل به الا الى حد ضيق جداً فحسب ، مادام ليس أكثر من تطبيق يماثل حالة سبقت ، وهذا هو القياس . وما زال القياس مستعملاً الى اليوم ، فيستطيع الفقيه أن يطبق حالة جديدة على حالات مماثلة سبقت من قبل . إن حق عمل هذه الاحكام نجده غالباً يتمثل في تلك الفتاوى التي يفتيها أشخاص معترف بقيمتهم العلمية ، وان لم يكن الواحد منهم ذا منصب رسمي كفت . وقد كثرت مجموعات الفتاوى ومخطوطاتها الى حد كبير ، واذا نشرت

شيثاً فشيثاً فستكون مرجعاً خطيراً من مراجع تاريخ النظم الاسلامية .
ان تنوع العقائد التي نتجت عن هذه الاصول المختلفة ، وسط
المشاحنات الدينية والفقهية الحادة . منعت هذه العقائد من بلوغ مستوى
الوحدة التامة ولو كانت تلك الوحدة ضمن نطاق الاسلام الاول .
ومدارس الفقه التي أسست في القرن (٩ م = ٥٣ هـ) على أساس حنيف
لا تزال تحتفظ باختلافاتها عن بعضها حتى اليوم : وهذه المدارس
تقسم فيما بينها حكم العالم المسلم الذي . واختلافاتها الظاهرة في وجهات
النظر العقلية المختلفة لها أهمية علمية حقيقية ، لكن هذه المذاهب
ليست فرقة منشقة إنما هي جميعاً مذاهب تسير في دائرة الاسلام التقليدي
وليست بخارجة عن أصول الاسلام الاولى : لذا يستطيع المسلم أن
ينقل من أي من المذاهب الاربعة الى الآخر دون أن يرتكب أثماً .
وأكثر من هذا يمكن في بعض الحالات أن يتابع قواعد مذهب لا
ينتمي اليه : فالمالكى مثلاً يستطيع أن يعقد زواجا ويعلن انسه
سيتبع قواعد المذهب الحنفي فيما يتصل بالنتائج القانونية المترتبة على
هذا الزواج ، وذلك بشرط قبول هذا الزوج كل النتائج المترتبة
على مثل هذا العقد سواء كانت ترضيه أو لا ترضيه .

أما المذهب الحنفي الذي أسسه الامام أبو حنيفة (توفي ٧٦٧ م
= ١٥٠ هـ) فهو أقل المذاهب الاربعة صلابه . وقد تبناه الترك
واستمر المذهب سائداً في آسيا الوسطى والهند . ويمكن أن نجد
بعض آثاره في تلك الاقطار التي كانت تحت الحكم العثماني كتونس
والجزائر مثلاً . بينما المذهب الشافعي هو مدرسة محمد بن ادریس
الشافعي المولود في بغداد والمتوفى سنة (٨٢٠ م = ٢٠٥ هـ) فقد
كان المذهب الرسمي للخلافة العباسية وعن طريق تجار وبحارة الخليج

الفارسي انتشرت الشافعية الى المناطق الساحلية من المحيط الهندي . ولا يزال هذا المذهب منتشراً عند سواحل الخليج الفارسي وبلاد العرب الجنوبية والهند وبين الجماعات الاسلامية المهمة في جزر الصوادة Sunda . ونفس التأثيرات التجارية حملت المذهب الشافعي الى افريقية الشرقية ، وقد درس المذهب الشافعي بصورة خاصة عند علماء العربية في هولادة سيدة جزر الهند الشرقية الى وقت قريب . وبعض آثار هذا المذهب يمكن أن نجدها في مصر السفلى . أما المالكية فقد أسسها في المدينة الامام مالك بن انس (توفي ٧٩٥ م = ١٧٩ هـ) وانتشرت وسادت في المغرب (تونس ، الجزائر ، مراکش) و افريقية الوسطى ، وكانت موضوع دراسات مهمة لدى المدرسة الفرنسية . أما المذهب الحنبلي فأسسه محمد بن حنبل (توفي ٨٥٥ م = ٢٤١ هـ) فليس له الا اتباع قلائل في قلب الجزيرة العربية وعلى سواحل الخليج الفارسي وهو أصلب للمذاهب السنية . ويبدو في البلاد السعودية الحديثة ان الحنبلية أخذت بالاختلاط بالوهابية .

ان مجموع القواعد الناتجة عن هذا المجهود الكبير في الدراسات الدينية والتفكير فيها ، هو الذي يكون الفقه الاسلامي ، وقد كون الفقهاء في الدولة الاسلامية هيئة معبرة عرفت في بعض الاوقات العصيبة كيف تهيج العامة . ان الفقه هو بالجملة المعرفة المنهجية للشريعة المحتواة في القرآن والسنة ، تلك المعرفة التي يوضحها ويتأزر معها الرأي المنطقي . ويمكن الفقه ان يتابع المزاج الشخصي للفقيه ، فيميل نحو التأويلات الشخصية ، أو نحو السنة المتواترة .

وأقدم بحث شرعي معروف لنا اليوم هو موطأ مالك بن أنس . وفي سوربة أسس الاوزاعي (+ ٧٧٤ م = ١٥٨ هـ) مدرسة

للفقه لم يردنا عنها أي أثر مكتوب ، لكن سلطتها التي انتشرت اذذاك استطاعت ان تسود الاندلس الاموية وثبتت أقدامها فيها . وبعد أبي حنيفة جاء قاضي هرون الرشيد أبو يوسف ومؤلف كتاب الخراج الذي لا نستطيع في مجالنا هذا أن نتطرق الى موضوعه .

لكن التطبيقات الشرعية التي ، كما سنؤكدها مرة أخرى ، كان عليها ان تخضع لحاجات التقاليد المحلية ، شجعت التخصص في الدراسات التي ابتعدت عن الاصول كثيراً ، وضلت في الفروع . لذا كان هناك انجاء الى رد الكتب القديمة المطولة الى كتب مدرسية موجزة زودت القضاة بمجموعة من القوانين استطاعوا ان يستجوا على منوال اسلوبها ما تقدموا به من احكام . وكان للملكية المختصر لـ « سيدي » خليل (توفي ١٣٦٥ م = ٧٦٧ هـ) مع شروح كثيرة عليه (الخرشبي ، الدسوقي ، الخ . . .) . اما كتاب الشافعية فهو منهاج الطالبين للنووي (توفي ١٢٧٨ م = ٦٧٧ هـ) مع شروح عليه كثيرة مثل تحفة ابن حجر ونهاية الرملي ، ومن بين الكتب المنتشرة عند الحنفية يمكننا ان نذكر جامع الرموز للخراساني وكثر الدقائق للنسفي .

هذه الكتب العملية على اية حال لا تعبر اهمية للتقاليد المحلية من (عادة وعرف وعمل) ، الا ان هذه اوجدت لها طريقا ليس في الحياة القضائية الاعتيادية التي لا تترك اثاراً مكتوبة فحسب ، بل وكذلك شقت لها طريقا في كثير من الاعمال والاحكام المعتادة للقضاة وقد بدأ جمع وطبع هذه الاثار شيئاً فشيئاً .

هكذا نجد الشريعة نفسها محتواة في كتلة من الكتب والوثائق تكون معرفتها ما يدعي بالفقه ، والفقه يحتوي على قواعد العبادات

والمعاملات وهي خاصة بالعلاقات العائلية والاجتماعية والعقوبات .
ولست كل هذه التنظيمات متساوية في القيمة وهي مقسمة في عدة
أحكام شرعية وهي أولا : فرض أو واجب ويثاب على اداؤها ويعاقب
على تركها ، وقد ميز بين الواجب الفردي او فرض العين كالصلاة
مثلا وبين الواجب الجمعي او فرض الكفاية الذي يستطيع الفرد التملص
منه اذا انجزه الغير بصورة وافية كالجهاد ، ثانيا : ما هو منصوح
به او كما يسمى بالمندوب او المستحب وانجازه يجلب الثواب ولا يعاقب
اياه العقاب ، ثالثا : ما هو مباح او حلال وهذا لا يثاب ولا يعاقب
عليه ، واخيرا : ما هو حرام وهو امر معاقب على ارتكابه (١)

المصادر

Joynboll des isl. Gesetzes; Goldziher, loi et dogme;
Muhammedanische Studien II. hadith; Buhl, Koran
Schacht, Sharia.

(١) يميز الحنفية وحدهم فقط بين الفرض والواجب ويجعلون منهما حكمتين .
كذلك هناك حكم آخر لم يشر اليه المؤلف وهو المكروه الذي طلب الشارع الكف
عنه من دون اشتراط بوقوع العقوبة على فاعله .

الفصل السادس

الفرائض

شهادة الإجماع . الصورة : المساجد ، العتبات الخاصة .
الحج : العمرة والحج ، الكعبة والطواف ، السعى ، عرفات
ومنى ، المدينة وقبر الرسول . الصيام . الزكاة .



تكلف الشريعة الإسلامية المؤمن بعدد قليل من الشعائر الواجبة
تؤلف أركان الدين ، وهي الشهادة والصلاة والصوم والحج والزكاة
ويحل بعض المؤلفين محل الشهادة إما الطهارة وأما الجهاد .
الشهادة هي في الواقع مظهر طبيعي للإسلام أكثر من أن تكون
الزاماً دينياً ؛ والشهادة جزء من الإيمان كما أنها عمل في نفس الوقت .
وهي أثر يدل على الإيمان ويعبر عنها بعبارتين هما : أشهد أن لا إله إلا
الله وأن محمداً رسول الله . وبمجرد قول هاتين العبارتين معناه الاعتراف
بالإسلام . والعقيدة الإسلامية تعلن أن الإسلام يمكن أن يضمن على
كل من يؤدي للشهادة ويطلب الذين على وشك الموت أن يؤديوا
هذه الشهادة : وكذلك يفترض في المجاهد أن تكون عبارتا الشهادة

على تحريمه في لحظات استشهاده . كما ان الشهادة عنصر أساسي في الصلاة
« التمهيد » .

تعتبر الصلاة اليومية كعنصر أساسي في عبادة المسلم ، وهي
مجموعة من الشعائر والحركات والكلمات قررتها الشريعة . وأداء
فريضة الصلاة لا يستدعي حضور المصلي في المسجد ما خلا صلاة
الظهر في يوم الجمعة . وينصح بهذا الحضور لتقليل احتمال ارتكاب
الخطأ في الصلاة المنفردة في حين ان وجود المصلي مع الجماعة يجعل
صلاته غير معرضة للخطأ . والصلاة هي الفريضة الرئيسية للمسلم ،
وحيثما يراد التعبير عن حقيقة ان الشخص غير مسلم أو انه تحول عن
الاسلام يقال انه تارك الصلاة .

كانت الصلاة تقام في بداية الدعوة عند شروق الشمس وغروبها
فقط ؛ وتؤكد السنة انه يجب ألا تقام الصلاة عند الشروق والغروب
تماماً وذلك للقضاء على ذكرى عبادة قديمة للشمس . لكن عدد الصلوات
اليومية قد حدد بخمس صلوات : وتقام عند أوقات محصورة بين
لحظتين تحددهما وقائع فلكية . فصلاة الصبح تقام بين اللحظة التي
فيها الضياء لأول مرة بعد الظلام - الفجر الحقيقي - وبين لحظة
شروق الشمس ؛ ولا قيمة لصلاة الصبح اذا أقيمت بعد الشروق
مباشرة (١) . أما وقت الظهر فتقام الصلاة عندما يكون ظل الشخص
الواقف على أقله وحين يأخذ هذا الظل بالازدياد ويحصل هذا (بعد
منتصف النهار تماماً) وبين اللحظة التي يكون فيها ظل الشخص الواقف
مساوياً لطوله الطبيعي مضافاً إليه أقل ظل له ؛ لكن الواقع ان الصلاة

(١) - يسمي المذهب الجعفري بان تقضى الصلاة ولو كانت بعد اوقاتها بأوقات
قصيرة عند الحالات الانضطرابية .

تحصل بعد منتصف النهار مباشرة . اما العصر فتقام بين اللحظة الاخيرة من صلاة الظهر وبين لحظة غروب الشمس ، وفي الواقع بين الثالثة والخامسة بعد الظهر (١) ، وتختلف اقامة الصلاة في هذه الفترة المذكورة بحسب الفصول وبحسب العادات المحلية . بينما تقام صلاة المغرب بين غروب الشمس وبين اختفاء آخر أشعة للشمس تضيء الافق . وأية من هاتين الصلاتين الأخيرتين يجب ألا تقام في لحظة الغروب ذاتها . اما وقت العشاء فيمتد من نهاية المغرب الى بداية وقت الصبح ، وهذا معناه أنه يمكن أن تحدث صلاة العشاء في أية ساعة من ساعات الليل : لكن في الواقع تقام عند المساء في بداية اشتداد الظلام :

والعابد باقامته للصلاة يزداد قربا من الله وهذه الواقعة تضيف على شخصه صفة قدسية وعتية : وعليه أن يعد نفسه لهذا العمل بالخضوع لشروط خاصة تتصل بطهارته الشخصية وطهارة ما يحيط به . وسنقدم بعض الاشارات الخاصة بالمكان الصحيح لاقامة الصلاة فيما بعد . ويلزم العابد أن يمثل في شخصه الطهارة الشرعية : أي أن يكون بعيداً عن أي حدث [نجاسة] كبير أو صغير . أما التماس الجفسي وهو الحدث الاكبر (الجنابة) فيمكن ازالته بالغسل ؛ بينما الحدث الاصغر الناتج عن تلبية الحوافز الطبيعية من نوم أو اتصال بسيط بالجففس الآخر .. الخ فيمكن ازالته باتباع شعيرة معينة هي الوضوء وهو ما يقوم به المسلمون عادة قبل الصلاة . اما في ساحة المسجد نفسه أو في مرافقه . يغسل المؤمن عند الوضوء وجهه وكفيه ثم

(١) حسب التوقيت الاوروبي .

يديده حتى المرفق بماء طاهر شرعياً ، ثم يمر بيمنناه المبللة على رأسه ثم يفصل قدميه (١) بنفس "طريقة" وبجانب هذا يجب ألا يقترب العابد من الله في لباس مدي أو ملوث بالبراز أو بأية نجاسات أخرى كالإصباغ أو المخاط ... الخ ، كما تبطل الصلاة إذا تلوث المصلي أثناءها بأية نجاسة من النجاسات المذكورة .

وفي حالة الطهارة الشرعية (٢) يمكن للمؤمن أن يلبس داعي الأذان ، وهو الذي ينادى به في المدن من أعالي المنائر مؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة ، ويعلن أن وقتها قد أزف فيقول :

« الله أكبر » أربع مرات « أشهد ألا اله إلا الله » مرتان « وأشهد أن محمداً رسول الله » مرتان « حي على الصلاة » مرتان « حي على الفلاح » مرتان « لا اله إلا الله » . أما في خارج المدن فيلزم المؤمن أن يكون مؤذن نفسه .

أما إذا لم يذهب المصلي إلى المسجد حيث يلزمه أن يتوأم مع نظام المبني وأوضاع الامام ، فعليه أن يقيم لنفسه محراباً خاصاً فيأخذ محله ويقف موجهاً وجهه شطر مكة حيث الكعبة مركز الانجذاب ، وقبلة العالم الاسلامي . وفي بداية عهد الرسول في المدينة نصح الرسول أتباعه بصورة فطرية أو لحكمة سياسية بتفادي اليهود والاتجاه في الصلاة نحو بيت المقدس ؛ لكن بعد تغيير سياسته اتخذ قبلته بيت الله الذي يقوم في وسط المسجد الموجود في المدينة

(١) اعتاد الحنفية أن يمسحوا أقدامهم بأكفهم المبللة حسب إحدى قراءتين

للسنن القرآني الخاص بهذا المجال .

(٢) أي في حالة ألؤوض .

الحرام : وهناك مسجد صغير في المدينة يحتفظ بذكرى هذا التحول يدعى بجامع القبلتين . اما اتجاه القبلة فيحدده في المدن موضع المسجد بينما يحدد اتجاهها في الأماكن الأخرى ملاحظات وآراء رجال الدين .

وحينا يقرر المصلي اتجاهه بحسب القبلة يلزمه أن يتأكد من طهارة البقعة حوله ليتيسر له أن يقيم صلاته دون أن يشوبها أي بطلان . ويعين المصلي البقعة المقدسة التي يتخذها للصلاة اما بإشارة يخطها برمحه كما تقول بعض المصادر القديمة أو بوضع شيء منظور ليكون موضع جبهته عند السجود . واذا اخترق هذه البقعة انسان أو حيوان أثناء الصلاة عدت باطلة .

وحين يقف المصلي متجهاً نحو مكة يعيد إقامة الصلاة وينوي نية إقامتها صامتاً أو بصوت خفيض ذا كراً وقت الصلاة مثلاً : نويت أن أصلي صلاة الصبح ، أو الظهر ، وهذه النية ضرورية لكي تكون الصلاة صحيحة ، وهناك تأكيد أساسي على خطورة هذا العنصر من الإرادة الشاعرة في أية فريضة من فرائض الاسلام .

بعدها يرفع المصلي يديه الى مستوى كتفيه ويلفظ التكبير ، أي صيغة الله اكبر « أي أكبر من كل الكائنات الأخرى » وهذا الصيغة التي تستعمل في كثير من الأحوال تتخذ هنا أهمية خاصة لأنها تشير الى بداية عهد مقدس يخلص فيه المؤمن نفسه بصورة تامة لأداء الصلاة ويصبح ذا صلة بالالوهية . ومن لحظة بدء الصلاة ينقطع المصلي عن أية من الشؤون الأرضية ، وكل كلمة أو إيماء خارج موضوع الصلاة تبطل قيمتها لأن ذلك يقطع انجاء المصلي

بأنه . وقد عرف الفقهاء المسلمون بدقة هذه الصيغة ودعوها
بتكبيرة الاحرام « أي تلاوة التكبيرة الخاصة بالتقديس » .

يقرأ المصلي الفاتحة ؛ أول سور القرآن ، واضعاً كفه اليسرى
في الجنب وهو واقف (١) ثم يركع مكرراً تكبيراً آخر واضعاً راحتي
كفيه على ركبتيه بخشوع ، ثم يعتدل واقفاً كما كان ، ثم يتخذ
وضعا آخر يمثل أعظم استسلام بين يدي الله وهو السجود . هذا
أنم مراحل الصلاة ويظهر انه يقابل عند المسيحيين أداء القداس .
وبعدئذ يضع المصلي ركبتيه على الارض ويد يديه ويلبس بمجبهته
الارض عدأصل الانف . ثم يرفع بدنه لكنه يبقى في وضع الجلوس
على الركبتين باسطة ذراعيه على ظاهر فخذه . وبعدئذ يسجد ثانية
كما في المرة الاولى ويسبق كل سجدة ويلحظها تكبير .

كل هذه الاوضاع المتتالية من تلاوة الفاتحة حتى السجدة
الثانية تكون كلا يدعى بالركعة ، وكل صلاة من صلوات اليوم
تنتظم عدداً من الركعات المفروضة . وتتكون صلوات الظهر والعصر
والعشاء ، وهذه جميعا تطول مدتها ، كل منها من اربع ركعات ،
أما صلوات الصبح والمغرب فتختصران بسبب ضرورة نحاشي أي
امتزاج مع لحظتي الشروق والغروب ، وللصبح ركعتان والمغرب
ثلاث . ونختتم كل ركعتين بالشهادتين مراعاة للسنة .

وعند نهاية آخر ركعة بعد السجدة الثانية يتخذ المصلي وضع
الجلوس : ثم يعيد فرض الشهادة ثم الصلاة على الرسول . ثم يحول
المصلي رأسه جهة كتفه الايمن ، ثم جهة كتفه اليسرى ويقول :

(١) أو مسبلاً يديه الى جانبيه كما عند الشيعة.

صيغة التسليم والسلام عليكم ورحمة الله . وهذه الصيغة تنهي احرام الصلاة ، وقد بدأت الصلاة كما رأينا بتكبيرة الاحرام ، ولهذا السبب اعطي لصيغة التسليم هذه اسم تسليمية التحليل . واذا كان المصلي في المسجد راغبا في اقامة الواجبات المتتمة فهو يستطيع بين حين وآخر أن يتحدث الى الآخرين او يلي بعض الامور . . الخ لأنه في حالة التحليل .

وهذه الشعائر التي اتينا على وصفها يكملها الثقافة من الناس بتلاوة آيات ودعوات من القرآن ويكون عددها ونوعها معتمدين على الثقافة الدينية للمصلي والمذهب الذي ينتمي اليه . وقد اوصى الرسول بالاضافة الى ذلك بالنوافل وهي من الصلوات الاختيارية الزائدة .

فالصلاة اذن هي عمل ديني فردي يمكن المؤمن أن ينجزه لوحده وحيثما اراد . الا انه يفضل ان تقام الصلاة « جماعة » أي بإمام مسلم ورع عالم بالدين يقف وراءه المصلون في خطوط متوازية ، وينسجون على منواله في حركاته . وهذا الامام المصلي ليست له أية صفة دينية كما ينبغي ان نذكر ، ولم يمر من قبل بأي تلقين خاص ، وليس كأمثلة في المسيحية من القسس . فالامام يحترف في حياته الخاصة أية حرفة يشاء وقد تكون في غاية التواضع ، الا انه يقام اماما لآخوانه في الدين بسبب علمه وتقواه . وينصح المؤمن كذلك بأن عليه ان يجتمع مع الآخرين في المسجد الذي صمم بشكل يبعد اي عامل خطير يبطل الصلاة . وصلاة الجمعة هذه واجب جماعي للمسلمين يؤكّدون به عن طريق حضور فريق منهم في الجامع احتفالهم بالصلوات اليومية .

يلزم المؤمنين مرة في الاسبوع - كل جمعة - وفي ساعة الظهر أن يشاركوا في شعيرة خاصة هي صلاة الجمعة ، تغلق أثناءها الحوانيت في الاسواق وتعلق الحياة الاقتصادية . وينصح بقطيع عام هو الفصل استعداداً لهذه الشعيرة ، ولبس ملابس نظيفة ، وهذه قاعدة يلاحظها أي مسلم ذي آداب دينية ، وهكذا يندفع المسلمون في المدن الى الحمامات صباح الجمعة .

تعتبر الخطبة العنصر الاساسي في هذه الشعيرة ويلقيها امام خاص يدعى بالامام الخطيب ، وهذه الخطبة هي في الواقع مؤلفة من جزأين هما خطبة التعت وخطبة الوعظ ؛ وتحتوي الاولى تمجيداً لله ذا صيغة واحدة غالباً ، في حين تمحوي الثانية مواعظ دينية يمكن الخطيب ان يظهر فيها بلاغته اذا لم يفضل ان يعيد احدي الخطب النموذجية التي جمعت منها - مجموعات خاصة . وصلاة الظهر ذات الركعات الاربعة لا تقام في هذا اليوم او على الاقل نجد انها مؤلفة من ركعتين واجبتين ثابتيان مباشرة بعد الخطبة لكن التقليل المأثور يطالب باداء ركعتين قبل الخطبة .

في الخطبة الاولى يدعو المصلون أن يبارك الله أولي الامر منهم: وهذه العادة القديمة كانت من التطبيقات العمامية المهمة لأنها المظهر الجمعي لاعتراف الامة بحاكمها لا بصفته ولياً مباشراً فحسب بل كذلك لاعترافهم معه - بلطة اعلی ولي هو الخليفة . وفي سنة ١٠٨٣م = ٥٧٩ هـ عند ما شهد ابن جببر الرحالة الاندلسي صلاة الجمعة في مسجد مكة استمطر الخطيب بركات الله على امير مكة ثم على سيده الاعلى السلطان صلاح الدين ، وأخيراً على الخليفة العباسي الذي اعترف صلاح الدين بسيادته عليه والعمل تحت رايته . وقد ساد اسم الخليفة التركي العالم الاسلامي في الخطب ما عدا البلدان التي كان

فيها الحاكم يدعي لقب امير المؤمنين كشريف مراکش . وقد تباينت هذه الشعائر بتباين البلدان منذ سقوط الخلافة ، فوجد في الجزائر وتونس صيغة موحدة للدعاء تنص على ازالة البركة على المجتمع الاسلامي وولاية امره بينما يدعو الوهابيون الى « الامير الملك » ، وفي مصر هناك صيغة عامة يدعى فيها للملك المصري ، بينما لا يزال يدعى في صلوات اهل السودان للخلفاء الراشدين الاربعة .

ان شعيرة صلاة الجمعة يجب ان تقام في حضور ما لا يقل عن اربعين مصليا ، ويحصل ذلك في المدن الكبيرة نسبيا حيث يسمح العدد باجراء المراسم المذكورة . ولا تعدد المساجد التي تقام فيها خطبة الجمعة في غير المدن الكبيرة التي يمكن السكن فيها الاجتماع في اي واحد منها . وتدعى المساجد التي تقام فيها صلوات الجمعة بالجوامع .

ان نشأة المسجد معقدة ، وليس هو محاكاة لبيت الله الذي يتألف اساسا من الكعبة وزمزم ، والذي احاطه الخلفاء بعد ذلك بصحن واسع اقيمت حواء اربعة اروقة ، والمسجد كما تقول الاخبار الاسلامية التي يجب الا نقبلها برمتها ، نشأ عن الساحة التي كانت قبالة بيت الرسول في المدينة ، حيث الف المسلمون الاجتماع للصلاة والاستماع الى الوحي والمراعاة ، وسرعان ما سقف جزء من هذه الساحة لحماية المؤمنين من لفع الشمس وتقلبات الجو . وتأثر المسجد الى حد ما بنماذج الكنائس المسيحية التي اعجب باطرزتها الفاتحون الذين حولوا بعضها منها ليجعلوا منه مساجد لاقامة الصلاة . والمسجد بناء مستطيل الشكل يتكون من صحن ورواق مسقوف ، كان ذا سقف مستو في البنايات القديمة يستند مباشرة الى

اعمدة ذات تيجان مزخرفة بزخارف متنوعة . وظهرت اخيراً العقادات في كثير من اجزاء المسجد . اما بناء المسجد فحدد اتجاهها بمكة ، لأن الكعبة هي قبلة العالم الاسلامي . وجعل المحراب تجويفاً في وسط الضلع القبلي من ظلة القبلة ، وذلك كي يتخذ المصلون جميعاً مواضعهم الصحيحة باتجاه مكة . وقد زخرف المحراب كثيراً او قليلاً بالرخام والفسيفساء وانواع الزخارف بالقاشاني واعتبر التقاء المؤمنون في العصر الاموي زخرفة المحراب بالتماثيل والصور زينة بوصفه رجوعاً وتقليداً لكائنات النصارى .

وتكون الاعمدة في نفس الوقت صفوفاً تمتد من صحن المسجد الى جدار القبلة . وتكون صفوف المصلين عمودية على صفوف الاعمدة وموازية لجدار القبلة . اما ظلة الصلاة في اغلب المساجد ، فتتفتح على الصحن ومنه تستمد النور والهواء اللذين لا يدخلان بصورة مباشرة ، بل عن طريق كوى ضيقة في الجدران الثلاثة للمسجد ، ومن هذه الكوى تنفذ حزم من اشعة النور تتلألأ على زخارف الاعمدة والسجاجيد التي فرشت بها الارض ؛ وفي النباتات الجميلة تكون الجدران من الخارج عارية في حين انها من الداخل حيث تطل على رواق الصلاة مزينة بألواح الرخام والفسيفساء وقطع الخزف والقاشاني . والسقوف مستوية ومغطاة بالرصاص او معقودة او مؤلفة من عقادات مفروشة بالرصاص او بالقاشاني الاخضر . ويحاط الصحن باروقة ضيقة حيث يميل المصلون الى الجلوس فيها . وفي الصحن تفتح البوابة الرئيسية عادة تحت المنارة او بجانبها ، ويتكون المدخل المباشر من الخارج الى ظلة الصلاة من بابين متواجهين .

إن ظلة القبلة التي تمتد من المصحن الى المحراب تكون عادة أعرض من المجنبات الثانوية الأخرى وإن كانت بنفس عرض الظلة المقابلة التي تكون في الطرف الآخر من المسجد . وتمثل هاتان الظلتان مربعاً أو مستطيلاً يكون معقوداً في الغالب ومزخرفاً . أما الأرض فمفروشة بأجود الحصر والسجاجيد . بينما الكوى السقفية التي ينفذ منها الضوء تمثل في بعض الأحيان أجمل النماذج التي تقدم بها الصنفارون القدماء . ويقف الامام « على رأس » المؤمنين ليؤمهم في الصلاة يحيط به أبرز الشخصيات المقيمة في الحلي وما جاوره من أنحاء المدينة .

يرأس الخليفة بشخصه او عن طريق من ينوب عنه صلاة يوم الجمعة . وقد هجر الخليفة عادة الوقوف وسط المصلين في صدر الاسلام (١) . واتخذ الى جانب حماية الحرس له مقصورة مقفلة من الخشب ابدع الفنانون المسلمون في تصميمها ونزيعها . كما سمح للنساء بالحضور الى المساجد حيث أقيمت مقصورات مشابهة خاصة بهن ، وذلك في حالة عدم وجود أروقة لهن . وأقيمت مقصورة الأمير قبالة المحراب في فضاء يدخل اليه من باب خاص يتصل بقصره إما مباشرة او عن طريق ممر طويل .

ويقع المنبر الى يمين المحراب ، وهو منصة قد تصنع من الخشب يرقى اليها بدرجات كما هو الحال في منبر الكعبة القديم . وما زالت آثار جميلة للمنابر القرون الممتدة بين (١٢ - ١٤ م = ٦ - ٨ هـ) باقية الى اليوم . وهذه المنابر المتحركة كانت تنقل في اثناء الاسبوع الى

(١) وذلك منذ العصر الاموي .

جهة جدار الكعبة وتوضع في مكان إقامة صلاة الجمعة . وكانت هناك منابر خشبية ثابتة ايضا ، وقد توجد اخرى من الحجر او الرخام كما نجد اليوم في الشرق . اتخذ الرسول منبرا ذا ثلاث درجات ، اما في العهد الأموي ففقد المنبر سلما ذا تسع درجات جعلت اوطاها على شكل قوس . ولا يرقى المنبر سوى الامام الذي عين لالقاء الخطبة إما ايام الجمعة او ايام الصيام . واقامت في المساجد الهامة منصة خشبية ثابتة في احدى الحنايا المجاورة للمحراب . وهناك يتخذ الخرابون مواضعهم لتلاوة القرآن في المناسبات التي يتلى فيها القرآن كله بسرعة ، فيتلو كل حزب حزبا معيناً منه .

ينفتح المدخل الامامي لظلة الصلاة على صحن المسجد المبلط عادة بالاجر المزخرف . وفي بعض الاحيان تغرس في الصحن اشجار ونباتات اخرى تضيئ جمالاً آخر على زخرفة البناء . ويقام وسط الصحن حوض وفوارة للمياه . كما يحاط الصحن غالباً من جوانبه الثلاث الخارجية عن ظلة الصلاة برواق او اكثر مفتوح من الداخل ومحاط من الخارج بجدار المسجد . وتؤلف الابواب الجانبية في كثير من الحالات مدخلا مباشرا الى ظلة الصلاة . لكن المدخل الرئيسي هو الذي يؤدي الى الصحن عادة وتلك الابواب التي تصنع من الخشب المحفور والمغطاة غالباً بقطع من النحاس المشغول بالمزخرف تؤدي اليها دهايز مزينة بالجبس او القاشاني الأخضر . وتحوي المساجد المهمة قرب الابواب ، صرافق ودورات مياه ذات ماء جار وأخرى للوضوء .

يعلو المسجد برج هو المنارة (او المأذنة او الصومعة) يعلوها سطح يقف عليه المؤذن لالقاء الاذان على المدينة في اوقات الصلوات

اليومية الخمسة . بينما نجد في المساجد الكبرى عدة منائر تكون في زوايا البناء عادة . اما شكل المنائر وزخرفتها والمواد التي تصنع منها كالآجر والحجر فتختلف حسب الموارد الطبيعية للبلد وتقاليده . ففي سورية ومصر والمغرب ، كانت المنائر ابراجا مضلعة تحوي غرافاً يمكن استعمالها كبلاجى . اما في فارس وتركيا ، فالمنائر اسطوانية الشكل لا تحوي سوى السلم الذي يرقى بواسطته الى غرفة المؤذن . وهذان الشكلان بالاضافة الى الشكل الثماني اختلفت جميعا في بعض المنائر الشرقية ذات القواعد المربعة التي يقوم عليها شكل ثماني ينتهي بشكل اسطواني . وتكون قمة المنارة في الشرق ذات شكل مختلف في حين يتوجها في المغرب مصباح تعلوه كرة معدنية صفراء .

يلحق بالمسجد غالبا غرفة يوضع فيها الموتى هي بيت الجنائز وتكون قرب المحراب . ان المسجد هو البناية المركزية للحياة الاسلامية . فحين يأزف وقت الصلاة ، يجتمع عدد من المصلين هناك ، لأنهم يجردون فيه الشرائط الملائمة لتنطهر الشرعي والارشاد الصحيح والطمأنينة التي تضمن صحة الصلاة . وقد ألقى الاساتذة ومازالوا دروسهم بين جدران المساجد . كما اعتاد القضاء قديما أن يقابلوا فيها قاصديهم . وتكون المساجد بالنسبة للمسافر محل اجتماع ومثابة سكن أحيانا .

لم تكن الدولة تشرف على المساجد كما لم تشرف عليها الهيئات الرسمية . وحينما يؤسس حاكم أو شخص ثري مسجداً يرى انه يصحبه هذا العمل دائماً تخصيص أوقاف عليه . ان الأوقاف تدعى في المغرب بالحبس (جمعها حبوس بضم الحاء وينطقها المغاربة بالفتح) ، وهي

موارد لاصلاح وإدارة بناء المسجد والصرف على رواتب القائمين على خدمته . وقد بدد نظار المساجد هذه الاوقاف عادة مما دعا الشخصيات البارزة الراغبة في كسب رضى الله والاشتهار بالكرم الى تجديد هذه الاوقاف وإلا فسيحل الخراب بالمسجد . وناظر الوقف بيده تجهيز ما يحتاج اليه المسجد وتعيين صغار موظفيه : كالبوابين والكناسين ومنظفي القناديل .. الخ ، ويعين رئيس الدولة أو من ينوب عنه الامام الخطيب في الجوامع كما يعين بقية الائمة والمؤذنين . وكان الرسول في الحقيقة أول امام وأول خطيب للجماعة الاسلامية ، واحتفظ خلفاؤه من بعده بعادة القيام بالقاء خطبة الجمعة في الجوامع الكبيرة في المدينة ودمشق وبغداد . كما أنابوا عنهم في هذا العمل كما امرنا من قبل حكام الاقاليم الذي أنابوا عنهم بدورهم الشخصيات البارزة . وقد احتذى هذا المثل الحكام الصغار المستقلون جزئيا او كليا الذين استأثروا بحكم الولايات التي انفصلت عن جسم الدولة شيئا فشيئا . وانتخب أئمة الجوامع الصغرى من جانب الحكام والقضاة أو أئمة الجوامع الكبرى وغيرهم بوصفهم ممثلين لسلطة عامة وقصوى هي سلطة الخليفة أو السلطان . وجرت العادة بأن يكون للمؤذن صوت رخيم وان يكون كفيفا اذا امكن لاسميا وان العمى منتشر كثيرا في الاقطار الاسلامية المترتبة : احتراسا من أن يقع بصر المؤذن على شرفات المنازل حيث تجتمع الفساة عادة .

ولما كانت الصلاة من الفرائض الاساسية في الدين الاسلامي وجدناها تقام عادة حين تطلب رعاية الله لدره خطر واقع أو ينذر بالوقوع .

ان اختفاء القمر أو الشمس كنتيجة للخسوف أو الكسوف

يؤدي الى اقامة « صلوات الخسوف او الكسوف » وهذه لا تختلف عن صلاة الجمعة الا من حيث عبارات الخطبة .

ان المطر في كل مكان ضروري لحياة الطبيعة لاسيما في الاراضي التي شهدت مولد الاسلام وانتشاره . وقد نظم الاسلام صلاة الاستسقاء التي لها شبيه في الديانة المسيحية ، وهذه الصلاة حلت محل طقوس قديمة محلية اقيمت لنفس الغرض . لكن المراسم الاسلامية في هذا الصدد بعكس المسيحية لم تحتفظ بالصور الشعرية للعادات القديمة ، فهي تتكون من مجرد صلاة تماثل صلاة الجمعة ، لكن يسبقها ثلاثة ايام من الصيام واقامة بعض شعائر دينية معينة ، وينصب على قمة منارة المسجد لوح خشبي سجلت عليه آيات من الذكر تتعلق بمناسبة الاستسقاء . وفي نهاية الخطبة يخلع المصلون ثيابهم ويقلبونها ظهراً لبطن ويرتدونها بعد ان يجعلوا عاليها سافلها . وهذا طقس قديم حشر ضمن الشعائر الرسمية . ويقوم العامة في هذه المناسبة بنوع من حركات السحر الانجذابي أي التي تدعو المطر لانزول بعرض شيء من الماء ، او ترى بكائنات حيصة او احجار في مجاري المياه ، وتترك الابقار في هذا الحفل بصفتها ممثلة على وجه الارض للغيوم الماطرة . ويمارس العامة هذه الطقوس بشكل يخرج عن أي تدخل ديني بالمعنى الصحيح للدين .

أما الحج فنظام يتصف بطرافة خاصة في الدين الاسلامي أولاً لأنه احياء لطقوس قديمة ، وتوفيق بينها ، تلك الطقوس التي سادت في ارجاء الشرف السامي ، وثانياً لانه اجتماع عام في حشد سنوي ضخيم يشمل عشرات كثيرة من آلاف المؤمنين من شتى انحاء العالم ، والحج بهذا يعتبر الرابطة الحقة الوحيدة التي توحد

بين مختلف الجماعات الاسلامية ، والفرصة الوحيدة أيضا لاجتماع
وحدة بين الافطار الاسلامية في جامعة اسلامية . وقد أدت العواهل
الجغرافية الى جعل مكة منعزلة حتى مع تقدم المواصلات في القرن
العشرين ، ومناخها لم يعج لها ببسر ان تكون مركزاً حيوا لحياة
عقلية . ولكن المدينة التي قدر لها ان تحتوي على بيت الله غدت على
الرغم من ذلك مركزاً عظيماً يجذب الناس اليه . وسنبين فيما يأتي
المراسيم التي تجري في مكة .

ميزت التقاليد المكية بدقة بين نوعين من المراسيم ، تلك التي
تجري حول الكعبة وما لاصقة بها من الامكنة وهي العمرة ، وتلك
التي يكون مسرحها اماكن تقرب من مكة هي عرفة ، ومزدلفة
ومنى ، وهذا هو الحج ، والعمرة تتصل بقريش وحدها ، وتنحصر
في نطاق مكة فقط ، اما الحج فيتصل بالحجاز بأكمله . ولا تذكر
السور المكية أي شيء عن الحج بالمرّة ، لكن حتى اوائل السور
المكية هذه تعترف لنا باجلال الرسول للكعبة حامية قريش
وقوافلها وثرواتها . وليس هناك من سبب يجعلنا نشك بأن
مهداً صلى لربه امام الكعبة . ومن الثابت انه خلال آخر فترة من
اقامته في مكة ولى وجهه شطر بيت المقدس ؛ ولكنه لم يلبث الا
قليلاً حتى ولى وجهه شطر الكعبة ثانية ، وادخلها في نفس الوقت
ضمن المأثورات الابراهيمية معتقداً بأن ذلك سيجذب اليهود
والنصارى حتماً ؛ هكذا فاضت زمزم لتطفي ظمأ هاجر
واسماعيل الذي الذي ساعد اياه ابراهيم في بناء الكعبة بيت الله
الحق . وخطط الرسول الجديدة بعد البعث اتصفت بذكرىات شبابه

الخاصة باعادة مجد مكة القديم اليها كأرض مقدسة ، وبوصف مجد زعيما لجماعة كبرت ونضجتم بانضمام القبائل البدوية اليها بالتدريج نرى ان القرآن لاثم بين مراسيم الحج وبين قصة التوراة وادخل في ذلك فداء ابراهيم . وفرضت السور المدنية في القرآن الحج كفريضة على جميع المسلمين ، ولما كان الرسول يشاق الى ان يدخل بوسائل سامية الى مسقط رأسه كزعيم ، فانه فاوض القرشيين ذاكراً في مفاوضات العمرة والحج ليقتنعهم بأن يسمحوا له بالدخول بحرية على رأس جماعته المؤمنة ؛ وفي السنة التي عقت محاولة الحديبية غير المثمرة ، قام الرسول بالعمرة الى مكة الخالية من السكان (١) واخيراً عام ٦٣٠ م (٥٨ هـ) بعد فتح مكة قام الرسول بعمرة وبحج نقول الاخبار اننا نجد فيها القواعد التي تطور وفقها الحج الاسلامي بشكله النهائي ، وهما مزيج من شعيرتين قديمتين الف بينهما الفقهاء وجعلوا منها اعم فريضة في الاسلام .

ان العمرة ، اي الشعائر التي تقام في مكة حول الكعبة ، ادخلت اذن ضمن مجموعة الشعائر التي تكون الحج عند المسلمين . لكن في سنة ١١٨٤ م (٥٨٠ هـ) كانت مكة لا تزال تحتفل بجميع سكانها من المكيين فقط بأول شهر رجب وهو عيد العمرة الذي تستقل به مكة وحدها . الا انه على اية حال جاهد العلماء لاقفاء هذا العيد بوصفه شعيرة خاصة بمكة واعتبروه مجرد عمل نافلة ، تمكن اقامته في اي وقت خلال العام ، عدا شهري الحج ذي القعدة وذو الحجة أو الشهر الذي يزور فيه القادمون الى مكة بيت الله وما جاوره من اماكن مقدسة .

(١) لان صالح الحديبية نس على ان يخلي القرشيون مكة مدة زيارة المسلمين لها

ولعل وصفاً موجزا اللامكان المقدسة يسهل لنا عرض الطقوس الخاصة بهذه القرية المزدوجة « الحج والعمرة » التي امتزجت شعائرها فأصبحت بمجموعها الحج لدى المسلمين ، وسنتابع المسلم في حجة منذ ابتداء سفره حتى رجوعه الى عائلته .

في منطقته وعرة لوحتها الشمس يمتد واد بين الجبال الحجر المجردة عن اي شجر او عشب ، وحين تنفجر الرعود التي تذكر بالطوفانات القديمة ، تكتسح الوادي لمدة ساعات سيول من المياه الغاضبة التي تجري وتدمر التربة التي لا تستطيع امتصاصها . لكن هنا وهناك شقوقا على سطح الارض الصلب ، تجد المياه لنفسها منافذ فيها ، وهكذا تتكون آبار تحت الارض تغذي الجداول القليلة الدائمة التي يحويها الوادي . وتعتبر زمزم اغزر هذه الآبار واكثرها غنى على الرغم من تركيبها الكيميائي الصلب : وحول زمزم وعلى الطريق الممتدة بمحاذاة البحر الاحمر من سورية الى اليمن بنى الناس مكة ، وحاولت الاخبار الاسلامية أن تصل بين ذكرى ابراهيم وبين كل التاريخ الديني للحجاز ، فأظهرت هاجر وقد نبذت هي واسماعيل في الصحراء ، تعدو من تل الى تل تطلب العون ، وهنا ينبري الملك جبريل فيفجر لها ينبوعا من التربة المجاورة للطفل الذي غدا الجمد الاعلى لسكان بلاد العرب الوسطى ، وذكرت نفس هذه الاخبار ان ابراهيم جاء الى زمزم وأعاد بناء الكعبة بيت الله بمعاونة اسماعيل على نفس الموضع الذي أرادته المشيئة الالهية منذ الازل ، وبنى آدم على هذا الموضع كذلك الكعبة ، ولكن جاء الطوفان فابتلعها ودمرها .

إن الكعبة بشكل مربع يحيطه جدار صخري سقف منذ زمن

بهيد بسعف النخيل ، ثم احيط بسطح منحدر قامى كما تقول الاخبار
 الاسلامية من كفر قريش التى ملائته بأصنامها حتى حطمها الرسول ،
 وجعل البيت غالباً بملاؤه اله غير مرئي وبهيد عن متناول اليد . والكعبة
 اليوم على شكل مكعب ضخم ، مكون من صخر متآكل لتقدم الزمن
 وليس له أي اتجاه واضح ، طوله اثنا عشر متراً وعرضه عشرة
 وارتفاعه ستة . والسطح منحدر كي يصرف مياه الامطار عن طريق
 ميزاب خشبي مغطى بمعدن مذهب تتجه نهايته نحو الجانب الشمالي
 الغربي للبناء . اما جوانبه الاربع فغطاة كاية بفسيفج قطني ممزوج
 بالحجير ، أخضر اللون هو الكسوة التى صنعت في القاهرة على حساب
 الدولة المصرية ، وهذه الكسوة ترسل سنوياً في موكب حافل عند
 اوان الحج ، مع الحمل وهو قبة رمزية يبدو انها تمثل جلالة الملك .
 وعلى ارتفاع ثلثي الكسوة وضع شريط واسع من قماش اسود طرزت
 عليه آيات قرآنية تتعلق بالكعبة : هذا هو حزام الكعبة . والكسوة
 التى تحملها الكعبة كل عام لا تضيع عبثاً : لان بني شيبه وهم عائلة
 قرشية قديمة اخذت على عاتقها الواجب التقليدى الخاص بحراسة بيت
 الله ، تهدي بضع قطع جميلة من هذه الكسوة الى كبار الشخصيات التى
 تدين لها هذه الاسرة بالفضل والحمد على هداياها ، كما تمارس هذه
 العائلة تجارة رابحة ببيع القطع المتبقية من الكسوة والتى تباع في الحوانيت
 الصغيرة المحيطة بالمسجد الحرام .

وضع الحجر الاسود في الجدار من الزاوية الجنوبية الشرقية
 من الكعبة ، على ارتفاع مترو نصف من مستوى الارض الحالي : وهو
 قطعة من الجرانيت الاملى تهشمت اما بسبب القرامطة الذين اقلوا
 الحجر الى الاحساء ، أو كنتيجة لحادثة محالية . وضمت قطع الاحجار

الى بعضها ، واحيط الجرم كله (وقطره اربعون سنتمرا) باطار فضي عرضه عشرة سنتمترات .

الى يمين الركن الذي وضع فيه الحجر الاسود ، وفي بداية جانب الكعبة الذي ينتهي باتجاهه الشمالي بركن العراق ، يوجد باب للبيت يرتفع مترين عن الارض الخارجية ، ويرقى اليه بسلم خشبي متحرك ذي اربع درجات ، وتفتح الكعبة للمؤمنين في اوقات معينة من السنة ، لكن بنى شعبة بمنحون حق الدخول للاشخاص الاسخياء في أي وقت شاءوا ؛ وتعتبر أيام الدخول العامة الى الكعبة أيضا أيام بركة لهذه الاسرة الضخمة العدد لانهم يبيعون فيها حق اقامة الصلاة على البقعة التي صلى عليها الرسول ، وللمشاركة في كنس وغسل البيت ، وحمل الماء من زمزم لغرض الغسل وغير ذلك من الاعمال . ويصرف هذا الماء بواسطة مجرى وضع الى يمين الباب خارج الجدار . وهو محل شغله في القديم مقام ابراهيم .

ونمة حجر مقدس سحيق في القدم تشير اليه الاخبار الاسلامية على أنه الحجر الذي تسلفه ابراهيم حين وضع الطبقات العليا من الكعبة ، ومنه دعا الاجيال القادمة الى « الحج » ؛ وما زالت آثار أقدامه بادية عليه . « والمقام » هذا يقع اليوم على بعد قليل من جدار الكعبة ، داخل قبة من الحجر والمعدن على شكل خيمة ؛ ويأتي الناس للمس وتقيل الجدران الخارجية للمقام .

إن كلا من الحجر الاسود والباب المقدسة والمقام تفضي على هذه الواجهة من الكعبة قدسية خاصة . وفي مقابل هذه الواجهة ترتفع قبة زمزم ورواق بنى شعبة .

ويمتد بين الركن العراقي والركن الشامي ، بناء ملحق بالكعبة ،

يحيطه جدار شبه دائري يترك ممراً مفتوحاً أمام الركنين الآخرين للمسجد . وهذا هو « الحجر » الذي تروي الاخبار انه موضع قبور هاجر واسماعيل وأنياء عديدين ، وحيث يقال ان ماشية هاجر كانت توضع فيه : وتضيف الاخبار ان الحجر كان فيما مضى جزءاً من الكعبة ، لذلك اعتبرت البقعة التي يحويها مساوية في القدسية التي للبيت الحرام نفسه .

وطى الواجهة التي بين الركن الشامي والركن اليمني ، يوجد الركن الرابع للكعبة في موضع مناظر لموضع الحجر الاسود وباب المسجد ، وتحفظ الاخبار بذلك حجرة مقدس ثان وبآثار باب آخر ، بني في نفس الوقت الذي جدد فيه بناء الكعبة عبدالله بن الزبير ، وسوره الحجاج ثانياً .

أحيطت الكعبة بطريق مقوس مبلط بالحجر وهو المطاف وفيه يقوم الحجاج بالطواف . وهو يمتد تحت مستوى ارضية الكعبة وكذلك تحت مستوى فناء المسجد الواسع ، لانه في هذا المستوى كانت السيول التي تندفع من الجبال كثيراً ما تحفر لها مجرى عميقاً في التربة .

وتقوم « قبة زمزم » خارج « المطاف » مقابلة للركن الذي فيه الحجر الاسود ، هذه القبة التي تغطي فوهة البئر العريضة التي يجري في اعماقها الينبوع للقدس . وفي أيام الحج المجيدة ، نجد ان جموع الحجاج تحتشد هنا متلهفة أسوة بالرسول الى رفع المياه المقدسة بالدلاء المعالقة بالحبال التي حفرت من جراء الاحتمكاك طوال القرون حفرأ عميقة في الجدار الصخري . أما أولئك الحجاج السعداء فهم الذين اتيج لهم ان يرفعوا ماء كافيا لبل كل ثيابهم ، فيتغلغل هذا

الماء المقدس الى نفوسهم . ويأتي آخرون ليغمسوا اكفانهم في البئر ثم يحففونها بعدئذ على بلاط الفناء الكبير . ويباع ماء البئر كذلك في جرار من الفخار ، ويبيعها عبارة عن مورد اضافي لخدم زمزم ، وم « الزمزميون » . والحق بالقبة مخزن تخزن فيه الادوات التي تخص المسجد . وهناك سلم يؤدي الى السطح ومنه يعلن مؤذن زمزم قبل غيره اذان الصلاة : وجرت العادة ان يضبط وقت هذا الاذان بملاحظة آلات قديمة استعيرت عنها بمقياس الزمن ضبط وقته حسب وقت غرينتش .

يقوم الى جانب قبة زمزم قوس بوابة بني شيبه الذي يبدو كشاهد على السور القديم للمسجد . وعلى بعد قليل وقريبا من قبة مقام ابراهيم وخارج المطاف ، يشاهد « المنبر » الذي يلقي من فوقه الامام خطبة الجمعة . وهذا المنبر الذي أصبح منذ حكم السلطان العثماني سليمان سنة ١٥٦٠ م ثابتاً لأنه صنع من الحجر والرغام ، كان قبل ذلك من الخشب وصنع على عجالات ؛ وحين الخطبة يدفع الى الخلف حتى جدار الكعبة . كذلك بنيت خارج المطاف ثلاث قباب صغيرة ليستعملها أئمة المذاهب الثلاثة الحنفي والمالكي والحنبلي ؛ أما امام المذهب الشافعي فله امتياز خاص اذ يقيم الصلاة خلف المقام . لقد أحيط المسجد الصغير وملحقاته بصحن واسع ، غطيت تربته بحصى صغيرة تقطعها ممرات مبلطة بالحجارة ؛ وهذا هو صحن المسجد الذي تحده أروقة مسقوفة ذات عدة طبقات من الاقواس ، وشكله وحجمه غير اعتيادين . ومساحة الصحن حوالي (١٠٠) متر في (١٦٠) متراً ، وهو يساري على وجه التقريب مساحة الفناء الداخلي لمتحف اللوفر . وتحوى الاروقة (٢٧) باباً

يعبر باب السلام الباب الرئيسي فيها ، وهو في الشمال الشرقي ، وباب الصفا في الجنوب مقابل ركن الحجر الاسود .

ان هذا الباب يؤدي الى « الصفا » ، وهو تل صغير يكون هو و « المروة » ، الواقع في شمال شرق المسجد ، حدود « المسعى » ، وهو الطريق الذي على الحاج ان يخترقه سبع مرات معجلاً أكثر بين ركني المسجد ، وهذا تقليد لهاجر أو بالاحرى اتباع لطقس في العود قديم . واذا صعد الانسان طريقاً متدرجاً من بضعة درجات فإنه يصل الى قم التلال المقدسة . هذا هو الطريق القديم الذي كان موضع السيل في وقت من الاوقات ، والذي يحاذي المسجد من الجانب الشرقي ، هو اليوم شارع « المسعى » وهو خط طويل تقوم عليه حوائط الخلاطين ، التي يزحها باستمرار الحجاج الذين يقومون بحج « التمتع » . (١)

هناك كثير من الاماكن المقدسة كقبر خديجة أول زوجات الرسول وقبر علي (٢) وغيرهما من القبور ، تجذب اليها الحجاج الذين يستطيعون اطالة أمد بقائهم في مكة ؛ لكن هذه « الزيارات » ليست ذات شعائر وطقوس خاصة .

يزور الحجاج مقبرة مكة ، كما يفعل أهل المدينة وبغداد ودمشق والقاهرة ، حيث يمتقدون انهم يجدون فيها قبور الصحابة وقبور الشخصيات الجليلة ؛ ويحسبون ان الدعوات التي يرفعونها الى الله من أجل الصحابة تجلب للزوار بركة عجيبة عوضاً عن

(١) موف يشرح المؤلف معنى حج التمتع فيما بعد .

(٢) دفن الامام علي في المكان الذي اغتيل فيه وهو الكوفة (التجف اليوم) .

ذلك . وكانت الزيارات الدينية فيما مضى تؤدي لبيت خديجة زوج الرسول الاولى ، ثم الى البيت الذي ولد فيه الرسول ، والبيت الذي اجتمع فيه مع اتباعه والى سكن علي الخ . غير ان الوهابيين خلال غزوم لمكة سنة ١٨٠٣ م زعموا انهم قضوا على هذه الاماكن الوثنية ؛ أما اليوم فان سادة بلاد العرب الوسطى المسلمين ، بمنعون كل اشارة تدل على اي نوع من التقديس الشخصي للرسول وآله . كما انهم وقفوا ضد بعض المادات المتعلقة بجمع المال وأساليب الحصول عليه تعتبر المنطقة المحيطة بمكة ارضا حراما ؛ وقد حددت السنة الاسلامية حدودها بالنقاط التي توقفت عندها الشياطين حين رأت النار التي أوقدها ابراهيم على جبل أبي قبيس ، فوق المدينة المقدسة ؛ ومن ثم سوز الفراغ الداخلى ضمن محيط الدائرة المستقيمة بنور الكعبة . ووضعت أكوام من الحجارة في تلك النقاط غير انها حل محلها اليوم أعمدة تشير الى بدء حدود « الحرم » . ان فكرة الارض المقدسة ليست من ابتكارات الاسلام ؛ فهي فكرة انتشرت في بلاد العرب القديمة ، حيث أحيطت أماكن الآلهة المقدسة بأراضٍ حجزت لتعزى عليها بسلام الماشية المخصصة كقرايين للآلهة . ان حرم مكة مصان وله حرمان خاصة . وفي ضمن حدوده يجب عدم التعرض للحيوانات الآلهة ، ماعدا بعض الانواع الضارة ، كما ان الحشائش البرية يجب الاتقطع ؛ وحتى التربة يجب احترامها فلا يحمل منها ذرة واحدة خارج الحرم . هذه المحرمات عامة وعلى الجميع اطاعتها ، وهي مستقلة تماما عن القواعد والتعاليم الخاصة بشعائر الحج . وهذه توضح لما اذا يمنع غير المسلمين منها باتا من الدخول الى منطقة مكة .

ان واجب كل مسلم ان يؤدي الحج الى مكة مرة في حياته. لكن هناك شروطا : فيجب أن يكون بالغاً ومتمتعاً بصحة جيدة جسمياً وعقلياً ، وميسور الحال بحيث يستطيع أن يتكلف مصاريف رحلته في الوقت الذي يضمن تدبير معيشة عائلته خلال غيبته ؛ وان يكون الطريق الذي يسلكه آميناً وغير ذلك . أما المرأة فتستطيع القيام بالحج باذن من زوجها أو وليها . ويجب أن يصحبها إما زوجها أو تكون تحت حماية شخص آخر . ويستطيع المسلم أن يلبس عنه مسلماً آخر في أداء فريضة الحج ، وتكون الحجة له وليست للشخص الذي انابه ؛ وعلى هذا الاخير في جميع الاحوال أن يتذكر وينوى بأنه يؤدي الحجة وشعائرها باسم الشخص الذي كافه ، لا باسمه هو . والمسلم الذي يموت دون أن يؤدي الحج من غير عذر شرعي فإنه يبقى خاطئاً وتوضع خطيبته في الميزان يوم الحساب ؛ لذلك يصبح من الضروري لسعادته الابدية أن يؤدي عنه الحج بعد موته ؛ ويستطيع ان ينص في وصيته على تعيين مصاريف لهذا الغرض ، واذا لم يفعل فعلى ورثته أن يقوموا بهذا العمل الذي يعتبر من أعمال التقوى وذلك لرفع الخطيئة عنه .

وعمل بعض الاشخاص من البارزين على أن يؤدي جنائهم الحج وأن يدفن بعد ذلك في مكة أو المدينة ضمن الارض المقدسة . ويعمل الشيعة على أن تكون مرافقهم الى جانب أئمتهم في كربلاء أو في مشهد طوس .

ان كل مسافر يترك وطنه ويتعرض لاختطار الطريق الغامضة عليه أن يحمي نفسه ضدها بنوع من الشعائر الاستعطافية : وهي بالنسبة للحجاج خاصة ذات أهمية . فعين تخطى عتبة منزله عليه

ان يفعل ذلك بقدومه النبي أولاً . ثم يذهب الى المسجد ويصلي ركعتين ؛ ويتبعه أصدقاؤه بدعواتهم ، ويفكر خلال سفرته باستمرار في الواجب المقدس الذي سيجاهد في سبيل تأديته . لكن دوره كحاج لا يبدأ حقيقة الا حين يبلغ حدود الارض المقدسة . وقبل الوصول الى حدود الارض المقدسة ، يجد الحاج على الطرق التي تنتهي في مكة ، محطات هي « المواقيت » حددت مواضعها الاحاديث التي وضعت بعد الرسول : فهناك حديث يحدد مثلاً محل توقف حجاج العراق ، وهي منطقة لم يفتحها المسلمون الا بعد وفاة الرسول . والاسماء الحديثة للمواقيت لا تناظر على اية حال تلك الاسماء التي حددتها السنة من قبل . وفي مثل هذه المواقيت على الحاج أن ينجز الشعائر الخاصة بالاحرام .

سبق أن أشرنا الى ان شعائر العملة تؤدي ضمن طقسين هما : الاحرام والتحليل ؛ وفي حالة تجرد روجي يتجدد المصلي بالله . لكن الحاج يقترب من بيت الله ، الكعبة ، اقترباً مادياً في الحج أو العمرة : فيتمثل بشخصه أمام الحضرة الالهية . وهكذا نجد ان طقس الاحرام في الحج ينطوي على صورة أكثر تهيئاً مما يحصل في الصلاة ، فلا يعود مجرد تلفظ الصيغ الكلامية كافياً . ان على الحاج او يليق به ، مادامت القاعدة تسمح بشيء من التعديل أن يلبس ثياباً قديمة الطراز هي : شريط من القماش حول الفخذين حتى أعلى الركبتين وهو الازار وآخر على الكتفين وهو الرداء ؛ ويلبس في القدمين خفان من الجلد وحده بربطان بخيوط من الجلد أيضاً وهذا هو النعل ؛ وهذا يمثل اللباس القديم لآبراهيم « ابي الاسلام » ، وما زال كذلك لباس كثير من السكان في الاراضي الواقعة على ضفاف البحر الابيض المتوسط وصحاري

بلاد العرب وسورية . يقوم الحاج اولاً « بالعمرة » ثم يتحلل منها في مكة ، وفي اليوم السابع من شهر ذي الحجة يجدد « الاحرام » لغرض الحج ، دون تخطي الارض المقدسة خلال هذه المدة ، وفي الحقيقة يعتبر « القران » حج خاصة الاتقياء المتدينين الذين يصلون الى مكة قبل بدء الحج بوقت قصير ، اما « الافراد » فهو حج المسلمين الذين يصلون في اللحظة الاخيرة ؛ في حين يعتبر « التمتع » حج المسلمين المسافرين أو التجار الذين يقومون بالعمرة عند وصولهم الى مكة قبل زمن الحج بوقت طويل نسبياً .

يقوم الحاج بتقديم الضحية الى الله وهو محرم ، تلك الضحية التي يقودها الى « منى » ؛ ويسم ضحيته بعلامة ظاهرة هي أثر من الآثار القديمة في بلاد العرب . ونجد البدوي اليوم كاسلافه وككثير من الناس في كل قطر بسم ماشية قطيعه بعلامة خاصة هي « الوسم » . وكان أسلافه يضعون علامات خاصة على جلود أو آذان البهائم المستثناة التي يقدمونها فيما بعد الى الآلهة ، والتي تحرر من ثم من نير الانسان هذا الطقس القديم مازال الحاج يقوم به حين يقطع سنام الجمل الذي ينوي التضحية به الى الاله ، وحين يربط عنق الضحية من المشاة بقلادة صنعت من صندلين ربطاً بشريط جلدي أو بخوص النخيل ، وهذا هو « التقليد » كذكرى دون شك لتلك الاوقات التي كان يقدم فيها الجاهلي نفسه عارياً مجرداً امام بيت الله .

من هذا الوقت فصاعداً ، يكون الحاج المحرم عرضة لمختلف المحرمات الشخصية كنتيجة للشعائر التي أنجزها حين قام بالاحرام ، والتي لا علاقة لها بالقوانين المحلية التي تحرم الصيد أو غيره ، والتي سبق ان وصفناها ؛ وعليه ان يمتنع كذلك عن الانفعال الجنسي وكل

ما يؤدهي اليه او يشجع عليه كالمطور والدهون الزكية الرائحة والحلي وغير ذلك . وعليه الابحلق أو يذف أبة شعرة من رأسه أو جسده أو يقلم أظافر يديه وقدميه . وهذا التحريم الاخير يعتبر خطوة لتوضيحية شعر الرأس والأظافر وهذا رمز لتوضيحية الانسان نفسه ، وليس من الخطأ الاعتقاد بأن التحريم الاول كان في الجاهلية خطوة تمهيدية لنوع من النفاس المقدس .

يدخل المؤمن الى مكة من طريق سلكه الرسول من قبل . وبمجرد أن يصل الحاج يذهب الى المسجد حيث يقوم بطواف القدوم المفروض على القادمين الجدد . ويدخل الى المسجد من باب السلام ، فيتخطى عتبة بتقديم قدمه اليمنى أولاً . ثم يخرق الصحن ويتجه نحو الكعبة والحجر الاسود ؛ وإن لم يمنعه الزحام فإنه يقبله ، وهذا عمل يمنحه سروراً إلهياً . وإن لم يستطع القيام بذلك فيلمسه بيده اليمنى أو بطرف عصاه التي يقر بها من ثمة الى شفتيه ليقبلها . ثم يقوم الحاج بسبعة أشواط حول الكعبة متحركاً من اليسار الى اليمين ، تكون الثلاثة الاولى هرولة تهزوها السنة الى الرسول لأنها تريد أن تمجود كرى أكثر الطقوس الجاهلية وضوحاً . وفي بداية كل شوط يلمس الحاج الحجر الاسود . كذلك يلمس قرب ركن اليمين الميعة التي يقال انها تعيد ذكرى حجر قديم . ومن الحائز أيضاً أن الحاج كان في القديم يلمس أركان الكعبة ؛ وتميل السنة الى اهمال ركني العراق والشام مادام لبسا في نهايات الكعبة الاصلية التي تمتد حتى الحجر (بكسر الحاء) . وبعد انتهاء الحاج من الاشواط السبعة يصلي ركعتين خلف « مقام ابراهيم » .

ويستطيع الحاج أن يعد هذه الاشواط كجزء من مراسيم

العمرة او الحج اللذين ينوي القيام بهما . لأن شعيرة الطواف تسبق كل واحدة من هذين العملين المهمين . كذلك يشملان « السعى » وهو شوط ما بين تلي « الصفا » و « المروة » وهذا ما يفعله الحاج مباشرة بعد الطواف . ويترك الحاج المسجد من « باب الصفا » ذاهباً الى أول المحلين المقدسين ثم الى الآخر ضمن « السعى » ومجتزعا بين العلامتين اللتين تعينان الحدود المجاورتين لاركان المسجد بنوع من المرولة كذلك التي قام بها في الاشواط الثلاثة من « الطواف » والتي اشتقت من نفس الشعيرة القديمة . بهذا يكون الحاج قد أنجز واحداً من سبعة مراحل تؤلف السعى : ثم يكر راجعاً على قدميه ويعيد العملية سبع مرات ؛ متنبهاً بالمروة آخر الامر ، وتبلى أثناء الطواف والسعى آيات من القرآن والادعية الدينية ، لا نستطيع أن نأتي عليها في هذا الكتاب الموجز .

حين الانتهاء من هاتين الشعيرتين ، « يحل » الحاج الذي يؤدي العمرة وحدها نفسه ، كما يحل نفسه الذي يؤدي العمرة وحج « التمتع » وذلك بحلق رأسه . عندها يتحلل من كافة المحرمات التي فرضها عليه الاحرام ، ويستطيع التلذذ في المدينة المقدسة بكل المسرات البسيطة التي هيئت له . ويوصي بزيارة المسجد باستمرار والتأمل في بيت الله ، وإكمال أشواط الكعبة النافلة ، كما يوصي الحاج أيضاً بزيارة المواضع التاريخية التي تعيد الى الذهن ذكرى الايام الاولى للإسلام . أما حاج « القران » فيبقى في مكة دون تحليل نفسه بعد العمرة .

يبدأ الحج في السابع من ذي الحجة بخطبة تأتي في المسجد من المنبر المسند الى جدار الكعبة ، يلقيها قاض حنفي أو من يعينه نائباً

عنه في ذلك . والمحطبة التي تعقب صلاة الظهر مباشرة تعظ الحاجج وتزودهم بخطة معينة للشعائر التي سيشاركون فيها بعد قليل .

أما اليوم التالي وهو الثامن فيدعى يوم التروية ، لانه قيل ان الحاج عليه أن يجهز الماء لنفسه ولدايته . ويجتمع الحاجج المشاة والفرسان وراكبوا الابل والسيارات كل هذا الخليط غير المتجانس تتقدمه المحفات التي يحمل بها العاجزون عن السير وعلى رأسه موكب المحملين الرسميين السوري والمصري فيسير الجميع نحو عرفة الواقعة على بعد أربع ساعات (بالنسبة لراكبي الجمل) ويمر الجميع بمنى في طريق طويل يمتاز واديا قاحلا غيذي زرع وعلى جانبيه أبنية تستعمل أيام الحج فقط . ومحكاة للنبي يقوم الحاج في منى بصلاة الظهر ويبقى هناك خلال الساعات الارلى من ليلة اليوم التاسع . إلا ان طول هذه المدة ليس محذواً بأية قاعدة على أية حال .

إن الشعيرة التي تقام في اليوم التاسع في عرفة هي آخر مراسيم الحج ولحظته الحاسمة ، وإن لم يقف الحاج وقوف عرفة هذاعد حجه باطلا . إلا أن الاجتهادات التي تسعى الى انقاذ الحاج من الخيبة التي قد يعمى بها بسبب عدم حضوره لعراقل ليس له فيها يد قد تقابله ، سمحت هذه الاجتهادات أن يحضر هذا الحاج الى عرفة في أية لحظة كانت بين غروب شمس اليوم التاسع وغبر اليوم العاشر ، هكذا يعتبر هذا الحاج قد أكمل وقوف عرفة بصورة رمزية . إلا أن هذا التأخير يستدعي أن يقدم الحاج ضحية كفارة عن تأخره .

ان عرفة ، حيث تقام شعائر « الوقوف » امام الله هي سهل ضيق محاط من أحد جوانبه بتلال على شكل نصف دائرة ، في وسطها يرتفع جبل الرحمة المقدس على صخور عارية مر كومة على بعضها . وفي زمن

الخلافة العباسية عملت بعض التصاميم لجلب مياه الشرب الى هذه الناحية المجرداء حيث يجتمع فيها احيانا خلال نهار كامل وتحت شمس محرقة بين ستين الف الى ثمانين ألف شخص ، مع دوابهم وخيामهم وتجهيزات طعامهم وضروراتهم الاخرى فضلا عن الحاجيات التي يذبذبا اصحابها المتعبون من سفرتهم الطويلة والذين امتلأوا بغيض من المشاعر الدينية فزهدوا في تلك الحاجيات . الا ان التسبب الاداري الذي يميز الشرق أدى بسرعة الى انهيار قواعد كانت يوما ذات اهمية فائقة . وقد احتج المثقفون من المسلمين على الالها الذي يهدد الصحة العامة ، وتجاهد الحكومة الوهابية اليوم لتجد حلا لهذه المشكلة .

وبعد ظهر اليوم التاسع حينما تتجاوز الشمس موضع السميت يبدأ وقوف عرفات وهو الشعيرة الاساسية في الحج ، فيقف الحاج أمام الله وتلى أدعية دينية تحت ارشاد امام يلقى خطبة مناسبة ، وهذه الخطبة هي واحدة من أربع خطب هي من شعائر الحج . وحالما تغرب الشمس تبدأ شعيرة طريفة جداً لا نعرف بالضبط منشأها ودلائلها (١) .

ثم يذهب الحجاج الى واد آخر يدعي بمزدلفة يقع بين عرفات ومنى يعلوه مرتفع يسمى قزاح (بضم القاف) وهو مرتفع نظر اليه باجلال في الجاهلية ، حيث يجب على الحجاج أن يقضوا الليلة العاشر من الشهر ويؤدوا وقوفا سريعا قبل فجر النهار العاشر . لكن على الرغم من محاولة رجال الدين المسلمين ان يقاوموا هذه العادة

(١) لا جدال في الحج .

نجد ان المسيرة من عرفات الى مزدلفة عند غروب اليوم السابع
تحصل بشكل اندفاعي مضطرب حيث يتدفق سيل حارم فظافة ،
وهذا ما يدهي بالافضاء ، ذلك الافضاء الذي يؤدي كل عام الى
حوادث قتالة حتمية . ويتلو هذا الوقوف في مزدلفة ، الشبه بوقوف
عرفات من حيث وجود الافضاء الذي يرجع بالحجيج الى منى عند
شروق الشمس . وعند اليوم العاشر من ذي الحجة في منى تنتهي
شعائر الحج .

حين يصل الحجيج الى صفح عقبة الذي ينحدر الى منى ،
يمجدون أنفسهم في بداية الطريق الذي يحاذي بنايات المدينة الموقنة ،
وعند شاهد حجري بنى امامه ما يشبه الحوض ، وهنا جرة العقبة
التي يرى فيها الحجيج كواجب ديني سبعة احجار صفار التقطوها
من مزدلفة ، ويصحبون ذلك بصيغة التكبير : « باسم الله ، الله
أكبر ! » . ان دلالة هذه الشعيرة التي نلاحظها في أشكال متباينة
في أنحاء الشرق السامي وشمال افريقية جميعا والتي لها مثيلات في أماكن
أخرى ، ليست واضحة تمام الوضوح بحيث نستطيع شرحها في بضعة
أسطر . و التراث الاسلامي لا يحمل نفسه عبء تقديم شروح وافية
في هذا الصدد : فابراهيم الذي أغراه الشيطان في هذا المكان ولاحقه
نجبا بالاقائه سبعة أحجار ، وما الشعيرة الحالية سوى تقليد لهذا العمل
الديني الذي قام به سلف المسلمين . ويدعى الشاهد الحجري المار بالذكر
في اللغة الدارجة « الشيطان الكبير » .

وهنا يضحي الحاج ضحيته التي نذرها ، إما عند احرامه ، او
خلال الحج . ويوجه رأس الضحية باتجاه الكعبة وينحر رقبتها ، اما
صاحبها او أي شخص آخر اذا كانت الضحية مشتركة بين عدد من

الحجاج كما يحصل كثيراً . وبأكل الحجاج جزءاً من اللعيم ويوزع الباقي على الفقراء الذين جاءوا من مكة لهذا الغرض ، ويحمل الحجاج بعض قطع اللحم بعد تجفيفها في الشمس ، لكن جزءاً كبيراً من جثة الضحية يترك مطروحاً على الأرض غير مدفون تماماً ، ويؤدي ركام اللحم هذا إلى انتشار الأوبئة الخطيرة رغم جفاف المناخ . ومع ذلك يستمر الناس عدة أيام أخرى في منى . ومن المحتمل أن التضحية كانت تجري قبل الإسلام في مكان معين في الوادي ؛ لكن السنة ثارت ضد هذه العادات القديمة مصرحة أن التضحية يمكن أن تكون في أي جزء من منطقة منى . ومن هذه الأضاحي اشتق اسم اليوم العاشر من ذي الحجة « يوم النحر » .

ومع أن التضحية ليست بأهم جزء من الحج ، وإن وقوف عرفة هو العمل الرئيس نظرياً ، فإن يوم منى هذا هو الذي يحتفل به في أرجاء العالم الإسلامي . ونرى أن كل رب عائلة مضحي بحيوان يكون رأساً من الغنم في العادة في العاشر من ذي الحجة ؛ ويذبحه موجهاً رأسه نحو مكة ، ويوزع لحمه على الفقراء . إن عيد الأضحية أو « عيد قربان » يدعى كذلك بالعيد الكبير .

بعد إتمام النحر يسلم الحاج نفسه إلى أحد الحلاقين الكثيرين المحترفين أو الموقنين ، الذين تزخر بهم منى في هذا اليوم ، فيحلق شعره ويقلم أظافره ، وتدفن الفضلات في الأرض بعناية . من هذه اللحظة يكون الحاج قد تحلل جزئياً . وهذا هو التحلل الصغير ، لكن التحريم الجنسي يظل قائماً هو وملحقاته من تحريم للعطور وغيرها . يظل الحاج محرماً ولا يتحلل كلياً كما لو كان لهذا التحريم علاقة ما بالكعبة ، وهكذا لا يتمتع بالتحلل الكبير إلا بعد أن يكمل

طواف الافضاء في بيت الله ، وقد سمي بهذا الاسم لان الطواف
ينجز بعد انصراف سريع من منى الى مكة . ويتلو طواف الافضاء
سعي بين الصفا والمروة ، ان لم يكن الحاج قد فعل ذلك في بداية
الحج أي حين يكون قد أدى العمرة وحج القرآن .

تعترف العادات الحديثة بأن الحاج قد أكمل لحد الآن مناسك
الحج ، ويستطيع اما الرجوع الى وطنه أو البقاء في مكة حيث
يكون له الخيار في اللجوء البري والقيام بأعمال تقية أو الاشتغال
 بالتجارة . لكن هذه ليست هي القاعدة التي يسندها اجماع جميع علماء
المسلمين . ويقرر الشرع ان على الحاج أن يعود الى منى ويقضي
ثلاثة أيام هناك هي : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، من ذي الحجة ، وهذه
الفترة يدعوها التراث الاسلامي بأيام التشريق ، اشارة دون شك ،
كما يقال ، الى قطع لحم الاضاحي التي يحففها الحجيج في الشمس .
ويلزم الحاج كل يوم بالذهاب الى الجمرة الوسطى والجرة الاولى
وبري على كل منها سبعة احجار بنفس الطريقة التي اتبعها في اليوم
الاول .

ان الحاج قد أكمل الآن كل المناسك الواجبة : وتنصح
الاحاديث ان يطوف الكعبة عدة مرات للوداع و طواف الوداع ،
وان يشرب ويحمل معه شيئاً من ماء زمزم الخ . وينصرف بمجموع
الحجيج بعد مكوث بضعة أيام في مكة .

لقد حضر بمض الاوربيين مناسك الحج ووصفوها ، كما
ان لدينا تقارير كتبها مسلمون ، ومن اليسير بحث هذه المناسك مع
الذين ساهموا فيها . اذن من الممكن تكوين فكرة دقيقة واضحة
عن الانطباع النفسي الذي يخلقه الحج في نفوس الحجاج . يحتفظ

وقوف عرفة بالمكان الاول في حياة الحج الحقيقي ، ذلك المكان الذي اضناه عليه الشرع الاسلامي . ويتفق جميع الذين شهدوا هذا الوقوف في التعبير عن ذلك بغبطة كبيرة أو صغيرة ، مابين الانطباع العميق الذي تركته في قلوبهم وحواسهم تلك الحشود المؤلفة التي تبلغ عشرات الآلاف (ويقدرهم قائد بن شريف بست مئة الف) كل منهم وقد توجهت روحه مع عيذه نحو جبل الرحمة ، مصغياً بانتباه وجداني الى الخطيب الذي يتخذ محل الرسول ويتقمص شخصيته موقفاً . وتنتشي هذه الحشود بالصيحات المتواليصة : « لبيك يارب ، لبيك ! » ويبلغ الناس اقصى درجات الانهيار العصبي بسبب الجوع والتعب والانفعال والوهج الساطع والشمس المحرقة . ان بعض شعائر الكعبة كصلاة الظهر او صلاة العشاء في مسجد مكة يبدو انها تركت في نفس الحاج انطباعات حية لكنها سريعة الزوال وقليلة الوضوح ، وهناك تدافع فقط مزيج حول الكعبة ، كما يساعد أهل مكة على افساد الجو كذلك . ان الرحلة من عرفة الى منى في طواف الافضاء تذكر الحاج بالمشقة التي لاقاها وهو يسلك سبيله بين الحشود المتدافعة التي يسحق بعضها بعضاً ، والمعرضة باستمرار للخطر على أيدي الناس والطبيعة . ولا يزال هناك لصوص سفاحون من البدو كما كان الحال في الجاهلية . ولا نعرف الى أي مدى استطاعت الحكومة الوهابية أن تزيل خطر المرض الناتج من اضاحي منى . كما ان رمي الاحجار يحدث وسط تزاحم بدائي خطر .

ان روعة الحياة الدينية في مكة يفسدها الاهالي الذين يكون

منهم الاساسى استغلال الاماكن المقدسة ، وحين تقرأ (بورخاردت) و (برنت) . وسنوك والبنتوني وقائد بن شريف يظهر لك ان ما يبقى في ذاكرة الحجاج هو خشونة أهل مكة وابتناساتهم ومجاملاتهم المصطنعة التي يمارسونها اكثر مما يجب في محاولتهم جمع المال في حفنة من الايام ليعيشوا منه مدة عام بأكمله . ان الطوافين ومؤجرى الدواب والمنازل والغرف ، وبائعي ماء زمزم وقطع الكموة ، والنساء المتهاونات ، والحلاقين ، والقائمين على البيوت التاريخية ، وتجار مختلف البضائع ، كل هؤلاء يفرغون جيوب الحجاج بسرعة . وبالإضافة الى ما تقدم يجب أن نلاحظ بأنه من الجهل الى حد كبير بطباع الناس الذين يعيشون في ظل المعابد الكبرى في ارجاء العالم ، لوم أهل مكة على عاداتهم في جمع المال وجعل ذلك قاصراً على الاسلام وحده دون غيره من الاديان . وعمى أن يكون الوهابيون فعلوا شيئاً في مقاومة هذه العادات ، لكنهم لو قضوا عليها نهائياً لكان ذلك معجزة .

يرجع الحاج الى وطنه ممثلاً بسرور عظيم لانجازه اكبر فريضة دينية وغوراً لتميزه بلقب الحاج عن بقية المسلمين الذين ليس لهم هذا اللقب ، ومن هنا يناله تشریف ما ، كذلك يكون قد اخبر احساساً داخلياً غامضاً بقوة الاسلام التي توحد كل عام هذا العدد العديد من الناس من مختلف الشعوب ومتباين اللغات ، ولكنه في نفس الوقت يعود الى وطنه ، وقد تكشف له في اعماق وجدانه بوضوح ما تتميز به الارض التي اختارها الله لاقامة بيته من جذب واقفار وشمس لاحقة وتجرد عن الظلال والمياه والحياة وبصورة خاصة يحمل انطباعاتها عن أهل مكة المتملقين الجمشعين .

ان فشل الحاج في القيام بآية شعيرة من شعائر الحج ذو نتائج
تلقاين في الامة حسب كل منها . لقد سبق ان قلنا ان الحاج الذي
لم يساهم في منسك وقوف عرفة أو الذي لم يظهر في عرفة رغم كل
التسهيلات ، لا في مساء اليوم التاسع ولا في ليلة اليوم العاشر حتى
الفجر ، يكون قد « أضاع » الحج ؛ وعليه أن يبدأ من جديد . أن
خرق المحرمات الجنسية سبب لبطلان الحج كذلك . بالإضافة الى
ذلك ، فان في هاتين العاليتين وفي جميع صور خرق المحرمات الاخرى
التي لا تكون في حد ذاتها سببا لبطلان الحج ، على الحاج أن يقدم
كفارة إما بتقديم ضحية اضافية أو توزيع صدقات على الفقراء
أو صيام بضعة أيام . وحسبنا هنا أن نشير الى مبدأ الكفارات في
الحج دون التعرّض للتفاصيل .

هكذا ينهي المؤمن حجه : لقد كسب على مرأى من الله ثواباً
سيكون امصالحه يوم الحساب . الا انه لم يؤد بعد زيارة الى ذلك
المكان الذي كثيراً ما يجذب اليه مشاعره ويحركها بعشق بالغ ،
وهو قبر النبي في المدينة . وتنظيم القوافل التي تصل بعد الحج الى
المدينة في ثلاثة أو أربعة أو عشرة أيام ، هو واحد من الاعمال
الرئيسية لاهل مكة ؛ كما تكسب القبائل المجاورة ربها من هذا
العمل ايضا .

حين الدخول الى المدينة يقترب المؤمن لا من الله بل من النبي :
والمؤمن هنا وان كان في غير حاجة الى ان يفندى نفسه (١) ، الا انه
يقدم الرسول الى درجة تقرب من العبادة . وقد أوجدت العادة
منذ القدم حول المدينة مركزاً مقدساً حراماً ، نجد ضمنه نفس

(١) بتقديم ضحية كما فعل في مكة .

المحرمات التي وجدناها في بيت الله ، كحماية الحيوانات والنبات
والارض نفسها .

يقع مسجد الرسول في أقدم حي من المدينة . وقد أحرق عدة
مرات ، واكتسحته السيول ، واعتدى الممارون الترك على طرز بنائه
بمعجدياتهم ، ويدعو على الرغم من ثراء زخارفه ، أقل فخامة وجمالا من
مسجد مكة . ومع ذلك يتخطى الزائر عتبهته باجلال عميق يخترقا الانقسام
الرئيسية ، ويدخل الى الروضة التي تؤدي ، كما نقول السنة ، الى ضريح
الرسول والى قبرى ابي بكر وعمر بقربه مباشرة . ان بيت عائشة
الذى توفى فيه الرسول ودفن يبدو انه كان صغيراً جداً ، ويقع
الى جانب المسجد الاصلي تماما ؛ والمسجد الذي توسع على مر
العصور ، وامتد حول القبر المقدس ، ضم اليه بيوت عائشة وأبي
بكر وعمر وغيرهم حتى أصبح من السعة بحيث يتسع اليوم لآلاف
المصلين .

وفي روضة النبي وبجانب محرابه ، حيث آثار منبره والاعمدة
التي اتمكا عليها ، والف ذكرى مقدسة اخرى ، يدعو الحاج دعاءاً
تحول بعض الاعتبارات الخاصة دون تحويله الى صلاة لان في
ذلك نيلا من كرامة الله . وترتيب جوانب الضريح جعل بشكل
لا يمكن الحاج معه ان يدور حول الضريح . الا انه ليس هناك
مانع يحول دون تطور تقديس الرسول كما هو الامر بالنسبة
لتقديس الاولياء . والحاج الذي لم يقبل شباك الضريح لا يكون
في اوجدان العامة قد أنجز حجه . وهناك ألف ذكرى مقدسة ،
تستبقى الزائر في المدينة ، كما كان الحال من قبل في مكة ؛ وعند

مقابر المدينة يزور الحاج قبور الشخصيات البارزة في أيام الاسلام
الاولى : كعائشة وفاطمة وعثمان وغيرهم .

ان الحجيج المخلصين والمستطعمين في نفس الوقت ، قد ينهون
حجهم بصفة الى بيت المقدس ، وهي مدينة قدسها الاسلام لوجود
كثير من الانبياء فيها ، لاسيما المسيح ، ومن هذه المدينة عرج
النبي كما تقول العقيدة الى السماء ذات ليلة يرشده جبريل وهذا هو
المعراج . لكن هذه الزيارة ليست واجبة بامة حال ولبست شائعة
كزيارة المدينة . ان الغرض الرئيسي من هذه الزيارة مشاهدة جامع
عمر وقبة الصخرة .

تتميز عودة الحاج الى وطنه بمراسم مشابهة لتلك التي جرت
حين غادره الى مكة . فيأتي اصداؤه لتهنئته ويجمعون بحو القدسية
الذي يحيط به . ويوزع عليهم هدايا دينية كما زمزم وقطع
الكسوة .. الخ .

الحج هو الشغيرة الكبرى في الحياة الاسلامية . إذ يؤدي الى
اجتماع مختلف الجماعات يمثلون جميع الاقطار الاسلامية سنويا . فهو
إذن اجتماع عام وحفل اسلامي ، لكن الطريق اليه غالبا ما يكون
طويلا وحافلا بالخطر ، وقد تعود الصوفية ، دون شك ، على تجوآب
الطرق والتعرض لآخطارها ، مما دفعهم الى أن يقوموا بسفراهم الى
مكة زرافات ووحدا مستغرقين وقتا طويلا . لكن معظم الحاج
اعتادوا مدفوعين بضيق وقتهم وخوفهم من الخطر ، ان يجتمعوا في
مواعيد معينة في مراكز تسير منها القوافل المنظمة رسميا مجهزة
بالسلاح والمؤن والدواب والمال ، وفي أثناء سير هذه القوافل يتضخم
عددها باستمرار كلما تقدمت نحو البيت الحرام . ان القافلة التي تنظم

في القاهرة لارسال الكسوة الى الكعبة ، يصحبها هودج رمزي للملك هو الحمل ، كانت مركزاً جامعاً لحجاج افريقية القادم بعضهم عن طريق هضاب المغرب وواحات الصحراء ، وبعضهم الآخر قادم من الطرقات الطويلة لنيجريا وبحيرة شاد. وتيسقي والواحات المصرية : وكان بعض هؤلاء الاخيرين يحاذي النيل عند الخرطوم ومنها يسلك سبيله الى جدة ميناء مكة ، بعد أن يقطع البحر الاحمر . اما قافلة دمشق التي جذبت منذ القرن (١٦ م) المسافرين من القسطنطينية وكانت مصحوبة بتلك الفترة بمحمل السلطان ، فقد سلكت الطريق التقليدي شرقي البحر الاحمر مخترقة بلاد بطرة القديمة . ان قافلي القاهرة ودمشق هاتين طالما ترأسهما شخص ذو حيثية هو أمير الحج الذي ينتسب عادة الى العائلة المالكة ويعينه الملك نفسه .

لقد غيرت الملاحة البخارية والقطارات منذ النصف الثاني من القرن الماضي نظام السفر كايا . فالسكة الحديدية من دمشق الى المدينة والتي كان ينوي مدها الى مكة لتعمل محل القوافل القديمة ، دمرت خلال الحرب العظمى الاولى . ولم يعد صالحا منها للعمل سوى جزء صغير : واني لا اعلم شيئاً عن وضعها الحالي .

أما القافلة العراقية التي تجمع الحجاج من أواسط آسية وإيران واولئك القادمين من الهند ابطريق البر ، فقد كانت الموكب الرسمي منذ القرن (٨ - ١٣ م = ٢ - ٥٧) ويرأسها الخليفة نفسه في كثير من الاحيان . لكن العادة جرت أن ينيب الخليفة عنه هذا الواجب الى شخصية عظيمة في كل عام هو أمير الحج . وقد قام الاخير بدور كبير او صغير في مناسك الحج ، بحسب ما كان لسيدته

من سلطة في العالم الاسلامي . وحين اخذت الخلافة العباسية بالظهور أخذ أمير الحج القافلتين الاخيرين ينافسان امير الحج العراقي . واكثر من هذا كان الموضوع الذي تتخذه كل جماعة من المسلمين في مناسك الحج كمعرفة مثلاً ، والمركز الذي يجب أن تتخذه في المراسيم الدينية كالافضاء ؛ كل هذا أدى الى منازعات بين الحين والآخر والى حروب ، استغلاما اهل مكة والبدو كفرصة لجمع الغنائم ، وخلال ذلك كانت تزهر ارواح كثيرة . واعتاد جانب من حجيج الهند وجزر الهند الشرقية المجيء عن طريق البحر والرسو في جدة .

تستمر القافلة المصرية في السير برأ حاملة محمل الملك ؛ لكن الحجيج الذين اعتادوا مصاحبته يذهبون عن طريق البحر ، بعضهم عن طريق السويس وجدة ، والآخر عن طريق الاسكندرية وحيفا ومنها يأخذون السكة الحديدية المرتبطة بالمدينة . بينما حجيج الهند وجزر الهند الشرقية يصلون كحجيج المغرب الى جدة في باخر تتمتع بحماية دولهم . اما الطرق القديمة للحج فقدت اليوم مجرد ذكريات تاريخية لا اكثر .

ان حالة المواصلات الحديثة تسهل اتخاذ الاجراءات الصحية التي تبنتها الاتفاقيات الدولية في هذا القرن ، عاملة على منع انتشار الاوبئة عن طريق الحجيج الاتين من مكة : وقد ازدادت الوسائل الطبية بالتدريج الخاصة بالفحص قبل السفر وبعده والحجر لمدد معينة ، الا أن هذه الاجراءات كلها ليست محكمة بدرجة كافية . اذن فالاجتماع في الاماكن المقدسة ، في مكة والمدينة ومنى ، الذي تحتشد فيه شعوب من شتى اقطار العالم ، يحملون معهم جراثيم الامراض التي يزداد خطرها كلما كانت أبعد عن البلد الذي تحمل اليه ، مثل هذا الاجتماع من شأنه

ان يكون فلا خطر يهدد صحة البشرية كل عام . : . وقد كان العجز
حتى الان مركز كثير من الوبئة الخطرة المعدية كالكوليرا . ونحاول
الاقطار الاوربية ان تضمن المواصلات ورجوع افراد العالم الاسلامي
الى بلادهم تحت شروط صحية ملائمة . وتعمل دور الضيافة الرسمية
في مكة على أن تحمل محل احياء السكن القديمة التي هيأها للحكام في
القديم من الاوقاف التي أخذت تبتد فيا بعد ، كما هو طبيعي . ومنذ
سنة ١٩١٩ تحتفظ افريقية الفرنسية في مكة بدار ضيافة تديرها جمعية
الاقواف للبلاد المقدسة .

لا زال الحج يحتفظ بأهميته الدينية ومن الصعب أن نتنبأ عن
الدور الذي سيلعبه في تكوين الوحدة الاسلامية التي امتلكت أذهان
البعض ، وعلى اية حال فإن الحج قد فقد جانبا من قيمته الاقتصادية
وهذا أمر لم يقدره المؤرخون حق قدره فيما يبدو . ان سهولة
المواصلات قللت من أهمية العلاقات التجارية التي كانت مكة فيما
مضى مركزاً لها الى حد بعيد . لكن التجارة ما زالت تحتل مكانا
في الاجتماع الدولي الذي يعقد كل عام جالبا اليه المسلمين من جميع
الأقطار .

ان الحرمين الاسلاميين مكة والمدينة ، لم تنعم عليها الطبيعة
بالوسائل المادية الضرورية لضمان حياة اجتماعية واقتصادية نشيطة ،
تلك الحياة التي يجب أن تتوفر لمدينة كبيرة وما حولها . فعزلتها
حتمها من تأثير الغزوات العظيمة : لكن مآذات البدو في النهب
جعلت أهاليها في خوف مستمر من القحط . ان ذرية آل علي الذين
كانوا أبناء مومنة متخاصمين والذين شغلوا مراكز الحكم هناك
احتاطوا من ناحية واحدة هي ضمان توفير الغذاء للسكان ، ولا سيما

للعجاج الذين يكون وجودهم هناك العمل الرئيسي للحرمين الشريفين
 ولهذا الغرض اتفقوا مع زعماء البدو وحكام العراق وسورية ومصر
 كذلك . وكل من هؤلاء الاخيرين كان حريصاً على أن يتلقب
 « بخادم الحرمين » مقلداً بذلك الخليفة . ومقابل هباتهم الكريمة
 المتكررة طمع هؤلاء الحكام بأن ينالوا الطاعة ، وان تعلن أسماؤهم في
 الخطبة بالدرجة الاولى من منبر الكعبة ومنبر مسجد المدينة ، وان
 يحصلوا على المركز الاول لامر الحج الذي ينوب عنهم في زعامة
 حجاجهم . أما السلطان العثماني ، وهو الوارث غير الشرعي للخلفاء
 العباسيين فقد جعل نفسه حامياً حريصاً للحرمين . وعندما أعلنت
 الحرب على الوهابيين في بداية القرن (١٩) أتيج لمصر أن تستعيد
 جزءاً من سلطتها التي كانت لها على الحجاز بسبب تميزها له بالـ « و »
 تلك السلطة التي كانت لها أيام الفاطميين في القرن (١٠ م = ١١ هـ)
 وفي القرن (١٢ م = ١٦ هـ) أيام الايوبيين ثم في عهد المماليك . ان
 هدية الكسوة للكعبة أمر ذو أهمية سياسية خطيرة . وقد كان
 لمسلمى الهند وجزر الهند الشرقية مكان بارز في حياة الحج نظراً لعدم
 وراثتهم . ان سقوط خلافة القسطنطينية وقيام سلطة موفورة النشاط
 محلها وقفت على أية حال على هامش « الجماعة الاسلامية » أدى الى قيام
 وحدة اسلامية مركزها مكة . إلا أنه يبدو ان طبيعة الحجاز ، رغم
 ان المواصلات الحديثة قربت المسافات لا تساعد على جعله مكاناً مناسباً
 لهذا الغرض : بخلاف القطر وقسوة المناخ يجعله موضعاً تصعب
 فيه الحياة . ومما يكن فان الفوز الوهابي في سنة ١٩٣٠ الذي يختلف
 كثيراً في احداثه ونتائجه عن غزوم الذي حدث في سنة ١٨٠٣ ، قد
 اسهل عهداً جديداً لبلاد العرب والحج ، حيث رفع هؤلاء السادة

الجدد لمكة مستوى البلاد من الناحيتين المادية والدينية .



لم يكن لبلاد العرب قبل الاسلام دين منظم بمافيه الكفاية يهيء الى أي نوع من الصيام الدوري ، ولم تعرف هذه البلاد إلا الامتناع عن الطعام والخمر ، وهو امتناع فرضته محرماتها الدينية ، أو تبنته نتيجة لصور اليقين الفردي . وفي بداية حياة الرسول في المدينة أي في الفترة التي عمل فيها على تغيير عقيدة اليهود ، نراه فرض صيام عاشوراء ، وهو شبه بصوم (تشرى) عند اليهود . وعند غزاهم اليهود في المدينة نرى ان الصوم الاسلامي قد تحول ، تحت تأثير الصوم الكبير عند النصارى ، الى امتناع عن الطعام لمدة شهر قري بأكله ، هو شهر رمضان الذي صاادف في التقويم العربي بتصححاته الشمسية في فصل الصيف ، لكنه أخذ يقترب من الشتاء في الوقت الذي شرع فيه الصوم ونظم امره بين المسلمين . ان التقويم الاسلامي القمري لم يراع ان رمضان سينتقل في خلال أشهر العام كلها ، إذ ان الفرض الشديد لصيام يوم بأكله سيقع في دورة ثلاثين عاما ، في أطول أيام السنة . ومنذ شروق الشمس حتى الغروب ، أو بتعبير أدق منذ اللحظة التي يمكن فيها تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، أو بحسب أحد التفاسير عندما يمتد خط من النور على الافق في حين تكون أجزاء السماء الاخرى حالكه الظلام ، منذ هذه اللحظة يلزم المؤمن بأن يعف كلية عن الطعام والشراب والدخان والعمور .. الخ وكذلك عن العلاقات الجنسية . لكن في أثناء الليل تسقط كل هذه المحرمات ، والمؤمن الذي أنهكه الصوم الطويل ، يستطيع أن يعوض ليلا الى

أكبر جد ممكن ما حرم عليه أثناء النهار . ولستنا في حاجة الى التوكيد على نتائج مثل هذا النظام الذي ينهك قوى الصائم لا سيما حين يفرض على الرجال الذين يعملون في أثناء النهار (١) . ويعرف جميع الاوربيين الذين تربطهم بالعالم الاسلامي علاقات منظمة ، النتائج البدنية والنفسية لصوم رمضان .

يحدد بدء شهر رمضان كما هو الحال في الاشهر الاخرى ، برؤية الهلال : فبداية الصيام ونهايته يعتمدان إذن على الملاحظة الفلكية التي لا يمكن أن يحل محلها أي تذبؤ سابق . وقد تحول حالة الجو في بعض الاحيان دون رؤية الهلال كلياً أو جزئياً ، فبعض النظر عن أية تأخيرات فلكية يمكن التنبؤ بها من قبل . لكننا نجد في المدن ان السلطة الدينية الممثلة عادة بالقاضي هي التي تعلن نتيجة ملاحظاتها في هذا الصدد . وقد تؤدي الظروف المحلية الى قيام خلافات في هذا الموضوع بين الشخصيات المتكافئة للسلطة . هكذا قد تكون فترة الصيام ٢٨ أو ٢٩ أو ٣٠ يوماً على الأكثر .

تعلن في المدن اللحظات المضبوطة لبداية ونهاية الصيام كل صباح ومساء بظهور علم أخضر على منائر المساجد ، وبطلقة مدفع . وبعد اشارة المساء ، اعتاد الصائمون « انتهاء صياهم » بوجبة خفيفة تدعى الفطور ، وانتهاء الليل بآخر وجبة هي السحور ؛ وهناك هوق خاص يدعى « المسحّر » يعلن — في المدن — الساعة الاخيرة التي يمكن تناول السحور فيها .

(١) نعلم ان من حكم تشريع الصيام منفعة البدن عن طريق اراحة المعدة وتنظيمها .

الصوم واجب فرض على البالغين المالكين تماماً لقوام الجسمية والعقلية . ومن ثم أعفى المرضى والشيخوخة والعاجزون والنساء في أنفاس كما أعفى المسافرون من الصيام لأسباب أخرى . لكن هذا الإعفاء ليس نهائياً ، وبمجرد أن تسمح الظروف المادية ، على المؤمن أن يؤدي صومه خلال أي شهر من السنة ، أو يعطي فدية وهي نوع من الزكاة الكفارة . ان خرق المحرمات الجنسية عن عمد يكفر عنه بفك رقبة ، أو بصوم شهرين ، أو إطعام ستين مسكيناً .

يخضع أداء الصوم ، كما هو الحال في جميع الفرائض الدينية الإسلامية الأخرى للنية . وتزدحم المساجد خلال شهر رمضان بصورة خاصة . ففي المساء وبعد صلاة العشاء ، يجتمع المؤمنون في جماعات ويؤمهم امام ، ويؤدون صلاة من عشرين ركعة على الأقل ، كل أربع ركعات تفصلها فترة عن الأخرى ؛ ومن هنا سميت بصلاة التراويح . وتصحبها تلاوات من القرآن واحاديث دينية قد تستمر حتى الفجر . وقد وصف بعض الكتاب كآين جبير هذه الشعائر التي تنهالها وجبات ، يعود المؤمنون الي بيوتهم لتناولها ، أو يجلبونها معهم الي المساجد .

تبين السنة ان الصيام شرع في رمضان ، لانه خلال هذا الشهر كان تنزيل الوحي الي الارض (ق س ١٨١ ، ٢) ، أى في ليلة القدر (ق س ٩٧ ، ١ - ٣) ، والاعتقاد العام انه في هذه الليلة تقرر مصائر الناس للسنة التالية كلها . ان تاريخ ليلة القدر ليس مضبوطاً لذا نجد ان ليالي الايام ذات الارقام الفردية من ٢١ - ٢٧ من رمضان واليوم الاخير هذا خاصة ، تمجد بتلاوة الأدعية وآيات من الذكر الحكيم .

يمثل افطار رمضان الذي يحصل عند أول شوال مناسبة عيد يسمى عيد الفطر ، وبدعى في المغرب باسم العيد الصغير . وكما في العيد الكبير الواقع في العاشر من ذي الحجة ينتظم العيد الصغير صلاة هي صلاة العيد ، مؤلفة من ركعتين ، يتلوها عدد من التكبيرات ، وخطبتان .

وفي هذا اليوم يجب أن تعطى زكاة الفطر ، وهذه غير الزكاة الحقيقية التي سنتحدث عنها فيما بعد . وعلى رب كل عائلة أن يعطي عن كل فرد من الذين يعلمهم الى الفقراء صاعا أو اربعة امداد من الطعام السائد في البلد (١)

إن العيد مناسبة لافراح وطنية تستمر لمدة ثلاثة أيام : تلبس فيها الملابس الجديدة ، ويهنيئ الناس بعضهم ويتمايقون . وعيد رمضان نظام من أكثر النظم الاسلامية حياة : وتراعيه المدن الاسلامية بدقة ، ويحاكم الرأي العام بشدة أي فرد يحاول أن يتحاشى هذا العيد سرا .

* * *

ينظر كل من العرب واليهود الى ثروات الدنيا أو خيراتها هذا العالم على انها منحة من الارواح الشريرة وانها تؤدي الى عذاب مقيم

(١) الصاع هو كيل تدور عليه احكام المسلمين ويؤلف من اربعة امداد كل مد هو رطل وثلاث ، والرطل معياره اربع حفنات بكفي الرجل المتوسط
(المحيط للفيروز آبادي)

في الحياة الاخرى ؛ لكن هناك طريقة لتجنب هذا الخطر ؛ وذلك بأن يرجع الانسان باختياره الى الله جانباً مما أفاض عليه ، وبهذا العمل « يزكى » ما يملك . ومن هنا جاءت كلمة الزكاة والصدقة في العربية ، وبصورة خاصة الزكاة الشرعية التي قررها القرآن ونظمها الرسول وخلفاؤه .

الزكاة ضريبة دينية تجبى من عدة انواع من الممتلكات حسب قواعد معينة ، وواردها ينحصر لاغراض من الصرف مختلفة . وهي تشمل متوجات الارض والماشية والمعادن الثمينة ؛ (الذهب والفضة) وبضائع التجار . هذه المواد جميعا لا تعرض للضريبة إلا اذا بلغت النصاب المعين ، أي الحد الأدنى الذي قررتة الشريعة والذي يختلف من بضاعة الى اخرى . وتدفع الضريبة عيناً . وعلى المؤمن أن يدفع عن المواد التي تزيد عن النصاب من الزروع (الاثمار والحبوب) عشر المحصول السنوي ، لكنه يدفع واحداً من عشرين اذا كانت الارض تروى بطريقة صناعية تكلف نفقات باهضة .

أما الماشية فان عدد ونوع الحيوانات الواجب اعطاؤها منها يختلفان حسب نوع وعدد الحيوانات المؤلفة للقطعان . ومن المهم أن نلاحظ بأن الضريبة المأخوذة على الحيوانات يجب ان تكون في حالة مرور حول كامل على وجودها سائمة في المرعى وغير مسخرة . وتزايد هذه الضريبة في الواقع بزيادة رأس المال الناتج عن تكاثر القطيع غير المسخر أو العاقل عن العمل .

ولا تجبى الزكاة عن المعادن الثمينة وبضائع التجار الا اذا مر عليها حول كامل في حوزة نفس المالك ، ولم تستخدم كوسيلة للتبالة

المجارية . من هذا نفهم ان الجزء الاكبر من الثروات والادوات الذهبية والفضية مفعو من الزكاة لمجرد انه غير مخزون ولانه عرضة للمبادلة . وعلينا ان نتذكر هنا أيضا بان الشريعة الاسلامية تمنع من ناحية اخرى التسليف بالفائض ، أي ايجار راس المال النقدي لكنه باعفاء الثروات التي لم يمر عليها حول كامل في حيازة نفس المالك من الزكاة ، فتحت الشريعة باباً للاحتيال مارسه الكثيرون : فهناك قاض مشهور في بغداد خلال العصر العباسي هو القاضي يوسف (توفي عام ٩١٠ م = ٢٩٨ هـ) ، بمجرد ان تقترب السنة من نهايتها ، كان يحول ملكية ثروته الى ابنته ، الذي يعيدها اليه بدوره قبل نهاية السنة التالية ، وهكذا : بهذا تجنب دفع أية زكاة . واية حكايات لم تؤثر عن القضاة !

يجمع الضريبة عيناً عامل يحددها ويجمعها بنفسه او عن طريق وكلائه ، فيما يتعلق بالزروع ، والذي يجمعها في الحالات الاخرى على قاعدة اعلان اسماء دافعي الضرائب . ان المشرفين على ادارة الصدقة كان عليهم ان يضمنوا ايس فقط جباية الكمية الصحيحة من الضريبة ، بل وكذلك تنظم نقلها الى المخازن حيث يكونون مسؤولين عن حمايتها وحفظها . وهناك مخازن رسمية احتفظت باسمائها القديمة وهي (الحمى) تحفظ فيها ابل الصدقة التي كانت تباع للافراد . اما الحبوب فكانت تخزن في مخازن الزكاة . وحين يجري التوزيع على مختلف الطبقات المستحقة للزكاة ، يكون هذا التوزيع عيناً بصورة جزئية ، ويحول القسم الآخر الى نقد .

وزعت الزكاة على الطبقات الآتية :

أولها : الفقراء والمساكين ، ثم للعاملين عليها : وهم جباة

الضريبة ؛ ثم لدولة قلوبهم : وهم طبقة اختفت فيما بعد ، وإن كانت ذات خطر في بدء الاسلام ، حين كان الرسول بحاجة الى مبلغ يضحى به ليدفع عنه عداة قريش . ويخصص قسم رابع لك رقاب العبيد ، أي ابتغاء حريتهم من اسياهم ، بينما جعل الخامس للغارمين ، أي الذين ترتبت عليهم ديون بسبب قيامهم بنصرة الدين ؛ وخصص القسم السادس للصرف على المتطوعة للجهاد والمصاريف الناجمة عن حرب الكفار ؛ وجعل جزء سابع للصرف على جميع المؤسسات النافعة للجماعة الاسلامية وصيانتها ، والتي اسست في سبيل الله . وأخيراً كان هناك جزء لابناء السبيل أي المسافرين الفقراء .

إن ضريبة فردية كهذه يدفع سبعا فقط لمصاريف الدولة ، هي بشكل ما نوع قديم من الضرائب ، لذا وجب تغييرها منذ بداية الاسلام ؛ لكن الزكاة استمرت تحت اسماء عدة وصور متباينة ؛ وهي صمود ثابت في بناء الاسلام ، ولا يمكن ان تزول مادامت الشريعة نافذة في بلاد الاسلام .

وعلى ان لا تخلط بين الزكاة التي اوجزنا مبادئها العامة ، وبين زكاة الفطر التي يدفعها المسلمون عند انتهائهم من رمضان والتي تحدثنا عنها قبل قليل .

وقد الفكر الاسلامي رقاداً عميقاً لمدة قرون ، لكن الاعمال الدينية استمرت مرعية بدقة . فالصوم الذي ادى الى نوع من الرقابة المتبادلة بين الناس ، روعي بشدة في المدن على وجه العموم . والحج الذي نظمته وأشرفت عليه الحكومات لاسباب صحية وسياسية ما زال يجذب جميع الذي يستطيعون اليه سبيلاً . ويتهاون أهل المدن

نوما ما في واجب الصلاة ، إلا أنهم يهرعون إلى صلاة الجمعة مزدحمين عليها . أما في البادية فإن الناس أقل التفاتاً إلى الدين . والبدو اليوم يهيدون عن أداء واجباتهم الدينية ، وإذا استثنينا مناسبة مرور قافلة يؤلفها سكان المدن في الصحراء ، فليس أغرب في هذا المجال من أداء واجب الصلاة الخاشعة فيها .

المصادر

Juynboll Handbuch ; Gaudefroy - Demombynes -
Pelerinage; Wensinck : Salat E. I. 4 ; Pedersen maedjid,
E. I. ; Berg : Sawm, E. I Schacht : Zakat, E. I.

الفصل السابع

الخزينة

الخليفة . الادارة المركزية والولايات . الجهاد . الجيش .
الضرائب . الزكاة . الخراج . المكوس . أهل الزمة .
الاجانب .



إن الوظيفة الاساسية لرأس الجماعة الاسلامية ، هو أن يكون
أمامها ، أي الذي يؤمها في الصلاة ، وهي الفريضة اليومية . ولم
يتأخر الرسول عن اشغال هذه الوظيفة إلا في حالات الضرورة
القصوى . وحيث انه جامع للسلطة كلها في شخصه بوصفه ناقلاً
للکمة الالهية ، نراه قد اناب عن نفسه في حالات الضرورة أحد
اتباعه ومنحه حق امامة الصلاة ، ورأسه الحج أو العمرة ورفع
لوائه وقيادة جيش المسلمين . وعند وفاته ، كما أشرنا الى ذلك من

قبل ، لم يحدث ما يؤكد على وراثته الامامة من بعده : وكانت هذه الامامة كنتاج لانتخاب طاريء أصبح بحسبه أبو بكر امام الجماعة الاسلامية بالقب خليفه النبي ، أو خليفة رسول الله ، واحتفظ بهذا اللقب الامام الاعلى وهو الخليفة ، إلا انه سرعان ما تحول الى « خليفة الله » (١) .

كان الخلفاء الاوائل صحابة الرسول جاءوا الى الحكم دون أية قاعدة . أما معاوية فقد جمع في نفسه بين التقليد البدوي الخاص بانتخاب الرئيس عن طريق زعماء القبائل وبين التراث البيزنطي الخاص بالنظام الوراثي . إلا انه استطاع بعد معارضة أن يعلن ابنه يزيد ولياً لمهدده باجتماع عقده بين رؤساء القبائل والشخصيات البارزة للجماعة الاسلامية . وبعنائه العرش أصبح معاوية يتمتع بنوع من الاحترام هو أن يلمس يده من حوله ، وتطورت هذه العادة في زمن العباسيين فأصبح الناس يملكون يد الخليفة . وأدى تعيين ولي العهد وتجزئة الامبراطورية في الخلافة كما في غيرها الى فوضى واضطراب خطيرين . وقد بينا فيما سبق - في الفصل الثاني - ان الافكار المختلفة التي انبعثت في الجماعة الاسلامية الخاصة ، أدت الى انقسام هذه الجماعة الى سنة وشيعة وخوارج .

إن قوة الخليفة محددة تماماً : فهي الوراثة التي انتقلت من النبي الذي كانت له هذه القوة بسبب سلطته الشخصية وبسبب مكانته كمرسل من الله ؛ الى جانب هذا استطاع النبي أن يحتفظ بشيء من صفات الشيخ في بلاد العرب القديمة ، وصفات الحكم وحامي التقاليد

(١) زمن العباسيين .

المأثورة ، ومع ذلك لم يكن قائد الحرب الذي يقود جيوش الله ضد الكافرين ؛ انه لا يعمل أكثر من منح جنوده بركة هي نوع من قوة علوية خارقة للطبيعة . وكحاكاة للرسول عقد الخلفاء الأوائل اللواء لامير الجيوش ؛ ولم يقم أبو بكر وعمر وعثمان بأية مشاركة فعلية في الحرب . لقد كانوا الامناء على حماية شريعة القرآن والسنة كما كان خلفاؤهم أئمة على نفس الشريعة كما نظمها الفقهاء والقضاة .

ولئن لم يكن الخليفة الاموي الملك الذي يبالي بالشرعية الالهية أو الذي لا يزدري السنة النبوية المأثورة كما صور ذلك المصنف العباسيون ، فانه على أية حال كان السلطان القوي الاهتمام بالمحافظة على المنافع الدنيوية للجماعة الاسلامية ، وتنظيم الدولة بالتعاون مع الشعوب المفتوحة . لقد كان عند هذا الخليفة الاموي احساس بالغير العام « المصلحة » . أما الخليفة العباسي فقد ادعى بأنه محي السنة النبوية الخالصة ، وانه سيعيد الى الامامة قيمتها الدينية بتأديتها ، إلا انه كان في نفس الوقت وارث ملك الملوك الساساني [شاهنشاه] واعتبر نفسه عاهلاً كفوّاً للامبراطور البيزنطي ؛ لذا أسبغت عليه رعيته أهمية كادت تكون إلهية ، تعارض بصورة غريبة للسلطة التي اشتهر بها عمر بصورة مستفيضة . ولم يعد الخليفة العباسي مجرد امام يقود الجماعة الاسلامية الى الصراط المستقيم ؛ بل لقد أصبح سلطاناً يشرف على حكم رعية خاضعة له . اما سلطته فكانت مطلقة مادام قادراً على ممارستها . ومن الطريف أن نقبس صوراً من المؤرخين فنقابل بين معاوية كزعيم قبلي جاهلي يستقبل زواره

ببساطة مألوفة . ويحكمهم بمجرد معرفته لاخلق الناس وابقسامته
الساحرة لا اعتداده بنفسه ، وبين هارون الرشيد كنصف إله يستوي على
عرشه بعظمة يحيطه حرسه ورجال بلاطه كملك يسجد الناس بين
يديه ، ويلبون طلباته كما لو كانت تعبيراً عن إرادتهم الخاصة ، مادام
السياف شاهرأ سيفه طول الوقت وراء الخليفة ، الذي يلبس البردة
وخاتم النبي ، ويعلم للملأ بكل جلاء أمجاد التراث الديني وأبهة
الوراثة المقدسة .

ينيب الخليفة عنه في ممارسة جزء من هذه السلطة غير المحدودة
عمالا كانوا يمارسونها بأنفسهم أو يحولونها الى نواب عنهم : فاقامة
صلاة الجمعة والخطبة تخولان الى الإمام في حين ان الحكم بالشرعية
القرآنية تسلم الى قاض وجباية الضرائب الى عامل ، وامارة الجيش
والادارة العامة الى أمير . واعتماد الخلفاء العباسيون العظام دائماً
شأنهم شأن لويس الرابع عشر أن يمارسوا سلطاتهم الملكية سواء
كانت في مصلحة الشعب او في غير مصلحته فيترأسون مجالس الدولة
بصورة منظمة ، ويعقدون مجالس استشارية ، ويوقعون بأنفسهم
على أكثر القرارات أهمية أو يطلعون عليها . أما كتاب السر أو
سكرتير الدولة الذين ازداد عددهم بصورة مطردة فهم الذين
يعدون وينجزون إرادات الخليفة ، وقد تركزت فيهم إدارة
الاقاليم وضبطها والاشراف على واردات الامبراطورية . لقد كون
هؤلاء الكتاب طبقة كان أكثرها أول الامر من اهل الذمة ، وبهذا
اختير افرادها من المؤمنين الجدد الذين تيسر تعاليمهم لتوفر المؤلفات
التثقيفية المهمة والذين عاشوا عبثة بذخ داخل قصورهم ، في حين
كانوا يحذرون في الظاهر من العامة الشديدة الحسد لهم . وخلال

حكم الخلفاء العباسيين الاوائل لم تكن للوزير أية سلطة معينة ؛
فهر مساعد لسيده ومشاوره ويده اليمنى ومرافقه في كل حين ،
وهكذا كان الوزير في الحقيقة بنفس الصورة التي اظهرته بها « الف
ليلة وليلة » وهو يعمل على توفير المتعة لمولاه الخليفة في سهراته .
وكان الوزراء الذين طبقت شهرتهم الآفاق في الايام الذهبية للعصر
العباسي أى البرامكة من الفرس . وفي بعض العصور منح لقب
« حاجب » الى الشخص المكلف بـ « حجب » الامير عن رعاياه
احيانا ، أو التوسط بينه وبينهم احيانا أخرى ، وقد اتخذ الحاجب
مظهر وزير مطلق السلطة .

ومنذ القرن « ١٠ م = ٤ هـ » تدخلت شخصية غريبة بين
الخليفة وبين حقه في استعمال سلطاته فاقصر امره على الاقب فقط
وكان لهذه الشخصية لقب امير الامراء ثم سمي بعد ذلك بالسلطان .
في هذه الامبراطورية التي نظمت بهذه الصورة لم يحتفظ بوحدة
التوجيه إلا نظريا في حين اعطي للحكام في نفس الوقت كل حرية
في انجاز الاعمال . وعلى الرغم من وجود ديوان البريد الذي أسسه
أو اعاد تنظيمه الامويون ، نرى ان الاقاليم قد بعدت جدا عن
دمشق وبغداد بحيث ان حرية الحكم التي منحت لولاة الخليفة مالت
شيئا فشيئا الى الاستقلال . ونشاهد ان الخلافة في ايام عزها قد
امتدت كثيرا وعاشت فيها شعوب مختلفة كثيرا عن بعضها في
نزعاتها ولغاتها بحيث لا يمكن ان تندمج وتتوحد تحت امرة
حكومة لم يكن لها اتصال وثيق بشعوبها ، هكذا اصبحت حكام
الاقاليم الواحد بعد الآخر ملكا او سلفانا مستقلا يدير بحرية جانبا
من العالم الاسلامي ، وينقل سلطاته بحسب القواعد النظرية السالفة

الذكر . الا ان هؤلاء السلاطين لم يبعدوا انفسهم عن الجماعة الاسلامية : واتخذوا لقب امير المسلمين كذلك ، ومع انهم ذكروا اسم الخليفة في خطبة الجمعة بعد اسمائهم إلا انهم رفعوا من الخليفة اكثر مما فعلوا باسمائهم . هكذا لم تنقسم العرى التي توحد مختلف اجزاء الجماعة الاسلامية ، تلك العرى التي يجب ان نفهم جيدا انها ليست دينية فقط ؛ ذلك لان الحكماء الجدد استمروا نظريا على اتحاد قام مع بقية اجزاء اميراطورية الخلافة . اما السلطان المحلي فاستمر ممثلا صوريا لامير المؤمنين .

يقدم لنا التاريخ الاسلامي بعض امثلة طريفة عن استمرار صورية الخلافة هذه ، من ذلك سلطنة المماليك في مصر . اذ صادر هؤلاء السلاطين لمصلحتهم الخليفة العباسي الذي استقر في القاهرة دون أن تكون له أية سلطة فعلية ، واكثر من هذا كان تحت رحمة المماليك في الواقع ؛ إلا انه احيط مع هذا بكل مظاهر التبجيل التي تتمتع بها اسلافه في بغداد . وقد اعطى وجوده المماليك امتيازات تحلوا به ازاء بقية حكام المسلمين والملوك الاجانب . واننا لنعرف جيدا سياسة المماليك ودبلوماسيتهم حينما نشاهد اثناء ممارستهم الحكم فيتبين لنا انهم يعملون على الاحتفاظ بالصورة المزخرفة لوحدة الجماعة الاسلامية موجبين ذلك لمصلحة انفسهم عن طريق الخلفاء .

لقد استرجعت الخلافة سلطتها الجامعة على يد السلطان العثماني في اسطنبول ، فكسب السلطان طاعة جميع الولايات . لكن مصر تقف مثلا للجمود التي رمت الى الاستقلال الذاتي والتي بذلتها المقاطعات ذات الشخصية الجغرافية والتاريخية ، والتي ادت في هذه الحالة ، منذ القرن الماضي الى ما يشبه الاستقلال . وقد ورث السلطان

العثماني فوق ذلك جزءا صغيرا فقط من الامبراطورية الاسلامية القديمة ، التي تجزأت منذ ان دخل الترك الى العالم الاسلامي . ولم تكن فارس الشيعية وحدها قد حكمها احكام لم يعترفوا بالخليفة العثماني ، ولم يمنحوه حتى ظلا من السيادة ، بل وكذلك نجد هذا في عمان الخارجية ومراكش الشريفة والهند وغيرها .

ولم يبق من الوحدة العظيمة تحت حكم الخلفاء التي تبعثت بسرعة والتي لم يحياها العثمانيون الا جزئيا ، لم يبق سوى الذكرى ، وشعور غامض بوحدة الدين الذي حدده وطفى عليه الشعور القومي حديثا . واذا نظرنا الى العالم الاسلامي وجدناه كله تقريبا تحت ظل من النفوذ الغربي اما مباشرة أو عن طريق التحالف ، وستحصل مصر في نهاية صراعها الحالي على استقلالها التام ، ان استطاعت الذود عنه ، ولم يأت استقلال بلاد العرب الا نتيجة فقرها الاقتصادي ؛ اما ايران فتعيش في ظل وضع متأرجح قلق ، وليس غير تركية التي ستثبت مكانها كدولة حديثة وتلعب دورها بين خصوم متساوين في مقدار اهتمامهم بالتحالف معها والعمل على حمايتها جزءا ذلك ، حماية لن تجد تركية مناصبا عنها .

ان دواليب هذه الماكينة العظيمة كانت بسيطة ومتنوعة في نفس الوقت : فلكل اقليم عاداته ، وتعرض كل قرن لانواع من التأثير الخارجي . واذا حاولنا هنا ان نصف ما يوجد بين جميع افراد الامبراطورية لا ما يهرق بينهم ، ولو أردنا ان نتبين ما هو اسلامي لا ما يمثل التراث المحلي ، فاننا لا نستطيع ان نتعاشى الرجوع الى الانظمة الاجتماعية الاولى لبلاد العرب حيث ظهر القرآن ونشأت السنة النبوية .

السنة النبوية .

خلال القرنين الاولين من الاسلام ، كما هو الحال قبل محمد كانت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية الطبيعية السوية . وبقى الفاتحون يتبعون تنظيمهم القبلي سواء كان ذلك في أجناد سورية أو في المدن الجديدة في العراق ومصر ، واحتفظت هذه الجماعات المتشعبة بكل ماضيها القديم من حيث النسب والتآلف والتباغض وصور الآثار الماضية ، كل هذا كان له آثار سيئة على حياة الجماعة الاسلامية لا سيما في سورية والاندلس .

ان القبائل هي مجموعات مؤلفة من عدد كبير أو صغير من الاسر وأصولها غامضة ، أما الاخبار التي تصف القبائل فهي في الغالب قصصية وغير واقعية . وقد حطم الاطار القبلي الاصلي : فتجزأت القبائل الكبيرة ولا نجد أسماءها اليوم سوى عناوين ظاهرية تطاق على مجموعات ضعيفة . وهناك تشكيلات أخرى انحدت معاً مكونة أحياناً من عناصر مختلفة جداً ، وقد انبثقت قبائل جديدة من جراء ذلك لتحتل لوقت قصير « مسرح العالم » .

للقبيلة العربية زعيم ، سمي قديماً بالسيد أو الشيخ ، أما اليوم فيسمى بالشيخ أو القائد . ومن ناحية تاريخية ، نجد رئيس القبيلة هو رب إحدى العائلات استطاع بشجاعته في الحرب وبحلمه وفصاحته في الاجتماعات وكرمه أن يفرض نفسه على الجماعة من أفراد قبيلته . وما على الفرد الا ان يعيد قراءة أيام العرب قبل الاسلام ليقف على مكانة رئيس القبيلة في هذا العصر : ولستنا في حاجة الى تغيير للملاحح كثيراً لنلتقي بالقبيلة البربرية أو التركية . هكذا نجد في بداية الخلافة بين الحضر كما بين البدو ، في

المدن العسكرية الجديدة ، البصرة والكوفة والفسطاط ، كما في الصحراء ، نجد ان الخليفة أو ممثله يتصل بجمهور الناس عن طريق زعماء القبائل . وهو يؤكد ويؤيد تعيين الرئيس ، ويزوده بسلطة عسكرية وادارية ومالية يمارسها هذا باستقلال ولا يتقص من شأنه الا اذا عزل أو اغتيل . وبالنسبة لبعض الحكام العرب نجد ان الثمن العالي للقب الشيخ هو عزلهم بعد بضعة سنوات دسمة وسجنهم ومصادرة أملاكهم ، ويبدو ان مثل هذا الثمن هو حادث اعتيادي وتدير حكيم . لكن في بعض الاحيان نجد ان تعيين الخليفة لرئيس القبيلة هو مجرد عمل لا أهمية له : اذ لا يكون للشيخ من سلطة غير ما لديه من نفوذ شخصي ورضا انداده عنه .

ان تحول الشعوب المفتوحة عن دينها ، أدخلها ضمن التنظيم القبلي ، لكن هذا جرى في وقت كان هذا التنظيم في بعض أجزاء الامبراطورية قد بدأ يفقد شيئاً من قيمته الاجتماعية ، وحين كان بناؤه أثناء ازاحة السكان واختلاطهم ، قد بدأ يصبح مصطنعاً اكثر فأكثر . ان جماعات المدن ، والاقطاعات الكبيرة التي ظلت في ايران بيد الطبقة الارستقراطية القديمة (الدهاقين) ، والاقطاعات الجديدة التي أوجدت لمصلحة المقربين الى الخليفة ، واندماج الافراد الذين تقاربوا بفضل اعتقاداتهم أو مصالحهم في جماعات ، كل هذه حلت في كثير من الاماكن محل التنظيمات القبلية القديمة . وفي خضم المنافسات الدينية والاجتماعية والاقتصادية ، كان على الخلفاء ادارة المساحات الاقليمية الشاسعة التي رسمتها على خارطة الامبراطورية الضرورات الجغرافية والسياسية .

في كل من تلك المقاطعات يعمل الحاكم بمساعدة هيئة من الموظفين

ودواوين فرعية مصغرة لبلاط بغداد . وكان واجبا الرئيسي
حفظ النظام وجمع الواردات السكافية لارضاء الخليفة ، في حين سمح
للحكام بالاستقلاء على جزء يرضى مطالبهم .

خلال هذه الادارة الواسعة ، لا نجد شيئا مخصصا للصرف على
المشاريع الانتاجية والاعمال العامة (كالطرق والجسور والقنوات
والري الخ) كما في الامبراطورية الرومانية رغم تنظيمها الدقيق
وكما في الدول الغربية في العصور الوسيطة ، نجد ان الجمعيات المحلية
الثابتة والموقفة ، هي التي نشرف على بناء او تعمير المشاريع الضرورية
لحياة الجماعة ؛ ومع هذا فان بعض الحكام احتذوا احتذوا الحجاج
واشرفوا بانفسهم على الاعمال العامة وغذوها بالمال ؛ وحتى الخليفة
قد يهتم أحيانا بمشروع يمس عن قرب مصالحه الخاصة .

مع هذا فقد كان الامل في الثواب في العالم الآخر يدفع الحكام
والشخصيات العظيمة بحماس شديد الى ارجاع جزء من الممتلكات
التي حصلوا عليها بطرق مشروعة نظريا الى الشعب في صورة مشروعات
نافعة : لان الاسلام يعترف باعمال التقوى ويدعو اليها . هؤلاء
الافراد شادوا المساجد وعملوا على فتح قنوات ومخازن للمياه ليقتنع
بها حجاج الحرمين ، كما اقاموا جسورا ومحطات للاستراحة
ومدارس وزوايا للصوفية ومستشفيات ، وعملوا في نفس الوقت
على ضمان استمرارها عن طريق خيرات الوقف .

يشرف الخليفة على عماله ويجعل نفسه محيطا تمام الاحاطة بدقائق
الأمور صغيرها وكبيرها ، دون ان يهمل القضايا الاجتماعية بفضل
دوائر جاسوسية دقيقة العمل . ان ديوان البريد التابع للخلافة الذي
يحمل بمرعة عبر الامبراطورية تقارير الخليفة وأوامره ، نظمه

الخليفة الاموي عبد الملك مقلداً ولا شك النموذج البيزنطي . وتنفق
الامبراطورية طرق عديدة أقيمت على طولها محطات دعيت بالمنازل
فيها خيول يعتنى بها في الاسطبلات سواس مهرة ، وبعد ان يقادر
حامل الرسالة العاصمة أو دائرة أحد الولاة ، يجد في كل محطة
حصانا جاهزاً مستريحاً يبدله بحصانه المتعب ، بل يجد رسولا
آخر اذا كان هو غير قادر على ان يستمر في سفره . هذه المحطات
يستفاد منها لسفريات الخليفة وموظفيه الكبار . ويصف لنا ابن
خر داذبة وكتابه من أقدم الوثائق الجغرافية العربية طرق البريد
وهو خير مرشد لدراسة هذا الموضوع . ان ادارة مصالح البريد ،
التي لعب عملها دوراً كبيراً في ضبط وتنظيم الامبراطورية كان
يستند الى أحد الموظفين الذين يثق بهم الخليفة .

ومنذ وقت غير محدد ، استعمار العرب من الفرس فكرة البريد
بوساطة الحمام الزاجل : وقد استكمل هذا النوع من البريد أيام المماليك .
وتقام البروج في موضع يختارها ويعتني بها عمال خاصون ،
وتكون محطات المغادرة ووصول الحمام الزاجل التي يحملها فرسان
البريد على خيولهم .

يقود الخليفة الجهاد اي الحرب المقدسة ضد الكفار ، لحملهم على
اعتناق الدين الاسلامي ، او استرقاقهم ، أو قتلهم ، أو اجبارهم
آخر الأمر على دفع الجزية . ومع ان العلماء المسلمين يعتبرون الجهاد
فرضاً واجباً على جميع المسلمين الا انهم غير متفقين على قيمته الدينية
ولا يجعلونه جميعاً ركناً من أركان الدين الخمسة . وأصول الجهاد
توضح هذا التردد . فقد كان الرسول في بداية دعوته في مكة
ضعيفاً جداً ولم يزوده القرآن بسلاح سوى الصبر والثقة بالله .

لكن بعد الهجرة الى المدينة هبط الوحي بحث المسلمين على ان
يقاوموا بقوة السلاح اولئك الذين طردوهم من ديارهم وأرادوا
هم الشر (ق : س ٢٢ ، ٢٩ ، ٤٢) : وبمناسبة غارة قام بها المسلمون
لخرق المدينة الجاهلية في الأشهر الحرم ، أمرهم القرآن (س ٢ .
٢١٢) ان يقاتلوا . ومنذ فتح مكة (٦٣٠ م = ٨ هـ) أخذ
القرآن يكرر دعواته الى حرب اعداء الدين . وقد قام الحديث
بتنظيم الحرب المقدسة وثبتها في صورة الفتح . وفي علم كل محارب
مسلم ان الملائكة تحارب الى جانبه كما فعلت في بدر .

ليس الجهاد فرض عين بل هو فرض كفاية ، لا يطبق
على الفرد مادام هناك عدد كاف من المحاربين يأخذونه على عاتقهم .
ان طبيعة البدوي الاستقلالية وجدت في هذه الخدمة الاختيارية نلبية
قلبية لرغباتها . وفوق ذلك كانت القاعدة ان كل محارب يجهز
نفسه بأسلحته الخاصة ودابته ، والا فيحصل على الدابة من
مخازن الصدقة . وهو موعود بثواب عظيم في الدنيا والآخرة .
ويستطيع ان يترقب موتاً مجيداً يجعله شهيداً في سبيل عقيدته
ويضمن له الى جانب مسرات الفردوس مسرة عاجلة يجدها على أبواب
الجنة الخالدة التي أوحى له الاعتقاد الشائع ان يراها في صورة طير
يطعم من فاكهة ناضجة أبداً من شجرة خضراء أبداً . كما انه ينتظر
غنائم كانت في فترات الفتح الاولى هائلة . وتقسم أربعة أخماس
الغنائم بين المحاربين ويحصل الفارس على ثلاثة أسهم . وفي عهد
المدينة كان الخمس الباقي لله (ق : س ٨ ، ٤٢) ، والرسول ولذي
القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، وهذه طريقة من
الكرم تتلاءم مع ما اثر عن شيوخ النبائل في بلاد العرب القديمة

وبعد عهد المدينة قسمت العقيدة الخمس هذا الى خمسة أجزاء توزع على الفئات الخمسة التي حل فيها الخليفة محل الرسول . ولم يقتصر الامر على مجرد غارات عقيمة بل أصبح الهدف فتوحا متوالية ، تؤدي الى اخضاع الناس والاستيلاء على الاراضي المزروعة (١) كما ان الروح التي اتضحت فيهم معرفة الحقائق والتي امتلأت بشعور طبيعي عن قيمة الحياة الانسانية ، جعلت الفاتحين يحترمون حياة المفتوحين بل ودفعتهم الى عدم استرقاقهم لاسيما وانهم لم يكن المهملون بحاجة اليهم . وقد كان المهمل عذرا مفاوضة السكان الاصليين للتعاهد معهم واخذ ضريبة منهم تكون قدية ثابتة عن ارواحهم وممتلكاتهم ؛ هذه الضريبة كانت تدفع عينا (من التمور والانسجة والاسلحة والعطور والرقيق . الخ) او من الذهب والفضة ، وقد حددت بعدئذ بشكل ضريبة ارض هي الخراج واخرى شخصية هي الجزية . وبدا من الاحكم معاملة الناس معاملة الوالد البار واخذهم بالعمل لصالح الجماعة . وادخل فتح سورية كذلك تحت حكم الاسلام شعوبا كانت في الاغلب نصرانية او يهودية استفادت بالتالي من الاعفاء الذي وضع لمصلحة اهل الكتاب ؛ وقد ادخل مع هؤلاء المجوس والصابئة ايضا . واخيرا اكتشفت صيغة أبسط للتفريق بين الكفار الذين استسلموا صلحا والذين قطع لهم المسلمون عهدا بمحبتهم ، وبين اولئك الذين فتحوا عنوة وعوملوا بالسيف واسترقوا . ومرة أخرى نجد عاطفة جمعت بين الاحساس

(١) ان دارس تاريخ الفتوحات الاسلامية يلاحظ ان الهدف الرئيسي للمسلمين كان نشر العقيدة بالدرجة الاولى ، كما اثبت الفاتحون المهملون انهم كانوا اكثر تسامحا من غيرهم من الفاتحين .

العملي وبين الرحمة التي قررّها الحديث وأمر بها المسلمين ان يحترموا الغلات والاشجار ومشاريع الري ؛ هذا الاهتمام بالمحافظة على الاشياء والذي هو كريم وحكيم معها مشوق جداً اذا قارناه بعادات الشعوب البدائية التي تفكر قبل كل شيء « بالتهام » عدوها .

على امام الجماعة الاسلامية واجب القيام بالجهاد ضد شعوب « دار الحرب » المجاورة تماماً « لدار الاسلام » . وعلى قادة الجيش ان يتأكدوا ان تلك الشعوب على علم بما ديه الاسلام وهم يرفضون اتباعها ؛ فاذا كان ذلك كذلك ، فمن الضروري محاربتهم . فالحرب المقدسة اذن دائمة على حدود الاسلام . ان الخليفة العباسي الذي عرف جيداً كيف يجيد الدور الذي عليه تمثيله ، قام كل عام بغارة بيزنطية : وقد شجع المتطوعة الذين أطاعوا الشريعة بنشوع على ان يقيموا في الربط في الاقاليم البعيدة حيث يحبسون هالك حياة رهبان محاربين : وفي فترة معينة حين امتلأت صفوف جيش الخلافة بالمرتزقة قام المتطوعة بالحرب المقدسة في الحقيقة بدورهم القديم كمدافعين عن العقيدة .

ان الصلح الحقيقي بين المسلمين والكفار أمر مستحيل ؛ وهذه فكرة نظرية ومطلقة لا تستطيع ان تقف في وجه الحقائق ، لذلك كان يجب إيجاد « الحيلة » الشرعية لعقد اتفاق غير ملائم للمسلمين يمكنهم نقضه متى ارادوا . لقد جوّز الدين لامراء المسلمين عقد هدنة أو مهادنة مع الكفار مدتها القصوى عشر سنوات ، في حالة ضعف الدولة الاسلامية ضعفاً شديداً ، وبشرط أن تكون الهدنة لمصلحتهم . والمسلمون احرار في خرق هذه الهدنة اذا شاءوا على أن يكفروا عن نقضهم ميثاقهم .

الجهاد « جهد » و « غيرة » على الدين ، مما دعا السنة الى أن تعتبر الحج جهاداً يعني مجاهدة إمام الجماعة الاسلامية ضد المسلمين الذين يلبسون أصول الدين الخفيف . قام الفاطميون بحرب في سورية باسم الجهاد ضد الخلفاء العباسيين وضد الحمدانيين ؛ والجهاد هو الذي برر شرعاً مطاردة المراتقة .

أن جيش المتطوعة وهم جمهرة المجاهدين الذين امتلأوا حماساً للفتح ، سرعان ما أصبحوا بالنسبة للخلفاء الامويين عوناً خطراً مشكوكاً فيه ، لذلك حاولوا أن يقووم بقوات نظامية دائمة ، هكذا اقتبسوا أنظمة البيزنطيين العسكريين العسكرية وهي الاجناء وكان على العرب أصحاب الاراضي أن يزودوا الدولة بعدد من الجند . وقد سجل هؤلاء في سجلات دواوين الجند برواتب معينة اضافة الى حصصهم من الغنائم . في هذه الجيوش « الشامية » المؤبدة المبيعة للامويين كان نظام القتال قد جعل على غرار تنظيم الاعداء ؛ لقد هجرت عادة تنظيم الجنود في صفوف تجري في مقدمتها المبارزات الفردية التي وجد العرب القدماء فيها مجالا للمفاخرة ؛ وحل محلها نظام الكراديس التي لكل منها فردية الخاصة . وقد أدخل الموالي إلى الجيش . ومنذ العهد الاموي كانت هناك قوات مرتزة .

وجد الامويون في طاعة أهل الشام — أي العرب القيمين في سورية قوتهم الرئيسية . في حين كان عماد العباسيين في حماية أنفسهم تلك القوات التي جاءت بهم الى الخلافة ، وهم العرب الموجودون في الولايات الشرقية والذين أصبحوا تحت النفوذ الفارسي ، وكذلك الموالي الفرس أو الذين دعوا بالخراسانيين . وهؤلاء كأهل الشام انصار الامويين من قبلهم ، سرعان ما استنزفوا كل قابلياتهم الحربية ،

مما اضطر الخلفاء الى الاعتماد على المرتزقة الاجانب الذين أصبحوا بعد وقت من الزمن سادة الامبراطورية . بهذا الشكل الف الترك ارستقراطية عسكرية قسم أفرادها الولايات فيما بينهم ، حتى جاء العثمانيون فأعادوا بناء الدولة الاسلامية بالشكل الذي اتفق ومصالحهم الخاصة كما نظم المالك في مصر جيشا ذات نمـ وذج أصيل ، حوى مجموعات من الرقيق اشترى من الاسواق ، ومرتزقة من عبيد محاربين غدوا أصحاب اراض واضيف اليهم أيضاً جماعات غير معجانة من السكان الاصليين .

وإننا لنجد الجنود القدماء المجاهدين بين المتطوعة الذين حاربوا على الحدود . وفي القوات التي نظمها هارون الرشيد نجد على استعداد للقيام بغارات أو المساهمة بالحملات السنوية ضد البيزنطيين . وفي جميع مراكز الضعف على اطراف البلاد الاسلامية نراهم يملأون الربط ، وهي المعسكرات التي تربط فيها الخيل دائماً على استعداد لكي تخرج للمعركة . وبعد حين أصبح الرباط نوعاً من حرمون العبادة يعيش فيه رجال قد نجد بينهم زهاداً محاربين ساهموا في الحروب الصليبية بعدئذ . اما المرابط فهو الرجل الذي يعيش في الرباط .

ومنذ بدء تنظيم الجيش بشكل ثابت قسم الجنود الى جماعات على الطريقة الرومانية في عشرات ومئات والوف وعشرات الالوف وقد استرجع الاثراك هذا التقسيم كما فعل المالك أيضاً وسلاطين مراکش وغيرهم . واستعملت الالفاظ القديمة لتلقيب ضباط مختلف الوحدات بادئة بصغر رتبة ، عريف ، نقيب أو خليفة ، قائد ، أمير .

هكذا نجد الجيش الاسلامي يتكون في العصور القديمة ابتداءً

من أواخر القرن (٩٠٠ م - ٩٣٠ هـ) من فترات مرتزقة وقوات موقعة
تجند من السكان الوطنيين حسب قواعد مختلفة .

هذا هو التنظيم الذي يكون في كل مكان ضروريا واجبا في
ظروف مماثلة وفي مراكش الحديثة قبل الحماية الفرنسية مباشرة ، كان
السلطان يقوم بغارتي الربيع والخريف اللتين منحتاه شيئا من السلطة
وزودتاه ببعض الموارد المادية ، ولهذه الغارات كان يجمع فرسانا
موقعين حول جماعة من القوات الدائمة . لكن جيش السلطان هذا
لم يكن ذات تكوين موحد ثابت ، اذ عند بدء تشكيل أية أسرة
حاكمة كانت قبيلة السلطان نفسه والشخصيات الرئيسية من القبائل
المخالفة هي التي تكون نواة جيشه . والمصلحة الشخصية لهذه العناصر
هي التي تضمن طاعتهم ، لكن تأمرهم يكون خطرا دائما على طمأنينة
حاكمهم الذي لا يلبث أن يكتشف ذلك . ومن ثممة يوجد حرسا
مرتزقا يخلص نفسه له مادام يجد انه معزول عن الحياة الاجتماعية
المحيطة به . وهو يؤلف هذا الحرس من الاحباش والترك والزنوج
وحتى من غير المسلمين كالنصارى .

في دولة اسلامية فتر فيها الحماس الذي تميزت به الفتوحات الاولى
بتكوين العنصر الاساسي في الجيش من المرتزقة الذين تفرقهم أية
همسة بالناس . او أية اشارة الى الاستسلام .

وقد استولى أولئك الجنود الاجانب على السلطة في فترة اضطراب
معينة في التاريخ الاسلامي ، كالبيرتورين في روما ، واضطراب الحكم
الاقوياء الى اللجوء الى الاعدام بالجملة لينقذوا أنفسهم منهم . وما
مجزرة الانكشارية في عام ١٨٢٦ سوى مثل قريب لهذا الاسلوب .
هكذا صار تجهيز رواتب الجيش منذ أيام العباسيين أحد

الضرورات الملحة في الميزانية الاسلامية ، وقد بين بعض المؤرخين
كإشارة هامة تدل على الادقاع والفقر ان الخليفة في القرن (١٠ م = ٤ هـ)
كان عليه ان يقلص مصروفات مائتته ليلبي مطالب جنده .

* * *

ما زال نظام الضرائب في الاسلام غير مدروس بصورة وافية
وسنكتفي هنا بوصف موجز ، ربما لا يكون دقيقا في كل أجزائه .
خضعت الجماعة الاسلامية من حيث المبدأ لضريبة واحدة هي الزكاة ،
لكن مورد هذه الضريبة لم يكف لملاء بيت المال وذلك لأن جزءاً
كبيراً من منتوج الزكاة كان يبقى لهالة شرعية أو غير شرعية في
أيدي موظفي بيت المال . ومنذ بدايات الفتح الاسلامي وجدت موارد
جديدة هي الغنائم والفيء . وهي الغنائم المنقولة ومخلفات ميدان
الحرب واسلاب المعسكرات والبيوت وغيرها ، ومنها يأخذ الخليفة
الخمس . ثم أدى احتلال البلاد الخارجية الى ان يحصل المنتصرون
مقدارا هائلا من الغنائم غير المنقولة وهي أراضي المغلوبين . وقد
ميز فقهاء المسلمين بعدئذ بين الاراضي المأخوذة عنوة وبين التي أخذت
صالحا . لكن لم يعقيد الذين فتحوا بزنطية وفارس بهذه المبادئ
المحددة ولم تعهدهم هذه التشريعات غير القابلة للتغيير . فقد وجدوا
أمامهم نوعين من الثروات : الثروات الخاصة و ثروات العائلة الحاكمة
واعتنق بعض الملاك الاسلام حالا وأصبحوا هم وأملأهم خاضعين
لنظام الزكاة الاسلامي ؛ لكن في أغلب الحالات احتفظوا بدينهم
وعاداتهم وبالتمتع القلق باراضيهم ، التي فرضت عليها الجماعة الاسلامية
بحق الفتح ، نوعا من السيادة العليا ، وقد جبيت من هذه الاراضي
غير الثابتة ضريبة هي الخراج .

اما النوع الثاني من الثروات فهي مقاطعات الاباطرة البيزنطيين وملوك الساسانيين ، وقد شملت كذلك الاراضي التي كانت منذ مدة طويلة ليس لها مالك او التي هجرت حديثا بسبب فرار اصحابها أمام الفاتحين . وأدى بعد نظر حكام الاقاليم ورغبتهم في حماية مصالح بيت المال الى أن يخلقوا من تلك الاراضي أملاكاً قسمت لافراد من الخاصة فرضت عليها ضريبة تشبه الخراج وتعرف بنفس الاسم : هكذا ضمنت زراعة تلك الاراضي كما تأكد في نفس الوقت وارد المجتمع . وكان على القادرين من سكان المدن غير المسامين أن يدفعوا جزية هي التي يعوض عنها في الريف الخراج .

استمرت هذه الاوضاع في المناطق البيزنطية على شاكلة الانظمة المحلية السائدة ، واتبعت في حالات أخرى تقاليد قريبه منها ، لكن هذه الاوضاع اضطرت منذ القرن (٨ م = ٢ هـ) بفعل تحول سكان البلاد المفتوحة الى الاسلام . من هنا أدى زوال « الكفر » الى زوال الخراج والجزية ، ولما كانت خزينة الخليفة لا يسعها الاكتفاء بالدخل الضئيل وغير المضمون من الزكاة ، لذا نرى انه تقرر ان تستمر الاراضي المفتوحة على دفع الخراج ، مما كان دين أصحابها ، ولم يفرض قانون كهذا بسهولة .

كان الخليفة هو الذي يقرر مقدار الخراج بحسب العادات الجارية قبل الفتح . ويقال : إن عمر وجد ان نظام الضرائب الذي فرضه الساسانيون على أراضي السواد قد حصل بمعدل واطئ جداً وان من الضروري زيادة المعدل . ولقد سهل جباية الضرائب الى حد كبير وجود الاملاك الواسعة ، وأوجدت الادارة شخصية مسؤولة عن ذلك . وجامع الضرائب هذا أي العامل كان مستقلاً عن

الامير ويعينه الخليفة مباشرة . واحيانا كان يعطي تعهداً مكتوباً بان يدفع مبلغاً معيناً لبيت المال ، في حين يأخذ على عاتقه واجب جباية الضرائب . ومنذ عهد هارون الرشيد أمكن الوصول الى مرحلة توزيع الضرائب ، وفي مصر وضعت بالمزايدة . وهناك كما في أي مكان اتبعت هذه الطريقة لمحاولة ملء الخزينة الفقيرة رغم وجود نظام اقتصادي ركيك منها . كما لم يعد هناك تمييز بين العشر ، أو الزكاة وبين الخراج ، فان نفس العامل كان يجبي الضرائبتين .

ولم تكن الضريبة الشخصية ، وضريبة الارض ، هما الشيء الوحيد الذي اقتبسهُ الاداريون الاول للجماعة الاسلامية من الانظمة المالية الناضجة للامبراطورية البيزنطية . فقد فرضوا ضرائب على المسافرين والداخلين والمغادرين أو على المرور في مقاطعاتهم ؛ وعلى الاسواق والاوزان والمكاييل والطواحين والري وهكذا ، وهذه رسوم وصمها الخلفاء بأنها غير شرعية (مكوس) ، لكنهم أخذوا يجبرونها نظراً لحاجتهم اليها . وقد أبدى كل حاكم حين مجيئه الى الحكم ميلاً الى إلغاء المكوس ، لكنه لم يأنف من أن يتركها الى خلفه بعد زياد كيتها . وقد حصل الحكماء على مورد اضافي من الهدايا الاختيارية التي تهدي اليهم في مناسبات الاعياد أو غيرها .

يبدو أن حصصة الخليفة بوصفه ممثلاً للجماعة الاسلامية كانت تحدد مقدماً من جانب القانون والعرف : وحصته الخمس من جميع غنائم الحرب ونتاج المناجم وسلب البحر والبيد الفارين والاملاك التي ليس لها وارث .

نحذرننا عن رمايا الخليفة كما لو كانوا متجانسين مع بعضهم . فن

الضروري أن نوضح بأن هؤلاء ، ينقسمون الى أقسام متميزة فالجماعة الاسلامية مكونة من مؤمنين أو مسلمين هم الاحرار الذين الذين يظل العبيد المحررون بينهم على ارتباط مع عائلة مالكلهم الاصلي وعبيد أوصى القرآن والسنة بتحريمهم . وبين غير المسلمين يعتبر الوثنيون من حيث المبدأ خارج دار الاسلام ، وتجب حربهم على اراضيهم وهي دار الحرب ، لكن الواقع العملي جعل هذه القاعدة مطاطة الى حد ما . وعمل غير المسلمين من أهل الكتاب ، اليهود والنصارى ، والمجوس وبعض الوثنيين ، في أوطان المسلمين معاملة استضعاف اذ فرضت عليهم الجزية .

في بداية الفتح في البلاد البيزنطية والفارسية ، احترم الوضع الاجتماعي والديني لاهل الكتاب . وكان الجائليق ورأس الجالوت (١) أو شخصية مهمة اخرى من هذه الجماعة ، يتولى الاشراف عليها ويحكمها وفقاً لعاداتها الخاصة القديمة . وعلاوة على ذلك كان الذي يستطيع المثل أمام القاضي الاسلامي مع ان شهادته تعتبر غير ذات قوة شرعية . وكانت دية الذي نصف دية المسلم . أما اهل الذمة الذين يتهمون بالتآمر مع اعداء الاسلام فيعاقبون بقسوة ولم تمر عليهم العقوبات المتعلقة بتحريم شرب الخمر .

هكذا نرى ان وضع اهل الذمة أدنى في المرتبة من المسلمين . وقد قاسوا كثير آتحت حكم الخليفة العباسي المتوكل (٨٤٧ — ٨٦١ م = ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) وتحت حكم الخليفة الفاطمي الحاكم (٩٩٦ — ١٠٢٠ م = ٣٨٦ — ٤١١ هـ) إذ وجهت اليهم اهانات مختلفة ، نسبت الى الخليفة عمر الذي لم يكن قد فكر فيها البتة : كان عليهم

(١) الاول رئيس ديني للنصارى والآخر لليهود .

أن يفسحوا المجال للمسلمين في الطرقات واماكن الاجتماع ، ومنعوا من الركوب ، وحتم عليهم أن يحملوا شعاراً معيناً على اكتفائهم ، يكـون لونه ازرق للمسيحيين واصفر لليهود واسوداً لأحرار المجوس ويجب ان تكون بيوتهم اقل ارتفاعاً من بيوت المسلمين . وبعدئذ كانت كنائسهم وبيعتهم التي سمح لهم بالاحتفاظ بها موضوعاً لنزاع حاد ، وقد ازيل بعضها وحرم اصلاح البعض الآخر . بحيث أصبحت خرائب . وقد تسامح المسلمون معهم في أداء شعائرهم الدينية الى الحد الذي لا يعكر حياة الجماعة الاسلامية ، وهو قرار معقول لكنه أدى الى سوء الاستعمال من جانب البعض .

ومع ان غالبية أهل الذمة اعتنقوا الاسلام ، فقد بقيت جماعات هامة في المدن الرئيسية الامبراطورية من اليهود والنصارى الذين ظلوا يدفعون الجزية لكنهم مع هذا احتلوا مكانة بارزة في حياة الدولة الاسلامية . فقد كان طبيب الخليفة يهودياً أو نصرانياً ؛ كما ان أهل الذمة ملأوا الدواوين والوزارات ؛ ومارس آخرون الصيرفة او التجارة ؛ لذلك شعر العامة بالغيظ الشديد القابل للانفجار في اية لحظة على هؤلاء الاشخاص الذين تظاهروا بالنواضع الغام لكنهم كانوا منعمين في حياتهم الخاصة ومتمتعين بالنفوذ في الدولة ؛ وبمجرد أن يدعو الفقهاء بعب العامة منفجرين ضد اليهود والنصارى ان وجود الاجانب غير المسلمين في الوطن الاسلامي أمراً لا يمكن تحاشيه . فعلاوة على السفراء الموقدين من بجانب الامراء الاجانب والذين تمعوا بحماية خاصة فكانوا بذلك حالات استثنائية ، نجد تجاراً اجانب من جميع الجنسيات والاديان وقد كانوا من بعد القرن (٨٨٠ - ٩٢٠) كثيرين في داخل الامبراطورية . وقد وجد

الدين في عادة الجوار العربية القديمة حيلة [وسيلة] شرعية لضمان سلامة التجار الكفار في الوطن الاسلامي ، دون تجريدكم من صيغة الكفر في آن واحد ؛ وقد يعطي الخليفة أووالي للاجنبي أماناً بمنح طريد القانون الذي يحل دمه وماله للمسلمين ، نوطاً من الحماية موازياً لتلك التي يتمتع بها الذي . حاول الدين ان يجعل الناس يعتقدون بان الامان تكون صلاحيته لاربعة أشهر فقط ، أولسنة على الاكثر ، لكن هناك أدلة على ان اقامات أطول من هذه كانت شائعة .

يسافر المستأمن ، أي الكافر الذي بحوزته الامان ، ويتاجر في ارجاء الاقاليم التي يحكمها الخليفة الذي ضمن له السلامة . وظل المسلمون المتمسكون بمبادئهم بشدة يعتقدون بان الاتصال بالكافر غير طاهر ، وانه يستدعي غسلاً تاماً . وسندكر في الفصل الثالث عشر أهمية التجارة الاجنبية في المجتمع الاسلامي .

منذ القرن (١١ م = ٥ هـ) وضعت الظروف بعض الجاعات الاسلامية في وضع مشابه لوضع الذميين تحت الحماية الاسلامية ، وذلك في سورية في المناطق التي احتلها الصليبيون ، وفي الاندلس في المقاطعات التي استرجعها الاسبان . وفي عام (١١٨٤ م = ٥٨٠ هـ) نجد ابن جبير الاندلسي بعد ان تحدث عن نظام التسامح الذي عاش في ظله المسلمون السوربيون تحت حكم امراء الفرنجة ، يقارن هذا بماشاهده بصقلية حيث بلاط الملوك النورمانديين يمتلئ بمحتولين عن دينهم غير مخلصين وحيث يعيش عامة المسلمين بامان ، لكن حيث يقامى رجال الفكر المهانة والذل .

وفي هذا القرن نجد عدد المسلمين الذين يعيشون ضمن الدول

والبكافة ، كبيراً وهم لبسوا مستعمرين . محترمين كما أصبحوا تحت حكم الاسبان حين احتلوا الاندلس فصار المسلمون كالتبسين إلى حد كبير ، ومع هذا فهؤلاء المسلمون المحدثون يعوزهم جانب كبير من حقوقهم المدنية والسياسية .

وهناك فتاوى خوات المسلمين السكن في « دار الحرب » ، على شرط أن يستطيعوا انجاز كل فرائضهم الدينية بحرية .

ليس من الممكن أن نتتبع تطور النظم المذكورة في هذا الفصل خلال القرن والنصف الأخيرين . وفيما يتعلق بالعلاقات الدولية يرجع تاريخ المعاهدات التي عقدها الامراء المسلمون مع الحكام النصراني الى ألف سنة ، وهي معاهدات خرقت كثيراً من قبل الحكام المتعاقبين من الجانبين ، لكنهما مع ذلك أقامت نظاماً سياسياً واقتصادياً نافعاً للفرقةين . ان الاتفاقات التي عقدت خاصة بتنظيم وضع الاجانب غير المسلمين في دار الاسلام والمعروفة باسم الامتيازات الاجنبية خلقت جماعات من الاشخاص المحميين حول قنصل الدول الاوربية . وقد أثرت تأثيراً بالغاً في الحياة الدولية في تركيا ومصر وفارس ودول المغرب . وقد أزيلت حديثاً كنتيجة منطقية للتطور السياسي في العالم الاسلامي . والمعاهدات المعقودة أخيراً منعت دخول الكفار الى المدن المقدسة مكة والمدينة وماجاورهما ماعدا مينائي جدة والحديدة .

أما الاوربيون غير المسلمين ممن دخلوا فعلاً الى المدن المقدسة ووصفوها أمثال (برتون) و (سنوك - هيرجروانية) و (وافل) وغيرهم ، فقد فعلوا ذلك مغامرین بحياتهم . إن تقدم الدراسات

الداريحية بين المسلمين يدعونا الى أن نأمل بأن يأخذ هؤلاء على طاقهم الدراسات الاثرية المطلوبة .

إن الزكاة لم تختف كلية من قائمة الضرائب المفروضة في البلاد الاسلامية ، شأنها شأن الجزية على اهل الذمة . لكن كليهما في اغلب الاقطار الاسلامية قد دجت في نظام مالي واحد على الطراز الاوربي . ويعتبر تطور تركية تاما في هذا المجال كما هو في المجالات الاخرى .

« المصادر »

E. J. Arnold, khalifa, Mez, renaissance, Ibn Hodeil, Traite de djihad; Heffening, islam.

الفصل الثامن

العائذ

الزواج . مراسم . الطلاق . الروح . فك الرقبة .



يجدر بتأنيده الدخول في دراسة عجيبة تفصل بالشروط التي تحكم كلاً من الحياة الفقهية والتراث الديني للمسلمين ، أن نكرر ثانية أن الشرع الاسلامي مادام مشتقاً من القرآن والسنة ، ولا يستطيع أن يفصل الحياة الروحية عن الحياة الدنيوية ، فهو إذن شرع ديني ، كما لا بأس أن نكرر أن هذا الشرع الديني هو النافذ في كل العالم الاسلامي ، وأنه بين حين وآخر تكمله العادات المحلية أو قد تناقضه أحياناً . تلك العادات التي لا تزال تحتل مكاناً مرموقاً في الحياة الفعلية للشعوب ، إلا أننا نستطيع أن نأتي على وصفها هنا . وعلينا أيضاً أن نتذكر أن الروح العربية المسلمة لا تعرف شيئاً عن عادة تجسيد المبادئ في صيغ قانونية بعكس ما كان الامر في القانون الروماني القديم : وقد دعى القرآن والسنة الى

اتخاذ قرار في بعض الحالات الخاصة ، كما استطاع التراث الاسلامي بالقياس أن يفيد من حلول القرآن والسنة لهذه الحالات ، ويجعلها تشمل حالات أخرى مشابهة . هكذا نجد الفقه الاسلامي مجموعة من حالات نموذجية .

لم تكن العائلة المسلمة من صنع عقل الرسول ، ذلك انها هي نفس العائلة العربية الاصلية ، لكنها وضعت في اطار دين علوي . ان العائلة البدوية التي هي نواة القبيلة ، اعتبرت أبناءها الذكور والعنصر الاساسي لحياتها الزراعية ولكفاحها المستمر من أجل بقائها . وقد أكد هذا العنصر خصب الانسال ونظام تعدد الزوجات ، الذي زود العائلة بكثير من الاعمال النسوية . أما عدد الأبناء لدى هذه العائلة أو تلك فقد كان بالتالي امراً من الامة بمكان كبير ، وكان هذا الامر محصل بطريقتين : إما ان المرأة وأطفالها يصبحون جميعاً أعضاء في عشيرة زوجها ، أو تبقى المرأة في عشيرتها الخاصة وتنسب أولادها اليها . وآثار هذه الطريقة الثانية من الزواج وجدت احياناً في القصص التي تصف الماديات القديمة بين البدو ، ويمثلها اليوم المركز الخطير الذي يحتله الخال . لكن في حياة الرسول كان النوع الاول من الارتباط الزوجي اكثر شيوعاً في بلاد العرب ، كما كان طبيعياً مألوفاً في الاقطار الشرقية التي أدخلتها الغزوات والفتوح ضمن الامبراطورية الاسلامية ، والتي اتبعت إما قانوناً رومانياً بزنظياً أو قانوناً سامياً : وهذا النوع من الارتباط هو السائد اليوم في العائلة الاسلامية .

من الصعب أن نتبع المقدمات التاريخية لهذه العادة . فهناك بعض الوقائع المعينة تظهر ان طادات أو تقاليد حياة الزوجية

كانت تختلف في مكة عنها في المدينة ، وهذه الأخيرة معروفة دون شك باليهود ، وتباطأت أول الامر في قبول العلاقات مع المهاجرين أو تنازعت في ذلك ؛ لكن هنا أيضا افلح الرسول في التوفيق بين عادات ومصالح الطرفين .

لا زالت العائلة الاسلامية أبوية يحتفظ رئيسها بسلطته على زوجائه ، وابنائهم حتى الكبار منهم وعلى احفاده أيضا ، وعلى رقيقه الى آخر يوم من حياته . وطفل المرأة المتزوجة يرجع الى زوجها ما عدا الحالات التي يعترض فيها الاخير أو التي يظهر فيها الاخير بالحجة والدليل ان للطفل اصلا آخر .

اعتبر الزواج قبل الاسلام نوعا من البيع ، يقدم فيه الزوج بعد اتفاقه مع شريكته المقبلة ، الى أبي زوجته كنية من المال دعيت بالمهر . وقد صان الزواج الاسلامي هذه الانماط القديمة ، إلا ان المهر يلزم تقديمه الى الزوجة ، بوصفه تعويضا عن تنازلها عن شخصها .

تحصل الخطبة في الزواج بعد مباحثات ومداولات دقيقة يلد للنساء ان يشاركن فيها : وغالبا ما يكون الزواج بين ابناء العم ومتفقا عليه منذ مدة طويلة ، ولجانية الرضا يستعين طالب الزواج بشخص ذي منزلة يستطيع اعنده من جاه ان يحقق مطلبه بنجاح . وعند تدبير الشؤون المالية بين العائلتين ، يعين تاريخ عقد النكاح وهذا يفضي الى الزواج ، الذي معناه اعلان موافقة الجانبيين ودفع الزوج ما عليه من مهر .

إن موافقة الجانبيين هي الشرط الاساسي الملزم لصحة الزواج . فيعطي الرجل الموافقة بنفسه ، إلا في الحالات التي لم يبلغ فيها

الحلم ، أو يكون فاقداً فيها للاهلية : في هذه الحالة يتدخل ولي
المخاطب ويعطي الموافقة بالنيابة . أما المرأة فهي دائماً فاقدة
للاهلية : ويختلف العلماء فيما اذا كان لها أو عليها ان تعطي الموافقة
لكن الشريعة تتطلب من ولي نكاحها ان يعلن الموافقة : في حين
تظل هي صامتة . ان هذا الولي اما ان يكون والد الزوجة أو جدها
أو في حالة عدم وجود هذين أي واحد من افراد العائلة الاذنين ،
أو أخيراً شخص يعينه القاضي . ان للاب والجد سلطات خاصة ،
ولهذه السلطات آثار حاسمة توجهت للتشريعات الحديثة الى معارضتها
بقوة : ولما كان من حق الاب أو الجد في بلاد العرب القديمة جبر
البت على الزواج ، وجدنا أياً منها يسمى : الولي المهر . هذه
السلطة المجرية تتلاشى حينما تكون المرأة عزباء جاوزت سن الشباب .
إن المهر أو الصداق ، الذي يدفعه الزوج ، هو أمر يقرره
القرآن للزوجة ، وليس لوالدها فيه حق ، لكن ترتيبات
معنوية ، استطاعت أن تضعه في النهاية بين يديها ، ومن المعتاد
أن يدفع نصف المهر أو ثلثاه عند العقد ؛ ولا تحصل الزوجة على
بقية صداقها إلا بعد الدخول بها ، ومن الممكن دفعه بعد فسخ
الزواج ؛ وإذا فسخ الزوج العقد قبل الدخول ، فعليه أن يترك
نصف المهر بيد زوجته . اما كمية المهر فيعينها الطرفان ، وقد
يكون في غاية الضآلة : والحديث غني بالروايات في هذا الشأن .
أما اذا لم تعين كمية المهر في العقد ، فيتم ذلك بالرجوع الى مهر اللث
وتقدر قيمته على أساس المركز الاجتماعي للمرأة .

ليس لعقد الزواج صفة دينية معينة ، في الوسط الاجتماعي
الذي يخلط بين الاثري والديني ، وقد يحتفل بالزواج في المسجد

أولي بيت احد الطرفين . ويبدأ الاحتفال بعلاوة القانحة ، أول
سور القرآن ؛ وهي على أية حال مقدمة لأي عمل في حياة المسلم . والخطبة
يلقيها غالباً ولي العروس ، أو شخص عالم ورح . وحين تكون
أسرنا الطرفين المتعاقدين غير متفقين لزم ان يؤكد شخص مثقف
مراعاتهما للقواعد ، وان صيغاً معينة قد تليت . ومن الضروري
أيضاً ان كلمات العقد الذي سيكون له نتائج أخلاقية ومادية
خطيرة تكون معروفة لشخصين يسعهما في المستقبل ان يشهدا
بذلك ؛ وهما شاهدا عدل يحملان اسما وصفات تزكيا امام القاضي
للقيام بأعمال من هذا النوع .

ويمكن أن يتم عقد الزواج بين شخصين دون سن الرشد
بوكالة من وليهما . وتعين سن الرشد بصورة تقريبية بين الخامسة
عشرة والثانية عشرة أو اقل من ذلك ؛ ومن رأي الفقهاء علاوة
على ذلك ان سن السابعة يمكن العبي ان يعطي فيها موافقة صالحة .
ان الولي يحكم حالات غير محددة كهذه كما يرتأي ويحدد موعد الدخول
لمجرد ان يعترف للخطيبين ببلوغهما سن الرشد . ويستطيع المجنون
ان يتزوج مادام وليه يساعده بحضوره .

تمسكت الشريعة الاسلامية بالقوانين التي تمنع الزواج بين
الاقارب الادنين ويشمل هذا المنع حتى الاعمام والاخوان وبنات
الاخ او الاخوت . وقد جرت العادة بتحبيذ الزواج بين ابناء العم
ولا يسمح بأكثر من اربع زوجات في آن واحد ، وكذلك لا يجمع
بين الاختين في بيت الزوجية . لكن بعد انقضاء عقد الزواج ،
أو بصورة خاصة بسبب موت الزوجة نشاهد من المؤلف الزواج

بأختها وإن لم يكن لذلك قوة القانون ، ونفس هذه الحال عند اليهود ، ويبدو ان ذلك كان متبعاً في بلاد العرب القديمة .
يمنع الزواج بالام المرضعة وقد قرر هذا الشرع الاسلامي كما كان متبعاً في بلاد العرب قبل الاسلام ؛ وقد مد الفقهاء التحريم الى هذه كبير من اقارب الام المرضعة او الطفل الرضيع .

أما الزواج من غير المسلمين فهو ممنوع ، وقد استثنى القرآن من ذلك نساء أهل الكتاب اللاتي سمح للمسلمين بالزواج منهن ، لكن العقيدة الاسلامية والمذهب الشافعي خاصة جعلت زواجا كهذا غير ممكن من الناحية العملية . وعلى نفس هذا النمط من التعسس لم يسمح القرآن للمرأة ان تزوج برجل دون طبتها الا في ظروف استثنائية؛ ان حالة الزوج تقررها مرتبته الاجتماعية وثروته التي يجب ان تكون كافية ليعيل زوجته ويسمّر معها في حياة مادية غامضة ما ألفتته من قبل . ويسمح للزوج أن يتزوج الامة ، وقد سار الامراء غالباً على الزوج من رعائهم .

هذه هي القواعد الرئيسية التي تحكم الزواج ، مربوط بمقد والذني يعمم مراسيمه الدخول . لكن في الحياة الاجتماعية نرى ان هذه القواعد تضيق في احتفالات وطقوس معقدة متشابكة غريبة عن الاسلام ، وهي عادات سحرية قديمة توجد لدى جميع الشعوب مع التباين حسب معتقدات كل منها . وخطوة خطيرة كهذه لدى الطرفين المتزوجين او الطائفة الاجتماعية التي ينتميان اليها هي مسألة مشوقة لكل فرد ، حتى ان طائفة الجن نفسها تعني بها على الرغم من انها غير منظورة ، وذلك لانها ذات روابط وثيقة بعالم الناس . ويمتاز كل من المخطوبين جماعة العزاب ، ويدخل في جماعة المتزوجين؛

وهناك طقوس معينة يلزم ان نلاحظ في مثل هذا الانتقال من الجماعة الاولى الى الاخرى .

يلزمنا ان نميز في العالم الاسلامي بين عادات البدو والزراع المستقرين وسكان المدن كل على حدة ، وقبل الدخول في تفاصيل لانهاية لها سنعمل على ملاحظة التطبيقات الرئيسية الموجودة في كل مكان . يطلق اسم العرس على مجموعة احتفالات الزواج وبالتالي يطلق على الرجل والمرأة اسم العريس والعروس ، ابتداء من عقد الزواج الذي تعقبه الوليمة المدعو اليها افراد العائلتين الذين يجتمعون على ولاء ، ويدعون معهم البارزين من طبقتهم الاجتماعية ، وتعتبر المعقيدة مثل هذه الوليمة مظهراً إلزامياً يراد به إشاعة امر الزواج واعلانه على الملأ . ويعتبر الامتناع عن قبول الدعوة الى هذه الوليمة سبة ، الا ان القاضي مع هذا يستطيع أن يرفض الدعوة .

وتدور أم المراسم حول الدخلة . فنجد بين سكتة الريف آثار عادة الخطف وهروب الزوجة باقية ملحوظة . بينما في المدن يعتبر حمام المتزوجة فرصة ابتهاج كبيرى للنساء اللاتي يجتمعن في حمام مؤجر لهذا الغرض طيلة النهار . وتكون زينة الزوجة ليلة الحنا وفيها تصبغ اطرافها بالحناء ويزين مظهرها ، وهذا عيد آخر يحتفل به في بيت العروس . وفي النهار التالي تزف العروس الى بيت العريس حيث الزينات فتأخذ العروس مكانها على « الكرسي » وتحاط بعرض الهدايا والتحف وهذا عيد ثالث كبير للنساء . وفي هذه الاثناء يكون الزوج قد ذهب هو الآخر مع اصدقائه الى الحمام ، ويقوم بزيارة الى المسجد او في كثير من الاحيان الى قبة احد الاولياء ثم يعود إلى منزله يحف به موكب الناس مع الموسيقى والرقص والغناء . ثم

يدخل به الى زوجته .

في اثناء هذه المراسيم والاحتفالات يعرض العروسان بصورة خاصة الى اصابات الجن واخطار العين الحاسدة . ولذا يكون دور الوافين وهم وزراء سلطان هذا اليوم ان يحفظوا العريس من عين السوء ، قبل ساعة الدخول بزوجته ، وتحدث طقوس معينة بلعب فيها دوره حبات الشعير والرز والرمان واللوز والسّمك والبيض ، كل هذا الحماية العروس من العقم وتهيئة السبيل امامها لتكون كثيرة الولد . والمظاهر العامة لعذرية المرأة ذات أهمية ، لأن ذلك يتقلب على امكانية انفصام عاجل لعري الزواج ، وقد ادت جفوة هذا العمل وفضائله الى اضعافه او الى محاولة الغائاة وابطاله . ويعقب ليلة الدخول وليمة ، تحل عادة في بعض البلدان محل العقد . ومدة الايام السبعة التي تخلف هذه الليلة تقرر على العروسين بعض النواهي التي تجب مراعاتها بدقة بالغة .

يرتبط زواج الارملة او المطلقة ، بعقد زواج ايضا ، كما يحصل في حالة العذراء تماما ، إلا ان هذا العقد لن يعني القوي غير المنظورة ، ولذا يكتفي زواج كهذا ببعض الولايم التقليدية وشيء من مظاهر الافراح المُنزّنة .

تمنح الشريعة والعرف الرجل سلطة مطلقة على زوجته واطفاله إلا ان قانون القرآن الذي يقف بجانب المرأة الى حد كبير قد منح المرأة نظريا على الاقل ، ميزة يمكن القول عنها انها اكثر فائدة من قوانين اوربا الحديثة ، فيسح المرأة المسلمة ان تدبر شؤونها المالية بنفسها ، وهي سيدة المصداق الذي تحصل عليه من زوجها ، كما هي أيضا سيدة اي مال يأتيها عن طريق الميراث او الهبة او عن

ما تكسبه يداها . الا انه في واقع الامر يكون من الصعب على المرأة الاستفادة من كل هذه الحقوق واستعمالها ، وان ضمن للمرأة مع ذلك معاشها وسكنها وخدمتها حسب مركزها الاجتماعي .

إن الرجل ارفع من زوجته : « وللرجال عليهن درجة (ق : ص ٢٢٨ ، ٢) ؛ وللرأة نصف ما للرجل من حقوق في فدية القتل والارث والشهادة . ويعترف القرآن للزوج بحق الاصلاح في صورة الضرب والحجر . إلا ان القرآن من ناحية اخرى ينهج بالاعتدال . ويعتمد مركز المرأة في الحياة الزوجية ، كما هو في غير مكان ، على مواهبها الفردية في ان يسمع صوتها وارشاداتها وان يكون لها اثر باق . وهناك عدد كبير من الامهات في بعض العوائل لمن على افراد منزلهن سلطة قد تساوي سلطة ازواجهن .

إلا أن الشرع الاسلامي يضع المرأة المتزوجة ، كما سنفصح ذلك فيما بعد ، تحت اثر وعيد دائم من الطلاق دون أن تكون هناك أية حاجة لمثل هذا الطلاق أو تحت اثر التزوج بزوجة اخرى ، يمكن ان يكون حضورها عاملا على تغيير ظروف الحياة العائلية . من هنا يستحسن المذهب الحنفي ويتابعه في هذا بعض الفقهاء المحدثين « تعليق الطلاق » اي ادخال عبارات في عقد الزواج تمنع الزوج من تطليق زوجته ، وبالتالي يكون للمرأة حريتها ورغبتها في التعبير عن نفسها كما تشاء حين تطرأ على حياتها العائلية أية طوارئ جديدة كأن يتزوج زوجها بامرأة اخرى ، او يمتد لفترة طويلة عن الحياة الزوجية ، او لا يسمح لزوجته بزيارة اسرتها بين الفينة والفينة او يمنعها من ان تقيم عنداهلها لفترات معينة . . الخ . كل هذه الشروط الممتازة في ذاتها هي مصدر من مصادر الشجاعة والمخادع .

هكذا نجد العقيدة تتوقع مقدما غياب الزوج لمدة طويلة ،
بسبب الحج او التجارة ، وهناك عادة قديمة تسمح للرجل الذي
يقيم بعيداً عن سكنه ، ان يعقد زواجاً مؤقتاً هو « المتعة » ويبدو
ان القرآن يأذن بذلك ، وان الرسول قد سمح به وحلله للمحاريين
في عهده . لكن عمراً أعلن بطلان المتعة . إلا ان الشيعة لا تزال تعدّه
شرعياً ، وبالتالي يمكن السنه بشيء من الخدق في التفسير ان يثبتوا العادة
ويؤكدها من الوجهة الشرعية . وظلت العادة لمدة طويلة مقبولة في
مكة على انها مناسبة للحجيج ، الذين يمكنهم ان يتخذوا منها شعيرة
من الشعائر ، وفي ذلك عوض عن فترة الاحرام التي حرم فيها على
الحاج الاتصال الجنسي .

احتفظ المجتمع الاسلامي ما خلا بعض الطوائف منه في خلال
الفترة الاخيرة ، بالفكرة القديمة التي تفصل عشيرة النساء عن
عشيرة ازواجهن . ويجب على المرأة المتزوجة ان لا تنسفر عن وجهها
لغير الرجال الذين لا يحل لهم التزوج بها أي الذين حرموا عليها
وهذه فكرة قد امكن اظهارها من الناحية الخارجية بصورة دقيقة
عن طريق الحجاب .

كانت العادة ان تحل عقدة الزواج في بلاد العرب القديمة لمجرد
ان يرغب الزوج في ذلك دون ان يستشير زوجته في الامر ، ويتم
الامر اما بلفظ الزوج صيغة خاصة بالطلاق او بذهاب الزوجة الى
متزل اهلها وبقائها فيه . ولم يترك لهذا الشكل الاخير من الطلاق
في الحياة الاسلامية مكان فسيح في نظمها . هكذا يستطيع الزوج
ان يساير او هامه في تطليق زوجته وتحريرها منه شرط ان يقدم
لها بقية مهرها اذا كان باقيا عليه شيء منه بعد العقد ، وحسب الزوج

ان يلفظ في اي مكان او زمان ، صيغة معينة تعني الطلاق ليكون نافذاً ، واذا كان الزوج فاقد الاهلية فان ولي امره يتدخل في الامر . وارتأى بعض الفقهاء ان السكر لا يبطل الطلاق . لذا كان من الخطر الكبير اعطاء مثل هذا المفعول غير القابل للتقضى لالفاظ يمكن التفوه بها في أي وقت اراده الانسان وحسب ما تيسر له (١). والوحي الذي كان على استعداد دائم لحل المشاكل تدخل في كثير من آيات القرآن في شؤون الطلاق . فأوجب قبل كل شيء ، أن تكون المطلقة تحت رعاية زوجها لعدد من الاسباع حتى اذا ظهر انها حامل ثم اثبات ابوة الزوج للجنين وتخصيص نفقة للزوجة حتى تضع حملها . هكذا قرر الشرع وقتاً للانتظار هو العدة التي تتكون من ثلاثة قروء تكون فيها تحت حماية الزوج ، وعند تمام العدة والتأكد من عدم الحمل يكون الطلاق ناجزاً مقررأ . وقد استعملت فترة العدة هذه لابطال امر طلاق جاء على عجل ، ومادامت مدة القروء الثلاثة لم تنته بعد ففي وسع الزوج ان يعيد زوجته من دون أية مراسيم شكلية ، ويمكن ابطال الطلاق الثاني بنفس الصورة لكن الثالث يكون امراً نافذاً ثابتاً .

ورأت العقيدة الاسلامية بعد مناقشات كثيرة ان في وسع الزوج اذا تلفظ صيغة كهذه « انت طالق ثلاثاً » فان الطلاق يكون تاماً لا يقبل الرد . اما اذا لم يذكر الزوج صيغة الطلاق اكثر من مرة

(١) يتم الطلاق عند الشيعة الاثني عشرية بالحضور امام القاضي الذي يحاول اصلاح ذات البين ، فان لم يفلح بعد زمن ، قضى بالطلاق .

وبالتالي امكن له طلاق ثان وثالث فيسغه ان يعقد مع زوجته زواجا آخر . بعد تصفية الحساب مع الزواج الاول . لكن بعد الطلاق الثالث تحرم عليه زوجته . ويقرر القرآن ان الزوجة اذا عقدت على شخص آخر ثم طلقت منه حلت لزوجها الاول . من هنا اصبح مثل هذا الزواج الوقتي وسيلة لابطال الطلاق الذي حصل لثالث مرة ؛ ويمكن في هذه الحال اللجوء الى رجل طيب القلب والاتفاق معه على اجر شريف وزواج برى ، سرعان ما يعقبه طلاق يهيء للزوجة ان تعود الى زوجها الاصلي ويتطلب الفقهاء المتصلبون ان يكون هذا المحلل زوجا اصيلا ، والمرء في قضية كهذه خاصة بالوسائل الشرعية يخضع للروايات المختلفة التي بلغتنا عن كتب الآداب الاسلامية . وسفر التفتية في التوراة (٢٤ - ٤٣) لم يقبل بمثل هذا العمل كما لم يعترف به الانجيل (متى ٥ - ٣٠ و ١٩ و ٩) .

ان الرجل الذي يطلق زوجته ملزم بأن يدفع اليها كامل مهرها . ومن هنا يلجئ البعض من الرجال زوجاتهم الى نوع من الحياة التي لاتطاق يجعلهن معه يشترين طلاقهن برفض ما لهن في ذمة الازواج من صداق او حتى بدفع اية اضرار اخرى يطلبها الزوج . الا ان هناك حالة هيأت للمرأة التغلب فيها على زوجها يسمح الشرع بها للزوجة ان تسعى الى سلطة القاضى ليأمر الزوج بتطبيق زوجته ودفع ما لها من حق صداقها عليه .

إن الاوضاع التي أتينا على ذكرها وكل المواقف الاخرى الناتجة عنها ضبعت في قواعد وسيطر عليها فقه المذاهب السنية الاربعة مع ما بينها من اختلافات مهمة ، وهي جميعا متكافئة مع بعضها ومقبولة : مثال ذلك يستطيع المالكى ان يقرر في عقد زواجه بأنه

سيصبح كليا او جزئيا في شؤونه الزوجية قواعد الفقه الحنفى اذا ظهر له ان هذه القواعد في صالحه . وفي الدول الاسلامية الحديثة ، تميل قواعد الاخلاق عند المسلمين وتطور الحياة الاقتصادية الى تكوين نظم جديدة تزيل الآثار السيئة للطلاق ، من ذلك نجد هناك ميلا في هذه الدول اليوم الى ازالة عامل « الجبر » والرغبة في عدم تزويج الاولاد الذين لم يبلغوا الحلم بعد . وهناك اتجاه عام عند المسلمين المحدثين الى الاخذ بقواعد التشريع الاوربي . هكذا تبنت تركيا عام ١٩٢٦ مجموعة من القوانين المدنية السويسرية فابطلت الطلاق .

وانه لعل صبياني ان نبعث عن تقدير لمرکز المرأة العربية في عبارة عامة . فالفقيرات والقرويات تمتلئ حياتهن بالعمل المضني الذي يزيد من ثقله عليهن غالبا قلة اهتمام أزواجهن بهن ، اما العوائل المقعدرة فعالبا ما تشغل نساؤه بالزينة ورعاية الاطفال ؛ ولعل حياتهن الرخية لا يغير من رتوبها غير زيارة قبور الالاء والاعياد والحفلات المختلفة ، والزيارات واجتماعات ايام الجمعة في المقابر . ولم تشغل المرأة العربية في غير السنوات الاخيرة بشئون الزينة والاقوال المكرورة المملة الخاصة بامور عالمنا المزمنة ، هذه الأقوال وتلك الزينة التي يبدو في الظاهر ان كثير من النساء الغربيات ملأن حياتهن بها خير مما فعلت المرأة العربية . فاذا تقدمت المرأة العربية في السن ، احسنت رعاية منزلها . ولما كان الكثير منهن اميات ، فلم يعد في امكانهن اجابة المطالب الاجتماعية للجيل الناشئ من الشباب الذين تطورت ثقافتهم تطورا كبيرا . وهناك بعض العائلات الاسلامية قدمت لبناتها تعليمات عقلية بصورة عميقة وخلق جيلا من الامهات بين الطبقات المعوسطة والراقية

يختلف اختلاف بالغاً عن الجليل السابق .

أقر القرآن نظام تعدد الزوجات ، وقد ساد هذا النظام بين قبائل العرب قبل الاسلام ، إلا انه حدد عدد النساء اللاتي يسه الرجل التزوج بهن في آن واحد بأربع ، مما كان عدد المطلقات من قبل ، ولم يتحدث القرآن هنا عن النساء غير الشرعيات ولا عن البغاء . إلا ان القرآن يعترف بأن من الخير الاحتفاظ بـ زوجة واحدة ، وهكذا نجد ان الحياة الاقتصادية وشكول العادات السائدة اليوم تهيء الى نظام الزوجة الواحدة لدى السكان المستقرين من المسلمين وسكان المدن منهم بصورة خاصة . وليس هناك إذن أية عراقيل جدية للتقرب من البلدان التي تسمح قوانينها بالطلاق .

ولقد ثار لغط كثير حول ذلك الاستثناء الذي سمح به القرآن لمحمد فيما يخص عدد زوجاته . إلا من ان الحق ان نعترف بأن تاريخ زوجات الرسول واولاده ليس ثابتاً وواضحاً بحيث نستطيع الحكم عليه بدقة . وفي امكاننا على الاقل ان نلاحظ بأنه كان مألوفاً آنذاك لطباع الناس ان تكون لزعم القبيلة من النساء اكثر مما يكون لأي واحد آخر من افراد القبيلة ، بالإضافة الى هذا فقد كانت زيجات الرسول اكثرها من اجل المحالفات السياسية : فحفصه هي بنت عمر ، وام حبيبه بنت ابي سفيان . وعائشة بنت ابي بكر اما صفية اليهودية فهي ابنة زعيم مهجور ، ولذا كانت نوعاً من الغنيمة التي تحق للغالب .

إن الاطفال الذين تنجبهم زوجات الرجل يؤلفون جزءاً من عائلته ، سواء كانت ولادتهم لسته اشهر بعد الزواج او لاربعة

سنوات (١) بعد انفصام عقده . وللولد الذي تنجبه امرأة غير شرعية نفس الحقوق ايضاً . بقى الولد الذي يأتي بالصدقة والذي يعمل القانون على تجاهله . يستطيع الزوج ان يحتج باتباع اجراءات معينة تسمى اللعان يرقض فيها ابوته لطفل زوجته ؛ وهناك وسيلة قانونية عكسية هي الاقرار ، تسمح بمنح الطفل أباً غير الزوج الفعلي هكذا نجد وسيلة دوران يمكن أن تؤدي الى الاعتراف بولد غير شرعي وتسمح بتطبيق عملية التبني التي أبطلها القرآن .
 ان العائلة العربية ، بالمعنى الواسع لكلمة العائلة ، كانت تضم رقيقاً من البيض أو السود . ونمساك القرآن بنظام الرقيق الا انه مع هذا نصح بحسن معاملتهم وبالعامل على تحريرهم . ويجدر بنا هنا ان نذكر النظر في أوضاعهم التي عاشوا فيها قبل أن تفقد القيمة الاخلاقية لنظام الرق .

ان العبد (مؤنثة أمة ، جارية) ؛ ليس انساناً كاملاً ، بل هو جزء من ثروة سيده ، اكتسبه كما اكتسب أية ثروة أخرى ، بالابتعاث او العطية أو الارث ، وفي وسع هذا السيد نقل هذه الثروة الى غيره بنفس الوسائل القانونية التي اكتسبها بها ، الا انه لا يمكن فصل طفل عن أمه قبل أن يبلغ السابعة . وان لم يكن العبد قاصراً بل كان بالغاً ومستطيعاً ، أمكنه ان يتقلد منصباً عاملاً في ذلك على مشاركة سيده في جانب من جوانب شخصيته لاجل القيام بمهمته بالاستفادة من اسم سيده ، ومع ان المبدأ في هذا الامر ان يكون كل ما يحصل عليه العبد لسيده ، فانه ومع هذا يستطيع ان يحتفظ بشيء من كسبه يوفره لنفسه . ويسمح العبد أن يتزوج بامه ،

(١) امله يريد أربعة أشهر .

كما ان في وسع الامة أو الجارية ان تخطب الى رجل حر أو عبد ويكون أولادها عبيداً لسيدها . أما الصداق فيدفعه العبد من المال الذي وفره من عمله وخدمته أو يدفعه عنه سيده ، وفي وسع العبد أن يطلق زوجته ويكون الطلاق نافذاً تماماً بعد المرة الثانية . وعدة الامة الارملة أو المطلقة أو الحامل هي نصف عدة المرأة الحرة وقد لا يتزوج السيد جاريته قبل أن يحررها ؛ والا اعتبرت سرية ، ووضع السراري تعترف به الشريعة الاسلامية ؛ كل هذه العلاقات يجب أن تسبقها فترة من التحرير أو « الاستبراء » ، والامة التي تقدم لسيدها طفلاً تدعى « أم ولد » ؛ ويحرر الولد ويعتبر شرعياً كما تحرر أمه عند وفاة السيد .

ينظر القرآن والسنة الى تحرير العبد ، كعمل من أعمال التقوى يثاب عليه المرء في الحياة الاخرى ، والسيد وهو حر في أعماله يستطيع أن يعلن فك الرقبة باية صيغة يشاء على شرط الانكوف فامضة . وقد يصحب هذه الصيغة شرط كأن لا يكون تنفيذ التحرير الا عند وفاة السيد وانه يمكن فسخ هذا التحرير قبل حدوث الوفاة ؛ اما اذا باع هذا السيد عبده فان عمله نوع من الابطال المضمّر الذي يسمح به له . ويمكن ان يكون العبد مكاتباً ، وهي حالة معروفة جيداً في القانون الروماني ؛ وذلك عند اعلان السيد رغبته في تحرير عبده حين يدفع هذا مبلغاً من المال لسيده ، وهذا يفترض ممارسة العبد لمهنة وتوفيره بذلك مبلغاً من المال . وينصح السيد بالابطال كل المبلغ الذي عينه من قبل ، وقد ارتأى القرآن ان يحفظ جزء من الزكاة ليقسر الرقيق اشتراء حريتهم به .

ويظل العبد المحرر (المولى) مرتبطاً بسيدته (مولاه) ، لا بروابط عاطفية واجتماعية فحسب تحفظ العبد في نطاق عشيرة مولاه ؛ وانما هناك التزامات قانونية : من ذلك ان يأخذ السيد ماله عده المحرر من ثروة في حالة عدم وجود وارث آخر ، وهذا ما يتكرر في العادة بين حين وآخر . والسيد هو الوصي الطبيعي على عبده المحرر وعلى ذريته .

لقد شغل الرق مكانها ما في حياة العالم الاسلامي . ونقابل في جميع نقاط تاريخه عبيداً وآخرين | محررين . وكما نحكم حكماً صائباً على القيمة الاخلاقية لنظام الرق ، علينا ان نميز بين الرقيق العالمي وبين كتل الرقيق الكبيرة . ويعيد هنا تاريخ المجتمع الاسلامي تاريخ المجتمع الروماني . ولم يكن الرق الاسلامي بغضاً الا في حالات معدودة . فتجارة الرقيق التي انتشرت في اسواق الشرق ، واسواق بغداد خاصة ، وصناعة الخصيان من الافريقيين او صقالبة الحبشة او اوروبا في الايام الذهبية من العصر العباسي ، كل هذا من الاعمال التي تخالف المعايير الحضارية جميعها . واهل حالة الرقيق البائسة التي سادت الاقطاعات الكبيرة في القسم الجنوبي من العراق في القرن (٩ م = ٣ هـ) هي التي أدت الى ثورة الزنج المريعة . ان الآثار الادبية الغزيرة لذلك العصر ادت الى اهتمام عام بما قاساه العبيد المسيحيين في سجون بلاد البربر وسفنها . لكن يجب الا ننسى ان اوروبا في ذلك العصر كان لها سجونها وسفنها ،

حيث لم تكن الحياة بأية حال يحسد عليها . ان تاريخ تجارة الرقيق في المستعمرات الامريكية لطخة في جبين أوروبا المسيحية . ويجب ان ينظر الى الرق دون استنكار كنظام بائد وامتهان لكرامة الانسان .

المصادر

Juynboll : Handbuck - Schacht : Nikah, E. I., Urs, E. I., talaq E. I., W. Marcais : takruna (avec bibliographie) a completer par Reich : villages arameens de l' antiliban.

الفصل التاسع

الاممك

الاممك غير الموصى بها . الوصايا . الادرفاف .



ان قوانين الارث تفوق أحكام الزواج في اعادة تطور الشريعة الاسلامية . لقد نبت القرآن قانون الارث ، الذي يؤلف فصلا هاما في الفقه الاسلامي ، ذلك الفقه الذي يمتزج فيه ما هو زميني بما هو ديني امتزاجا تاما . وقد ادت التطبيقات الفقهية في الواقع الى ظهور العادات المحلية ، وان كانت هذه التطبيقات لم تستطع ان تتجاهل بالكلية تعاليم القرآن .

وكما حفظ القرآن القواعد الاساسية للزواج في بلاد العرب القديمة كذلك حفظ قواعد الميراث نفسها ؛ لكنه في الحالتين عمل على رفع مركز المرأة . ان النظام الابوي لبلاد العرب القديمة الذي لام التنظيمات القبلية التي كانت فيها كل جماعة تنظر الى جيرانها بعين الشك او في حرب فعلية معها ، والتي لا يثرى في ظلها الا من ساد أكبر عدد من المحاربين ، هذا النظام الابوي تبنته بلاد

العرب القديمة في الميراث وجعلته في مصلحة الذكور ؛ وقد ابعد من هذا القانون القبلي كل ما يمس انشاء الام والمرأة . وعلى العكس نجد ان القرآن اعطى المرأة حصتها الشرعية . نجد ان الارث في الفقه الاسلامي يزداد تجزؤاً من حيث المبدأ وعلى وفاق مع القانون العربي القديم ، يكون التجزؤ متناسباً مع الخط الابوي اي العصبية التي شئت بمثلتها « الاجناتي agnati » في القانون الروماني . ويسير توزيع الاملاك المخلفة بين ذرية الاب بحسب النظام الذي يتبع في ولاية المرأة اي بصورة تقريبية على الترتيب التالي : الذرية ، الاباء ، بقية الاقارب . والاثاث اللاني ينحدرون من الخط الابوي هن كالدكور يدخلن ضمن العصبية ، وان كان حظهن من الميراث نصف حظ الذكر . ان هذا المبدأ السهل التطبيق عقدته آيات القرآن التي اوجدت ورثة ذوي امتياز لهم على اية حال فريضة معينة يأخذونها من الارث . وادت منافستهم للورثة الاسوياء الى تعقيدات خلقت « علم الفرائض » وهو في قمة الدراسات الشرعية ؛ ومطالبة هؤلاء بفرائضهم المعينة يخرقون نظام العصبية التي ينتسبون اليها غالباً . فهؤلاء بعد الانباء هم (١) للبنات أو البنات نصف او ثلثا الارث وبالاتداد ينطبق الامر على بنت أو بنت الابن؛ (٢) للاب أو الام السدس وبالاتداد يحصل نفس الشيء للجد او الجدة (٣) للاخت أو ابنتها نصف أو ثلثان وبالاتداد يشمل هذا الاخوات من الاب؛ (٤) الاخوة والاخوات من الام لكل منهم السدس أو النصف للجميع بحسب عدم ؛ (٥) للارمل النصف أو الربع (٦) والارملة نصف حظ الارمل . هذه القواعد القرآنية يبدو انها نزلت مباشرة بعد موقعة احد الدامية سنة (٦٢٤ = ٣ هـ) من

اجل تنظيم بعض حالات خاصة ليس لدينا تفاصيل كافية عنها .
وفي سبيل الاقتناع بعض الشيء سنورد بعض الامثلة الناتجة عما سبق
الابن هو الوارث الاول ؛ ولا يمكن البت ان تقصيه عن ذلك
وتقتصر حصتها على نصف ما يأخذ الابن . وان وجد ابن واحد
يكون لها عند ذلك ثلث الميراث . في حين اذا كان هناك ولدان
كان لها الخمس وهكذا . والابناء والبنات يحرمون من الميراث
الاخت او ذريتها ، كما يحرم هؤلاء ايضا كل من ابناء وبنات الابن
وكل من الاب والام ؛ ولا تنال الاخت فريضتها الا عند غياب
احد من ذكرنا ، او تنقسم مع اخوتها نصيبها من الارث وللارمل
نصف ما تركت زوجته او الربع ان كان لها ولد . الخ .
وعند توزيع الفرائض على الورثة المطالبين بحصصهم يمكن ان
تقوم حالتان :

١ - قد يمتص الارث كله ؛ وفي هذه الحالة غالبا ما يحدث ان
يكون توزيع الفرائض مستحيلا من الناحية الحسابية كما يحصل في
في هذا المثال المأثور :

$$\begin{array}{l} \frac{1}{3} = \frac{2}{3} \text{ ومجموع ذلك } \frac{1}{3} \text{ ابنتان لكل منها} \\ \frac{1}{3} = \frac{2}{3} \text{ ومجموع ذلك } \frac{1}{3} \text{ الاب او الام لكل} \\ \frac{1}{8} \text{ الارملة لها} \\ \hline \frac{27}{32} = \text{المجموع} \end{array}$$

ونحل مثل هذه القضية بتقسيم الارث بين (٢٧) نصيبا .

٢ - وعند عدم حضور الذرية او الورثة اصحاب الفرائض او
بعد ان يأخذ اي من هؤلاء نصيبه يتم ميزان التوزيع بين اقارب
الخط الابوي بالترتيب التالي :

(أ) الاباء اذا كان هناك أي منهم بعد الجدة ؛ (ب) للآقارب من أبة درجة ؛ (ج) للسيد اذا كان الميت عبداً محرراً ؛ (د) ان لم يكن هناك أي ممن ذكرنا أو اذا لم يتقدم أحد يعود الميراث كلياً أو جزئياً الى بيت المال اذا كان خاضعاً للشرعة الإسلامية . وغياب الورثة هذا يحصل بشكل أكثر مما نتوقعة : مثلاً حينما تكون للابناء أفضلية على جميع الطبقات الأخرى ، نراهم يمتصون الارث كله أو يشاطرون به معهم اخوانهم ؛ اذا استطاع الاب والام مع الجدة أو الجدة أن يدعوا لانفسهم بجانب انصبتهم الشرعية بالبقية من الارث بوصفهم عصبية ، فلا يكون في هذه الحال للورثة من أصحاب الفرائض أي حق ، وليس هناك مدع شرعي بما يتبقى من الثروة في حالة عدم وجود العصبية . وعلى أية حال اتفق على انه إذا لم يكن لبيت المال كيان واضح فالورثة الذين لهم فرائض أماً كانوا يقتسمون الثروة فيما بينهم . ومرة أخرى اذا لم يكن أي من هؤلاء موجوداً يسمح لسلالة الأم بالارث أو يسمح بذلك لأي مسلم يمكنه أن يضع يده على الثروة .

للمذاهب الأربعة حلول مختلفة لكثير من الحالات التي وصفناها فهي لا تتفق عندما يكون الأمر متصلاً بأملاك المشركين التي - بحسب رأي كثير من علماء الدين - لا يمكن لأي مسلم المشاركة فيها ، والتي لا يمكن أي مشرك كذلك ادعائها لنفسه . وهي تختلف على موضوع ورثة المرتد الذي توزع ثروته حسب رأي واسع الانتشار بين ورثته من المسلمين ، أو تعود الى بيت المال . وقبلما يختلف فقهاء الخوارج عن المذهب السني ، إلا من حيث انه لا يسمح للسيد أن يتسلم أملاك عبده المحرر ، ويقرر اعطاء الارث الذي ليس له وارث كزكاة .

أما الفقه الشيعي فيختلف جداً ، إذ يعتمد على تكافؤ الحقوق عند سلائي كل من الام والاب ؛ وعلينا أن نتذكر إن فاطمة نقلت الى العلويين ميراث الرسول . هكذا قسم المذهب الشيعي الوراثة الطبيين الى طوائف ، تدرج في درجات من حيث الاسبقية ، يضاف اليها صنف « الوراثة » لاسباب خاصة ، الزوج أو الزوجة ، المولى أي السيد الذي حرر العبد أو الذي أسلم على يده مشرك وأخيراً إمام الشيعة كممثل لبيت المال . وبالإضافة الى ذلك اعترفت الشيعة بحق وراثة المشركين والمرتدين والقتلة ، وحق العبد المكاتب في أن يبتاع حريته من ارث سيده .

ليس للورثة حق في الاستيلاء على أي جانب من الميراث مادام لا يؤلف جزء من ثروتهم الخاصة كما في القانون الفرنسي . ولا يمكن أن يكون ادعائهم مشروعاً إلا بعد أن تدفع الديون المترتبة على الميراث وليس هناك إذن في الشريعة الاسلامية ما يشابه الوراثة في النظام الروماني الذي يجعل حصة للقاء بمعملية حساب الميراث . والديون التي تستخرج حالاً لا تشمل الديون الناتجة عن المصاريف الجنائزية ، وديون الميت فحسب ، بل وكذلك الديون التي تمثل واجبات دينية لم يتم إنجازها كالزكاة والصيام والحج ؛ أما المصاريف المتعلقة للقيام بالحج نيابة عن الميت فتحمم من الميراث .

لقد فصلت الشريعة إذن قواعد الارث . كما سمحت أيضاً بالوراثة عن طريق وصية الميت ، في حين انها تحدد مجال الموصي بشروط معينة .

لم يؤكد القرآن الاهمية التي منحت في بلاد العرب القديمة لرغبات الشخص الاخيرة والتي يبدو ان بعض الآيات جعلتها مجرد

نوصيات دينية وأخلاقية . بينما نجد ان آيات أخرى وافقت على الرغبة في استعمال الوصية الأخيرة كوسيلة لاصلاح مواد معينة في العادات التي تنظم الارث غير الموصى به ونراها ننصح بمنح الافضلية للاب والام وبقية الاقارب ، فضلا عن الارملة ؛ وبالإضافة الى اولئك الذين يعترف لهم بالفرائض . لكن العقيدة وهي تقيم قراراتها على وجود هذه الحصص ، تصرح انه لا يمكن اتخاذ اي اتجاه في الوصية لمصلحة أي وارث خاص . وقد اصررت الشريعة كذلك على تحصيل الورثة الشرعيين على القسط الاكبر من الارث ، وقررت ان الوصية لا يمكن أن تستنزف أكثر من ثلث الارث . كما حث الارث من أية اجراءات شفهوية قد يتخذها الموصي خلال مرضه أو حين تكون حياته معرضة للخطر في مناطق حرب أو وباء منتشر . وبالنسبة لاعتبار الهبات وتسييد الديون وتحرير الارقاء التي اتخذت في هذه الحالة المرضية أو الحرجة من حياة الموصي باطلة وعبثا . ويتطلب الشرع أن يكون الموصى له عاقلا كالوصي وحيأ عند موت الاخير ، إلا في حالة الاطفال المولودين في خلال ستة أشهر بعد حادثة الوفاة .

هذه القواعد التي تحدد حزية الموصي لم تنل رضا الرأي العام لهذا لجأ الناس في هذا المجال الى الحيل الشرعية للحصول على أوفر قسط تسمح به الشريعة : فالهبة والموقف كثيراً ما يلجأ اليهما في هذا المجال .

إن اسم الوصية مشتق من تسمية « الوصى » الذي عليه أن يشرف على تقسيم الميراث ، ويطلق على الوصى اسم ولي المال الذي ينظم الارث بالنسبة للأطفال الصغار ، وجرت العادة ان تقوم الام بهذا

الواجب الاخير تحت اشراف القاضي . واذا لم يعين الميت الولي
فالقاضي هو الذي يعينه أو يقوم هو نفسه بهذه الواجبات . ان
رغبات الميت الاخيرة يعبر عنها عادة شفويًا امام شاهدي عدل
يمكنهما أن يشهدا بذلك فيما بعد امام القاضي .

إن وجود عدد كبير من الاجانب وهم تجار في الغالب قد أثار
مسألة ارثهم . وأخذت العقيدة ترفض كل حقوق للميراث بين الاجانب
وتستولي بذلك على عدد كبير من الاملاك غير المدعى بها لمصلحة بيت
المال . وبعدئذ في القرن ١٢ م ، مع ان العقيدة ظلت تنكر الاعتراف
بالورثة بين الاجانب والمسلمين او اهل الذمة ، فانها سمحت بأن
تنقل لورثة الاجنبي أي ثروة تركها داخل الحدود الاسلامية بعد
دفع جميع الديون ، كما انها ذهبت بعيداً في السماح بشرعية الارث
الذي يخلفه الاجنبي لمسلم أو ذمي .

لقد لعبت الاوقاف ومازالت دوراً مهماً في اقتصاد الاقطار الاسلامية .
والاسم الذي يطلق عليها وهو الحبوس (المفرد حبس ، الجمع أحباس
أو حبوس) اقتبسته اللغة الفرنسية ولفظته حبوس . والحبوس في
المغرب مرادف للاوقاف في المشرق .

إن المظهر المشترك لجميع انواع الاوقاف هو ان الوقف لا يمكن
تبديده ، ويخصص دخله لمؤسسة دينية أو لذرية مؤسس الوقف ، أما
الملك فينتقل حسب الاتجاهات المتعددة في المذاهب الاسلامية اما الى
ورثة المؤسس او توهب لله ، أي انها تصبح غير ذات مالك . ان
أصل الاوقاف غامض ، وقد نما كثير من الحكايات حولها . ويبدو
ان اقدمها قد أسسه الخلفاء واستخرجوه من الممتلكات الواسعة التي
ترك دون مالك كنتيجة للفتوحات ، والتي كان من الواجب

زرعها لو أمكن لبيت المال أن يتنازل عن حصصه من ضرائب هذه الأرض . ولا ندري ما إذا كان الخراج آنذاك ضريبة فعلية ، أو كان مبلغا يجبي من أهل المقاطعة بصورة مجتمعة . ومما كان الاصل فإن تاريخ الوقف كبقية النظم الإسلامية الأخرى يرجع إلى العهد الأموي الذي لا نعلم عنه كثيراً ، وقد انتشرت عادة الوقف بسرعة بتأثير عاملين مختلفين عن بعضهما جداً وفي صورتين منفصلتين .

أول العاملين يرجع إلى التقوى . لقد لاحظنا فيما سبق أن ميزانية الخلافة لم تكن تزود المصاريع العامة : كالمساجد والقنوات ، والمشاريع الخاصة بتجهيز الماء والمدارس ، والمستشفيات ، كل هذه كانت من ممتلكات الحكام المحليين الطامعين إلى كسب الشهرة في هذه الدنيا والثواب في الآخرة . ولم يكن هناك أي ضمان لصيانة أمثال هذه المصاريع أو البنيات ، كما لم يكن هناك ضمان لاستمرار تمويلها لتتحفظ بقدرتها على القيام بالأغراض المطلوبة منها . لذلك حاول المؤسسون أن يصنوا مشاريعهم من الفناء بإيجاد أملاك تخصص وارداتها لاستمرار تدبير المؤسسة ، وهذه الأملاك هي جانب من الثروات الموهوبة لله ، أو للجماعة حسب ما اشترطت المذاهب المختلفة . هذه الأملاك تكونت من ثروات المدينة ، ودور السكن التي يمكن إيجارها وحوانيت السوق والحمامات التي تدر دخلا منتظما ، بشرط أن تكون مصروفات هذه الأملاك مدفوعة من وارداتها . أو قد تكون الأملاك ريفية ؛ أو إذا كان الواقف أميراً فإنه يعمل على أخذ ضريبه إضافية يحملها قرية أو مدينة للصرف على الوقف . ويدير هذه الثروات ناظر أو أكثر يختار الواقف أولهم ، وهذا يعين الثاني وهكذا ، وإلا فالقاضي هو الذي يعين الناظر ، الذي يمارس عادة الإشراف العام على الأوقاف .

أما النوع الثاني من الاوقاف فيقوم على أساس اشباع حاجة اقتصادية . لقد رأينا ان الشريعة أقامت قاعدة في الارث يسرت تجزئة الميراث بصورة شاملة ومعقدة ، دون ان يكون لارادة المورث أو وصيته ، أي أثر معارض على التجزئة اللانهائية لثروته . فالبناه أو المنزل أو أية املاك من الارض ، بعد عدة اجيال تنهي بالانقسام الى أجزاء غاية في الضآلة بحيث لا يمكن استغلالها بصورة نافعة . ولذا قام نظام الاوقاف من حيث انه علاج لمثل هذا الشر . إذ يجعل المالك ثروته وفقاً لصالح ذريته ، ويمكن توزيع دخل الوقف بينهم الى أجزاء لا متناهية في الصغر . اما الملك أو الثروة نفسها فتبقى سليمة ويمكن استعمالها على الدوام ، وبعض ذوي المكانة والمراكز الرفيعة صانوا ارباحهم المشينة المصدر عن طريق الوقف وجعلوها في حوز حريز خوفاً على املاكهم من المصادرة . وعن طريق هذه الاساليب أو الخيل الشرعية في تحويل القانون أمكن الخروج على صلابة النصوص ووضعها في متناول الاستعمال العام . وادارة الاوقاف التي هي من هذا النوع وضعت كذلك مثل النوع الآخر من الاوقاف تحت اشراف القاضى .

ولا يظهر من هذين النوعين من الاوقاف في التعاريف الاسلامي إلا النوع الديني الذي تمتلئ به صفحاته ، على انه عمل من أعمال كرم المؤسسين . ويعبر ابن جبير في سنة ١١٨٣ و ١١٨٤ م عن إعجابه لرؤية الاوقاف الخيرية في كل مكان في الشرق . والاعمال الخاصة بمجهاز الاوقاف تشغل مكانا كبيراً في مجموعات النقوش الاسلامية . والوقف العالمي ، وان كان أكثر تواضعاً إلا انه هو الآخر له دوره

واهميته ، ومن المؤسف ان النظام في الحالتين قد استغل أسوأ استغلال بسبب الاهمال وسوء النية عند أولئك المكلفين بواجب الاشراف على الوقف ، وكانت الاوقاف الخيرية الدينية في حاجة الى التجديد على الدوام . وقام المسلمون بهذا بحماس كبير الى درجة ان التحريات التي أجريت في تركية في القرن ١٩ قدرت املاك الاوقاف بثلاثة ارباع مجموع الاراضي المزروعة . أما قيمتها فيظهر انها كانت تساوي خمسين مليوناً من الجنيهات التركية لسنة ١٩٢٥ ، وكان دخلها يساوي ٣٥ مليون جنيه من جنهات سنة ١٩٢٨ . اما الاوقاف في الجزائر فقد امتصت كذلك نصف الارض الصالحة للزراعة ؛ وفي تونس الثلث وفي مصر الثمن . ومن المحتمل ان نفس الظروف تسود بقية الاقطار الاسلامية .

وكيفما كان نظام الاوقاف سابقاً ، فانه عامل جدي للتأخر أدى الى تدهور جزء كبير من الثروة وحرمانها من التداول ، بالإضافة الى ان الوقف يحرم الثروة من الادارة الفعالة الحازمة ، وما كان يستطيع عمله رجال الادارة من مصادرات تصفية وصور البيع غير المشروع وانواع المبادلات ، لم يمكنه ان يقلل او يزيل هذه العلة الكبرى العاملة على افقار الاقطار الاسلامية . وظلت مساحات واسعة تزرع وفق أساليب غاية في البدائية . واكثر من هذا : يكفي ان نقرأ العمل الخاص بوقف مسجد حتى يمكن نثير أن السؤال التالي : ما مدى ادارته بكفاءة ، وكيف اتم اصلاحاته ، وهنا تظهر قائمة طويلة من الحوائث وأجزاء من الحوائث منتشرة في شوارع المدينة العديدة ، وقطع من الارض منتشرة بين حقول القرية ، وبساتين صغيرة . وقد وجهت الحكومات منذ أيام الانراك في القرن ١٦ وبصورة

خاصة منذ القرن التاسع عشر ، عنايتها الى اصلاح حالة الاوقاف ،
وتصحيح نتائجها الخطيرة ، وذلك بوضع الثروة بشكل أوبآخر في
حالة تداول مرة أخرى ، وذلك دون تغيير الغرض من طبيعة الوقف .
وأول محاولة في هذا السبيل اتخذت شكل ايجار الملك الموقوف
والحصول على كمية من المال تحصل عاجلا وتقدر بناء على قيمة الشيء
الموقوف في بداية الاستئجار ، وهناك علامة على ذلك ايجار دائم
يدفعه للمستأجر ، وفي هذه الصورة الأخيرة يمكن الاحتفاظ بمبدأ
الوقف من حيث ان الملك الموقوف يدر ربحا متواصلا . وقد أصبح
التمتع بالاستئجار امراً وراثياً . وفي حالة عدم وجود وارث يرجع
الوقف الى الواقف أو الجهة الاصلية . وترتيبات كهذه عملت في
نونس « انزل » enzel وفي الجزائر « أنا » ana وفي مراکش
« غلزا » guelza وفي كل هذه الاقطار اتخذ الوقف صورة مصالحة
تتعلق بحياة الناس .

إن الحكومات الحاضرة للبلاد الاسلامية قد أوجدت هيئات
مركزية من شأنها الاشراف والسيطرة واخذت بالاقفال من شأن
الحبوس وذلك بوضع الثروات في التداول والتخلص من صور الفساد
التي تنقل من قيمتها ، وذلك دون ابداء نظام الوقف ذاته الذي مازال
ذائع في حالات معينة ، والذي تدافع عنه الجماعات المحافظة مستندة
الى أسباب دينية . وقد ابطأت ترقية منذ عام ١٩٢٤ ادارة الاوقاف
وفي عام ١٩٢٦ سيطرت على بيع الاملاك الموقوفة الى الجماعات
والمنظمات العامة . وتتابع مصر ببطء خطوات ترقية . وقد صادرت
روسية القيصريّة املاك الحبوس في حين ابطال السوفييت هذا النظام

أما فرنسا فليس لها سياسة ثابتة في الجزائر ، بل لها سياسة متناقضة أحيانا لا تسمح بالوصول الى هدف معين . وفي تونس ومراكش نجد حكومتها بالتعاون مع فرنسا الحامية لها قد أعادت تنظيم الاملاك للوقوفة تحت اشرافها بحيث تصرف الفوائد العائدة منها على الاغراض التي اوجدت الوقف من اجلها ، او تصبح خاضعة لقانون الملكية الاعتيادي .

يعترف الفقه الاسلامي بمختلف الاساليب التي تنقل الاملاك بحسبها او تستغل ، تلك الاساليب التي نظمها القانون الروماني : بيع ، استئجار ، مشاركة ، أجور .. الخ . والحقوق المتصلة بالاملاك الارضية قد نظمت تنظيما تفصيليا ، كحقوق الارواء مثلا ، ويعتبر قانون حق استخدام الارض مستقلا ومنفصلا عن حقوق الملكية ، باعتباره يكون ملكية من نوع خاص .

وبصورة عامة ان قواعد الفقه الاسلامي هي تلك المشتقة من القرآن والسنة، التي نتجت عن العادات الملكية ، والتي تأثرت بالقانون الروماني - البيزنطي بشكل وقد لا نستطيع تحديدهما . هذا التشريع تطور الى حد كبير في القرون الوسيطة ، وذلك بضمه اليه العرف الذي أوجده النشاط التجاري يوما بعد يوم ؛ واصبح هذا التشريع القانون المعمول به في المعاملات التجارية في شرق البحر الابيض المتوسط ؛ وكان مصدراً من مصادر القانون التجاري الاوربي .

هكذا نجد قواعد التشريع الاسلامي في هذا المجال بالاضافة منفعتها العملية للعالم الاسلامي ، ذات اهمية تاريخية عظيمة .

ومن هذه المخطوط العريضة ، نجد ان قانون العقود في الفقه الاسلامي لا يختلف اختلافا بينا عن التشريع الاوربي ، وسنعود الى هذا الموضوع في الفصل الثاني عشر .

المصادر

Juynboll ; Schacht, mirath, E. I., waciya E. I.,
Heffening, waqf; E. I.

الفصل العاشر

القضاء

القاضي . الفصاح . والفراء . الحنفى . الجرائم التى بها فب
عليها الفراء ، السرق ، السطو ، الردة ، الزنا ، الخمر . صاحب
الشرط . المحاسب . التنظيمات الحديثة .

—: 0 :—

اعتبر الحكام المسلمون في الغالب تصريف امور العدالة شخصيا
احد واجباتهم الهامة : وكان من عادتهم قديما أن يعقدوا اجتماعا كل
اسبوع في ايام الاثنين والخميس ، حيث يقومون بدور الحكم الاعلى
كما كان يفعل العرب ، واعتبروا انفسهم من اجل ذلك مقمرين
لكلمة الله اسوة بالرسول . لكن الخلفاء الاول اضطروا الى ان
يتنازلوا عن سلطاتهم القضائية الى قاض كان يشرف بنفسه على تطبيق
القوانين المتعلقة بالغنائم والارث والقصاص وغيرها في الجيوش
واجناد سورية . والخلفاء الامويون هم الذين اوجدوا وظيفة القاضى
والوظائف القضائية الاخرى ، وربما كان ذلك بتأثير النظم السورية
البيزنطية . ولا نستطيع هنا سوى اعطاء وصف مقتضب لتاريخ
كبير التعقيد لواجبات القاضى .

القاضي هو حكم يحل الخلافات بين الشكاة الذين يقصدونه ،
 فيعطي حكم القانون ضد المذنبين الذين ثبتت ادايتهم . ولا يساعد
 القاضي يمثل عن المدعي العام ، ولا عن السلطة التنفيذية ، وهو
 شخصيا لا يمتلك سلطة للقيام بتنفيذ الحكم . الا انه يخول سلطة
 يشرف بموجبها على جميع القضايا التي تؤثر في حياة الجماعة والتي
 نظمها الشريعة كالزواج والطلاق والعناية بالايام والموارث وانواع
 العقود ومعاقبة المجرم . يعطي القاضي قراراته دون مساعدة من
 أحد ، ومع ان العقيدة تطلب منه ان يجمع حوله مجلس شوري ،
 الا انه غير ملزم على أية حال بالاخذ برأيهم . وفي عهد الامويين
 كان الخليفة يعين قاضيا لكل ولاية ، وقد احتفظ العرب بعاداتهم
 الابوية في أمور القضاء العائلي والقبلي ، كما كان لاهل الذمة محاكم
 خاصة بهم ؛ لكن الظروف أدت الى زيادة اعباء القاضي بعد ان
 كانت خفيفة نتيجة لهذين النظامين ، لكنه سرعان ما دفع الى التنازل
 عن كل او بعض سلطاته الى مساعدين تحت سلطته . وأصبح يعد
 لامصار الاقاليم التي غدت عواصم لامارات مستقلة قاضي قضاة
 أسوة ببغداد (ويدعي بقاضي الجماعة في الاندلس) مع هيئة متدرجة
 من القضاة المساعدين .

هكذا أخذ القاضي يعين نوابا عنه في حين احتفظ بسلطانه
 الخاصة كاملة يمارسها حين يحلوه ذلك . ولما كان لا يمارس سلطة
 القضاء فقط ، بل سلطة الادارة كذلك ، وأمين بيت المال في كثير
 من العهود ، وإمام خطبة الجمعة ، والمشرف على ادارة أملاك اليتامى
 والاوقاف ووصي اولئك الفاقدين للاهلية ، فان القاضي اتخذ نوابا
 لانجاز جميع هذه الواجبات : فهو اذن رأس العدالة ومنه تصدر الاحكام .

والمعتاد هو ان تجري شهادة شفوية أمام القاضي ، لكن الدليل المكتوب يكون خير سند يعتمد عليه . ويطلب شاهدان ليشهدا بوجود موضوع للخلاف ويجب ان تكون الثقة التي يمنحها القاضي للشهادة وافية تامة سواء كان ذلك متصلا بمنازعة في قضايا مدنية او جنائية . ومادام مستحى لافي كل قضية وفي أمر كل شاهد اختيار أمانة هذا ، فان القاضي يصدر قائمة بأشخاص تكون امانتهم في مفهوم العدالة وبعد التحقيق مشهوداً بها . هؤلاء الاشخاص المنتخبون الذين قد يختلف عددهم من عشرة الى عدة آلاف وم الشهود للعدول ، هم وحدهم فقط يمكنهم أداء الشهادة وتزويد القاضي بالمواد التي يبنى عليها قراره . وم في الحقيقة الاشخاص الذين يدرسون وقائع القضية والبيئة التي يقدمونها هي التي تكون في اغلب مجموعة البراهين ، المقنعة التي تنال هذه الصفة بعد الاستجواب الذي يشترك فيه الجمهور الى حد مزعج ، وهذه البيئة المذكورة يصل اليها الشهود من دراستهم للوثائق ونتيجة ملاحظتهم الشخصية للوقائع . ان الشاهدين الشرعيين هما اللذان يقومان بدور المشيرين المساعدين للقاضي . اما علاقتهما بالجمهور فشمول تسجيلهما للعقود وتدوينهما للقرارات ، وفي الحقيقة يقومان بدور كتاب المحكمة . وفي ظروف معينة ، كما في حالة القضايا الجنائية ، قد يضطر القاضي الى قبول بيئة شاهد العيان ، وحتى المرأة التي تكون قيمتها نصف بيئة الرجل كان الخليفة هو الذي يعين القاضي او يقوم بمثله في الولايات وهو السلطان او الوالي او قاضي القضاة بذلك . والقاضي بدوره يعين الحكام ليعاونوه في مختلف وظائفه ؛ كل هؤلاء يجب ان تتوفر فيهم الصفات المعقدة المشترطة في العدالة .

واعترفت العقيدة بأن لقضاة الازمنة الغابرة معرفة تامة بالشرعة ،
 لكن فبما بعد لم يكن ممكناً إيجاد عدد كاف من الرجال الذين لديهم
 معرفة كافية بالنواحي الدقيقة التي عالجتها المذاهب الاربعة كل منها
 بطريقة الخاصة ، وهكذا أصبح معتقداً بأن معرفة القاضي للفقه
 ذات أهمية ثانوية تقريباً ، وان مؤهلاته الأساسية بالاضافة الى
 بضعة مبادئ راسخة هي انصافه بالامانة والفترة السليمة . ويستطيع
 القاضي ضمان معرفة الفقه باختياره مستشارين مثقفين ، او بأخير
 القضاء حتى يزود برأي صائب من خبير قضائي معترف به . ان
 (سرفانتيس) الذي كان على اطلاع عميق على الحياة الاسلامية خلق
 في قصته « سانكو بانزا » ما يمكن اعتباره كاريكاتوراً للقاضي
 الاندلسي ، والقضايا التي جعلها بين يديه ليحكم فيها مستمدة من
 عادات المجتمع العربي . ان فضائل القاضي يجب ان تظهر في كمال
 سلوكه الذي يمتعه من ان يسام في الحفلات والولائم الباذخة
 وتحاشي حضور مجامع القناء والميسر والاجتماعات المريبة . والرأي
 السائد بين الجميع هو ان واجباته تعرضه الى كثير من المزالق ومن
 ثم تعرضه لهذاب الجحيم ، وهنا يعيد المرء قول سحنون الذي يقرر
 « ان انجاز القاضي واجباته معناه قطع حنجرتـه بغير سكين ،
 ويقال هذا كتوضيح لما أترعن رفض قبول وظيفة القاضي بصورة
 بانه .

لم يكن يدفع للقاضي أجر جزاء عمله ، لكن عليه ألا يقبل
 هدايا ، وهذا التنبيه الذي يوجه الى القاضي عند تعيينه ، دليل على
 أن عادة قبول الهدايا كانت مألوفة . وفيما بعد سمح له بقسم راتب من
 الإوقاف ، وأخذ حصصاً من الرسوم التي يدفعها المتقاضون .

لم تكن هناك بناية خاصة بالمحكمة في الايام الاولى : فقد كان القاضي يعقد اجتماعاته باديء الامر في المسجد او في بيته ، كما كان يستطيع عقد محكمته في الشارع العام ايضا . والقاعة التي خصصت فيها بعد لهذا الغرض وهي المحكمة الحقت بالمسجد غالباً . وكان للقاضي اعوان وشرطة ، وبوابون يدعون المتقاضين ، ويحافظون على نظام المحكمة .

اما قرارات القاضي فصيغتها التحكيم واعطاء الجانب الرابع فرصة اخذ حقه كيفما شاء . اما في الشؤون الجنائية فدور القاضي يقتصر على القضاء بين الطرفين ؛ والشخص الذي يعرض القضية على القاضي اما أن يكون المعتدى عليه ، أو من يمثله شرعياً .

وحين تكون الجريمة ارتكبت عمداً كالقتل او الجرح وتكون في صورة بحيث يمكن فرضها على المرتكب ، فان حق القصاص قد يمارس ؛ والضحية أو من يمثله هو الذي يقتص له بعد محاكمة القاضي وتحت اشرافه . لكن من الضروري أن يكون المجرم قادراً على ممارسة حقوقه المدنية ، وله نفس المركز الاجتماعي الذي للضحية : ولا يكون هناك قصاص اذا كان احد الطرفين نصرانياً مثلاً والآخر مسلماً ، أو ان أحد الطرفين والد الآخر .

حين لا تتوفر الشروط الشرعية اللازمة للقصاص ، أو حين تننازل الضحية عن حقها ، يجب أن تفرد دية تختلف كيتها حسب اهمية الظروف المحيطة بالجريمة . وحددت السنة دية قتل الرجل بمئة جل أو ما يعادلها . اما بالنسبة للجروح فان القاضي يقرر كمية الدية بأن يقدر نقصان القيمة المادية للضحية المسبب عن الجريمة وذلك حين يكون المعتدى عليه عبداً . ودية المرأة نصف دية الرجل ؛

ودية الذي ثلث دية المسلم .

كانت الادارة في العهد الاموي في مصر هي التي تفرض دفع الدية : فحين يستمع القاضي لشكوى يهد بها الى خير يقرر أهمية المرح ، ويحدد الكمية التي تدفع بحسب ذلك ، ويخبر ديوان الجند بالامر . فيقطع المبالغ المقرر من ارزاق المذنب ويمنح اعشيرة المعدي عليه . وقد يطلب القاضي في ظروف معينة من المدعي أو المدعى عليه كليهما حلف اليمين . ويلجأ كل من الذي والغريب المستأمن الى رؤسائه المشرفين على شؤون القضاء في الاحوال الاعتيادية ، لكن يمكنهما في جميع الاحوال اللجوء الى القاضي الذي يستطيع بحسب الرأي الغالب أن يرفض الحكم بينهما . لكنه الوحيد الذي يقوم بذلك حين تكون لأحد المسالين مصلحة في القضية . ويحكم القاضي بحسب الفقه الاسلامي وحده ؛ ولا يستطيع ان يقبل الافادات المتعلقة بشيء غير شرعي كالخنزير أو الذبيذ مثلاً . وقد يكون القانون الجنائي مع الاجنبي أو عليه ما عدا جريمة شرب الخمر .

وليس مهماً المذهب الذي ينسب اليه القاضي من المذاهب الاربعة ، إذ يلزمه ان يحكم في القضية حسب قرارات فقهاء المذهب الذي يعتنقه المتخصصون ؛ وأصبح ضرورياً في المدن الكبيرة تعيين قاض خاص لكل مذهب على شرط ان يكون عدد اتباعه كافياً . ولا يسمح للسني أن يحتكم الى قاض غير سني كأن يكون شيعياً أو خارجياً ؛ وقد ثارت المشكلة بصورة حادة في مصر في عهد الخلفاء الفاطميين ، الذين مع انهم عينوا قضاة من الشيعة ونظموا دعاية نشيطة في مصلحة عقائدهم ، فقد اضطروا الى الاحتفاظ بقضاة حنفيين .

هكذا يجب ألا ننسى ان القاضي هو ممثل سلطة الخلافة ، وانه

يجمع في شخصه السلطات الروحية والزمنية ، فهو شخصية دينية وعلمانية في آن واحد ، وبسبب هذه الحقائق يلزمه ان يتمسك تمام التمسك بالعقيدة التي يعتنقها امام الجماعة الاسلامية .

إن الازمة الدينية الخطيرة التي أثارَت الاسلام خلال النصف الثاني من القرن ٨م والشاطر الاكبر من القرن ٩ م = ٨٣ ، كانت ذات آثار بليغة في اعمال القضاة . فان وصمة الشرك والمجوسية والزبغ التي حوتها كلمة زنديق ، والتي اتهم بها كثير من الشخصيات البارزة في الاوساط العباسية ، يبدو انها لم تثر القضاة ، لكن حين أصبح الاعتزال الذي جانب وجهة النظر التقليدية للفقهاء ، في عهد المأمون عقيدة الجماعة الاسلامية ، رفض كثير من القضاة قبولها ، وأمر الخليفة بأن عليهم ان يقسموا بآيائهم لمذهب الاعتزال الذي عرفه العامة في صورة القول بخلق القرآن . هذه المحنة التي مارسها المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١ = ٢٣٢ = ٢٤٧ هـ) بالمعنى العكسي قد اتبعت بوحشية بالغة ضد عدد عديد من القضاة الذين اسرع اعداؤهم للوشاية بهم لدى وكلاء الخلافة .

لقد جعل كل ما يتعلق بالقاضي حق لباسه بحيث يدل على انه يمثل الخليفة : فهو يلبس نفس ألوان ثياب الخليفة . وفي عهد العباسيين لبس القاضي السواد بالطراز الرسمي ، لكنه يبدو ان لبس السواد كان في المناسبات الهامة فقط . وقد تبنى القاضي اللباس الابيض عادة بوصفه لباس الفقهاء . وكان القاضي يرتدي ملابسه الرسمية في احتفالي يوم الجمعة حين ينوب عن الخليفة في ذلك . وتظهر كثير من صفحات التاريخ الاسلامي القضاة وقد شغلوا ارفع المناصب في الدولة كوزراء او قادة في جيش صقلية او امراء على اشبيلية .

إن نعتقد الشريعة الذي ازداد كثيراً على مر الزمن ، قد ضاعف عدد المؤلفات الشرعية التي وجد الحكام صعوبة كبيرة يوماً قيوماً في التعرف عليها . ولما كانت مستشاروهم غير كفؤين ، وجدنا القضاة وجمهرة المسلمين ألقوا الرجوع إلى عدد قليل من الأفراد الذين تميزوا بشهرة خاصة في التفقه والعلم لاخذ الفتاوى منهم ؛ هكذا نجد شخصيات خطيرة في الأندلس كانوا يشاهدون باحثين عن فتاوى فقيه في القيروان المركز الهام للمذهب المالكي . وقرر الأمر أن يصبح المفتي المفسر الرسمي للشريعة الإسلامية . وقد وجد في الأستاذة فقيه كبير شغل منصب قاضي القضاة . ومع أن المركز والوظيفة أقل نفوذاً في البلاد الإسلامية اليوم ، فلا يزال قائمين . ففي الجزائر في تلمسان ، منذ خمسين عاماً كان القاضي يمثل قبيلة « هدرى » وهي من العرب والبربر ، بينما مثل المفتي قبيلة (الكولونجلي) أي الترك والبربر . وكان الأول مالكيًا والآخر حنفيًا ؛ وكانا خصمين ذوي نفوذ .

لقد أدى المسلك البطريركي والفقهية في القضاء على مر الأيام إلى تقييد نطاق عمل القاضي . لكن العادة التي سار بها العقيدة ، سمحت للقاضي كما أشرنا بتطبيق عقوبات كفيفة على الجرائم التي هي أبسط من تلك المذكورة في القرآن ، وكانت تلك العقوبات أخف من التي أمرت بها الشريعة لذلك دعيت بالتعزير . لكن الحياة الاجتماعية تغيرت بعمق شديد بالنسبة للحاكم الذي لم يشرف أشرفاً ثابتاً ومباشراً على وسائل صيانة القانون والنظام بين الناس . ومنذ عهد الأمويين نلاحظ ظهور وظيفة صاحب الشرطة الذي كان في نفس الوقت منفذ قرارات القاضي فيما يتصل بالقانون الجنائي القرآني ، كما كان حاكماً

لعدد من الجنح البسيطة غير محدود كان يغاقب عليها آنيا . وقد راقب المجرمين وطاردهم ليجلبهم بالتالي في حضرة القاضي إن أمكن . وصل هذا النوع الجديد من القضاء الذي مر بتطور تاريخي لم يدون بعد ، الى يد صاحب المدينة ، والقائد ، أو الباشا التركي فيما بعد . ويلزمنا ألا نبالغ في صفة هذا التشريع العلمانية ، ففي الاسلام لانستطيع التمييز بوضوح بين ما هو دنيوي وما هو وحي . إلا ان هذا التشريع يشمل في نفس الوقت امورا ليست في نطاق الشريعة وإن كانت تدخل في اختصاص القاضي .

والى حد كبير كانت الجنح البسيطة نسبيا تدخل ضمن اختصاص صاحب الشرطة ، اما الجنح الاخرى وبعض مخالفات قانونية معينة ، فقد كان ينظر فيها حاكم خاص هو المحتسب . وهو يظهر لأول مرة في القرن (٨ م - ٢ هـ) بسلطات واسعة جدا ومعينة تماما فهو يشرف على المخالفات الخاصة بالاوزان والمقاييس ، والاسواق والمصانع ، ونوعية مواد الطعام ، والبضائع المصنوعة واصناف الحرف ، كما يراقب الزناة والحانات وشرب الخمر والمقاورة وحرية الناس والظهور بمظهر لائق في الطرقات العامة ، وحالة المباني ووجوب عدم مضايقة الحياة الجماعية وبصورة عامة كل ما يتصل بأخلاق المجتمع وسلوكه . هذه الصلاحيات كانت تشبه وظيفة الـ *edile curule* الروماني ولا يمكننا الشك في أن المحتسب قد ورث تلك الوظيفة الرسمية بصورة غير مباشرة عن زده البيزنطي الـ *agoranome* وقد لاومت هذه الوظيفة الحياة الاسلامية تمام الملازمة ، مادام القرآن قد حكم على جميع أنواع الفسق وارشد المسلمين الى : « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » وهي صيغة أصبحت في القرن (١١ م = ٥ هـ) التعريف

المقبول لواجبات المحتسب ، أي الحسبة ، التي تعني المحافظة على
الامانة والادب بين أفراد المجتمع ، ويستند قضاء المحتسب بوضوح
الى الشريعة ؛ وهو مساعد للقاضي .

يعترف الفقه الاسلامي بصنفين من الجرائم : الاول ذي طبيعة
انسانية وخاصة وهو خاضع لناموس القصاص والقدية .

ويشمل الصنف الثاني المرققة ، والسطو ، والعلاقات الجنسية
غير الشرعية والردة وشرب الخمر . والعقوبة لا تمتدحوا الذنب في
كلا الصنفين ، لأن الاثم سينال عقوبته في الآخرة ، ويمكن التكبير
الذي لا تستطيع أية سلطة أرضية ان تأمر به ، وانما سمعني فائدته
في العالم الآخر .

إن الجرائم التي تحدث عنها القرآن قد وضع لها حدوداً معينة
ومن الطريف أن نجد في الاسلام كما في اكثر المجتمعات القديمة ،
إن السرقة يعاقب عليها بقسوة ، وتعني السرقة الاعتيادية مفاجأة
السارق متلبساً بحيازة املاك ذات قيمة تعود لشخص آخر . وكانت
المادة أن يعاقب هذا الجاني بقطع يده اليمنى ، وفي حالة تكرار الجريمة
تقطع القدم اليسرى ، وبعدها اليد اليسرى ، وأخيراً القدم اليمنى .
ونجد حكايات هنا وهناك في الادب العربي يبدو انها تثبت ان شرطة
المدن الكبيرة هي التي كانت تنفذ هذه العقوبات بأسلوب قاس ، وإن
كانت العقيدة قد جعلت لها شروطاً كان الواجب أن تصبح معها هذه
استثناء لا قاعدة . إن السطو المسلح كان يعاقب عليه بالموت ،
لكن العقيدة هنا أيضاً أخضعت تنفيذ العقوبة بمخالفاتها لشروط
مختلفة . ومنذ سنة ١٨٥٨ نجد قانون العقوبات التركي يعالج المرققة
وفق التشريع الاوربي . والشريعة القرآنية فيما يتعلق بالسرقة

والسلطان قد نسبها العالم الاسلامي اليوم بصورة كلية تقريبا . وقد حل
علماء تدريجيا قرارات رجال الشرطة أو الهاشوات المتعاقبين ، كما حل
تعزير القاضي بوصفه ملائما للجرائم الصغرى . وكما يقول أحد
الكتاب ان التعزير يقبّل بتبدل المركز الاجتماعي للمتهم : ففي حالة
الاشخاص العظام والبارزين يتخذ التعزير شكل تنبيه رصين يتفوه
به نائب عن القاضي ، في حين ان الفقهاء وأمثالهم كانوا يدعون
للحضور امام القاضي فيحذروهم ويظهر لهم اغلاطهم ، اما التجار
فكانوا يسجنون في حين كان السوط نصيب العامة .

لم يكن يحتكم الى القضاء الابوي المختصر في امور زنا المرأة
في المجتمع الجاهلي ، إلا في الحالات التي كان فيها هذا القضاء ذا أثر
في العقاب . واتخذ القرآن موقفا عرفتة اليهودية والمسيحية ، وذلك
بتحريمه أية علاقات جنسية خارج الزواج . والرجل والمرأة يجلد
كلهما بمئة جلدة في هذه الحالة ، وينسب الى محمد انه هيا السبيل الى
أن يشرع القرآن عقاب الرجم بالحجارة الذي عرفه اليهود . وتأمّر
الشريعة بجلد المحصنات اللاتي يزني ، أي النساء المتزوجات ، وينطبق
هذا على جريمة اللواط . لكن في الواقع ان التشريع القرآني الخاص
بالزنا لم يكن قابلا للتطبيق ، فالقرآن يطلب شهادة أربعة شهود أو
ارتكاب جريمة الزنا ، كما يعاقب القرآن بمئة جلدة المبلغ الذي
لا يستطيع أن يثبت اتهامه بدقة . هكذا يلزم المرتكب للفعل أن
يعم هو نفسه ، وأن يصر على ذلك ، ومن المناسب أن نتذكر ان
كل هذا قد نزل به الوحي فيما وقع لهامشة حين ضلت في الصحراء
ثم ارشدها بدوي الى المدينة . ونجد ان زنا المرأة في الحياة
الاسلامية القديمة والحديثة على السواء ، يدفع بالزوج او رئيس

العائلة الى اخفاء المذنبه ، وهذا سبب لحوادث الاغتيال المتكررة
 التي بقرتها الذميون أيضا الى الحد الذي تشجعهم عليه عاداتهم .
 أما الردة فبالإضافة الى صور العذاب في العالم الآخر فجزاؤها
 الموت ، هذا على الرغم من ان الردة لم يكن لها حد في القرآن ،
 والردة هي جريمة في الله . ولا يحق للمرتد عمله هذا الا اذا ارغم
 عليه بالعنف وقام في كثير من سبيل العقيدة . ويجب انذار المرتد
 لثلاثة أيام كي يرجع الى الاسلام . ويزى في هذا الحال ان العقيدة
 اذا لم تعاقب على الردة فالذي يحصل بدلا عن ذلك اغتيال المرتد .
 ولم ينص القرآن على تحريم الخمر إلا بعد ان اثر السكر مرة
 على مقدمة الجيش بحيث لم يستطع الصمود . وكان عرب الجاهلية
 يشربون الخمر ويسكرون ، كما كان الخمر المشرب المفضل في البلاط
 العباسي وفي المدن ، وكانت العامة تشرب النبيذ المستخرج من التمر .
 ومن حيث المبدأ يشمل التحريم أي شراب مخمر ومسكر . ومحسبي
 الخمر يجلد ثمانين جلدة كما عند السفين ، واربعين كما عند الشيعة .
 وفي تاريخ الجماعة الاسلامية ، يجد ان الحملة على الخمر هي احد
 الاعمال التي تجب على المصلحين الذين يتعقبون الشاربين باسم الحسبة
 ويكسرون الدنان .

ولدينا اليوم مؤلفات خطيرة عن الحسبة ، بدأ طبعها ودراستها
 منذ عهد قريب وهي تشمل طائفتين من المؤلفات : الاولى اخرجها
 فقهاء وهي ذات طابع يقيني بحث ولا تشوقنا إلا قليلا . والطائفة
 الاخرى هي انواع من « الاوامر » انتقلت من محسب الى آخر وفي
 ثناياها قواعد تفصيلية دقيقة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية متوافقة
 مع العادات المحلية ، وهذه وثائق ذات اهمية بالغة في مستقبل صناعة

وتجارة البلاد الاسلامية .

إن هذه التشريعات المختلفة التي لم تكن مجالات سلطتها واضحة دقيقة قد سادها نوع من الخلط . في حالة عدم وجود محاكم لرفع الدعاوى ، يستطيع المشتكي الذي لم يقنع جيداً بحكم القاضي ، ان يحمل دعواه الى آخر ، اذا كان قرار الاول الذي اعطاه لصالحه لم ينفذ . هكذا كان بالامكان أن يعتبر حكم من الاحكام ظالماً ، ونتيجة لذلك يتيسر الذهاب الى حاكم خاص هو ناظر المظالم . وكان هناك امكانية أخرى كذلك هي مراجعة الخليفة .

تحور اكثر البلاد الاسلامية خلال القرن ١٩ من التنظيمات القضائية المعقدة التي وجدت في العهود القديمة . كان لتركيا في كل لواء ممثل للشرعية هو القاضي الذي يشرف عليه مفت اعلى هو شيخ الاسلام . وأكبر شخصيتين قضائيتين كانا القاضي عسكري في الروميللي والاناضول ؛ اما المحاكم الجزائية فكانت بيد الصوباشي والمحاسب . وفي سنة ١٨٧٤ اقيمت محاكم عامة للتشريع ومحاكم تجارية فاقصرت سلطة القضاة على أمور الشريعة الخالصة ، أولئك القضاة الذين زالوا من تركيا في سنة ١٩٢٤ م . وفي مصر أيام محمد علي ، اعتاد سلطان استامبول ان يرسل قاضيا كل عام ، ولهذا القاضي نائب . وعمل النائب هو ان يعالج الشؤون البسيطة بنفسه او بواسطة شاهد عدل ، اما القضايا الهامة فتأتي الى القاضي الذي يعاونه نائب ومفت ، يعطيان فتوى الى المشتكي . اما التشريعات الجزائية فتخرج من ديوان الامير ، أو من رئيس الشرطة (الضابط) أو من المحاسب . وفي الربع الاخير من القرن ١٩ ادخلت بعض الاصلاحات العامة التي ادت الى نشوء محاكم مدنية وجزائية ذات ثلاثة محكمات ، لهم سلطة المفتي العليا . وعرفت ايران كذلك نوعين من

المحاكم الشرعية والمدنية ؛ وقد حددت سلطة المحاكم الشرعية سنة ١٩٢٨ ، ومنذ سنة ١٩٣١ لم تعرف ايران غير محكمة المجتهد التي ترسل اليها المحاكم الاعتيادية الامور ذات الطبيعة الشرعية بصورة خاصة . وفي شمال افريقية اقتصر حكم القضاة على القضايا القرآنية البحتة ، من زواج واث و غيرها . وقد نظمت محاكم مدنية في كل مكان وحصل نفس التطور في بقية أنحاء العالم الاسلامي .

المصادر

Tyan , organisation judiciaire. Gaudetroy-demombynes, rev. et. Islam., 1939.

الفصل الحادي عشر

الحياة الاجتماعية

الطفولة : الحثالة ، التربية ، التعليم ، الادارة المنزلية ، الألعاب

المحرمات ، الاعياد ، الالباس ، المرضى ، المستشفيات ، الموت : الدفن ،

القبور ، الاخوة



إن حياة الشعوب الاسلامية ، التي تختلف كثيراً من فترة الى أخرى ، ومن بلدة الى أخرى ، كانت ولا زالت ، زاخرة عن طريق سلسلة من الطقوس والمراسيم المشتركة بين جميع المسلمين . وسنعمل على توحيد هذه الطقوس والمراسيم ، وتركيزها في هذا الفصل .

إن الاعتقاد الشعبي ما زال يعترف بالانطباعات الوهمية التي تتولد لدى الانسان ويقبل الاسطورة القائلة بأن الطفل يظل في رحم امه

أربع سنوات بعد غياب زوجها عنها . لكن الدين رفض هذه الامور وأنكرها .

إن ميلاد الابن بالنسبة للعائلة العربية ، حدث سار ، اما البنت فلا يرحب بها كثيراً . وحسب عادة جاهلية لا نعلم معناها بوضوح وصممها القرآن وحكم عليها ، كانت البنات توأدن وهن أحياء بعد مولدهن مباشرة لدى البعض من العرب . وقد مجدت الحمة النبوية عادة قديمة كان بموجبها يحتفل عند الميلاد بتضحية شعر الرأس « حلقه » وتقريب اضحية . وفي اليوم السابع بعد الميلاد ، تضحي غنمتان أو عزتان ويوزع بعض لحمها على الفقراء . وفي نفس الوقت تعطى صدقات بشكل كمية من الفضة مساوية لوزن شعر الطفل الذي يخلق في صورة احتفال . وقد احتفظت هذه الشعائر بمجموعها باسمها القديم وهو « عقيقة » .

وبعد مولد الطفل مباشرة يستحب أن يتلى الاذان في اذن الطفل اليمنى ، وكلمات الاقامة في الاذن اليسرى ، وذلك ليتدود على الايمان بالدين .

ويتصح بتسمية الطفل في اليوم السابع ، لكن ربما يكون ذلك قبل هذا الميعاد أو بعده . ويتباين الاسم في أنحاء العالم الاسلامي . ونجد بالاضافة الى الاسماء الاسلامية الخاصة ، أي العربية ، أسماء محلية قديمة من فارسية وتركية وبربرية وغيرها ، ما زالت مستعملة ، هذا عدا أسماء الاولياء الذين يعمد تأثيرهم في منطقة شاسعة كثيراً أو قليلاً : فشعيب ، وبومدين هما من الاسماء الجارية في وهران ، حول مقام سيدي بومدين في العباد قرب تلمسان ، وجلالي وجلول أسماء عامة كقباب سيدي عبد القادر الجلاي .

أما الأسماء الإسلامية الرئيسية للحقة فهي أسماء الرسول : أحمد
 ومحمد ومصطفى . وأسماء آل البيت : علي حسن حسين . وأسماء
 الأنبياء والصحابة : موسى وإسماعيل وسليمان وداود وإبراهيم
 وعمر وعثمان . وأخير آ عبد الله وغيره من أسماء الله التسعة والتسعين
 التي يحل فيها محل كلمة الله : القادر ، الرحمن ، السلام ، الرزاق ،
 الحميد ، العزيز ، الحق ... الخ . ويكمل اسم الطفل بإضافة اسم
 أبيه كأن تقول : أحمد بن محمد ، وكذلك الكنية وهي اسم
 الابن الأول كأن تقول : أبو القاسم ، أبو عثمان ، أبو
 تاشفين ... الخ . وربما أعطي للطفل اسم شهير في التاريخ (يجمع
 بين الاسم والكنية) مثل : أبو الحسن علي . كما يمكن أن يكون
 هناك لقب كـ نور الدين ، أبو بخله ، بوعمامة ، الأسود .. الخ
 أو يعطى نسبة : الصباغ ، البغدادي ، المدني ... الخ ، وتسمى
 البنات بأسماء النساء من عائلة الرسول : خديجة ، فاطمة ، عائشة
 زينب .. الخ ، أما بصورتها الأصلية أو المصغرة أو تكون أسماء
 صفات أو ازهار .. الخ ، مبروكة ، محبوبة ، زينة .. الخ .
 يرجع الطفل الصغير كلية الى المرأة : وترضعه الام سنتين اذا
 استطاعت . والطفل عادة موضع حب ورعاية كبيرين لدى جميع
 طبقات المجتمع ، وشغل امه الشاغل ان تحميه من شر العيون : ولكي
 يدفع عن الطفل نظرة الجبن الشرير نجد كثيراً من المائلات الغنية
 تترك أطفالها قذرين وفي ثياب خلقة . والعبارة التي تمتدح صحة
 الطفل الجميدة أو ظرفه تعتبر خطرة ، فاذا قيلت ، فسرعان ما يعمد
 اهله الى ازالة تأثيرها الممي بتعبير او حركة مناسبة .

يعتني المسلمون في كل انحاء العالم الاسلامي بالغلمان ويحرصون
 على اجرائه اشد الحرص مع انه لم يذكر في القرآن . ويجري إما في

اليوم السابع بعد الميلاد أو الاربعين أو السنة السابعة ، أي في بداية المرحلة الثانية من مراحل نمو الطفل . وتختلف الطقوس التي تصحب الختان من بلد الى آخر . وقد تكون مشابهة لمراسيم الزواج غالباً . ويلاحظ ان مراسيم كل من الختان والزواج هي : « مراسيم عهد انتقال » : ويحتفل بالختان في موعد مناسب من السنة ، وكانت عادة الامر أن يتحف الناس بالهدايا في هذه المناسبة .

تربي النساء الاولاد حتى سن السابعة . وفي هذه السنة يبدأ الولد حياته كرجل : إما بمساعدته لأبيه كراعي أو فلاح أو صانع أو يبدأ بدراسة القرآن في المدرسة « المكتب ، الكتّاب » . وهذا نصيب عدد ضئيل .

يتعلم الولد في المدرسة ، قديماً وحديثاً ؛ كما هو الحال في كثير من الاقطار الاسلامية ، قراءة القرآن ، ثم كتابته بمحمد آلي من الذاكرة . ويجلس أمامه لوحة خشبية صغيرة مغطاة بطين ابيض أو طباشير منقوع في الماء ، ويحاول ان يكرر آيات من القرآن اعطيت كنموذج له ويحاول ان يتعلمها عن ظهر قلب ، دون ان يأخذ أحد باقوامه معناها ، وهذا على أية حال فوق ادراكه الطفلي . الا انه يستفيد على الاقل من الاسلوب الادبي كما يستفيد من ترتيبه لهذه الآيات . وحين يستوعب الصبي القسم الموضوع على اللوحة يزال ويحل محله قسم آخر . وحين يتعلم حزبا او جزءاً تقيم أسرته وليمة لمعلمه وتلاميذه . وهناك احتفال اروع هو الختمة حين يضع الشاب « ختما » على معرفته للقرآن فيخرو من ثم حافظا . ويروي انا ابن جبير الخطبة التي يلقيها الحافظون الشباب في ليالي رمضان

في القرن (١٣ م = ٥٧ هـ) في مسجد المدينة والتي تتلوها ولائم بقيمها
الاباء .

وفي القرن (١٤ م = ٥٨ هـ) نجد ابن خلدون يمتج على هذه
الطريقه من التعليم التي كانت سائدة في الغرب الاسلامي ويشيد بتفوق
الاساليب المشرقية التي تفصل تعليم فن الكتابة عن تعليم القرآن .
وتضاف الى هذه المعرفة بعض قواعد النحو والحساب ويرجع ذلك
الى حسن نية المعلمين وكفاءتهم التي قد يقرها الراى العام او لا يقرها .
وقد وجدت لدى كثير من الاولاد موهبة طبيعية لهم تركيب اللغة
وفقهم اناحت لهم ان ينالوا ثقافة جيدة على الرغم من ان بدايات ذلك
كانت اولية جداً .

بعد تزود الشاب بهذه المعرفة يأخذ بتلقن العلوم العربية ؛
كالتفسير والحديث والفقه واصول الدين والنحو واللغة والبيان
والادب .

هنا ثمانية نجد الذاكرة تقوم بالدور الاكبر ، فالطالب الشاب قد
اعد جيداً لتلقى المعرفة في اشد صورها تجرداً . وكان يجري التعليم
في بيت الاستاذ او في المسجد غالباً حيث يأخذ الصبي مكانه في الخلقة
المكونة من تلاميذ يحيطون بالاستاذ ، الذي يجلس مستنداً ظهره الى
اسطوانة من اساطين المسجد ، او يجلس على كرسي . يقرأ الشاب
جزءاً من كتاب قديم فيشرحه الاستاذ ؛ وتؤخذ ملاحظات قابلة ؛
وكان على الذاكرة ان تستوعب النص وتفسره . اما الجدول فينظم
حسب مايشاء الاستاذ . وينال الطلاب البارعون والقادرون سلطة
الاستاذ في اعادة دروسه في مدينة اخرى وهذا مايسمى بالاجازة .
هذا الشكل اخذت بعض الكتب التي وضعها اساتذة بارزون في

الانتشار وتغلقت عقائدهم بذلك في جميع انحاء العالم الاسلامي
هذا التنظيم المعروف جيداً في الغرب الاوربي في العصور
الوسطى والذي لا يخلو من حسنات ، انتشر في الشرق على نطاق
واسع . لقد فتح بعض الخلفاء العباسيين دوراً للحديث ، واسس
المأمون (دار العلم) التي سرعان ماقلدها الفاطميون في مصر ، والتي
اصبح الازهر اثر ابرزها . هذه الجامعة القاهريه حاكها المغرب في
الريثونه بتونس والقروين بفاس .

في القرنين (١١ - ١٢ م = ٥ - ٦ هـ) اسس بعض الحكام
كنظام الملك ، ونور الدين زنكي ، وصلاح الدين وغيرهم مدارس
للفقه ودرست فيها اصول الدين والمذهب السني الذي حل انذاك محل
المذهب الشيعي السائد . اعطت هذه المدارس لهيئة الفقهاء التي كانت
ذات سطوة ونفوذ عقيدة مرسومه واساساً متمسكاً . والتي يضمن
مؤسسو المدارس دوامها ، اوقفوا عليها الاوقاف وعينوا عدداً
الاساتذة وطبيعة تعليمهم ، ولما كانوا شافعيين فانهم علموا باديء
الأمر حسب هذا المذهب . وأسست هناك فيما بعد مدارس خاصة بالمذاهب
الآخرى . وبدوا ان سلطان المماليك بيبرس كان اول من اسس
مدرسة نموذجية حوت بين جدرانها المذاهب الاربعة جميعاً ؛ وكانت
بالتالي ذات اربعة اواوين . وقد سارت المدرسة قدماً في تنظيمها ،
لكنها اصبحت بتقهقر في نحو الثقافة العامة ؛ وبذلك اكدت تقلص
الفكر الاسلامي .

وعلى موازاة التعليم الرسمي ، كان للتجمعات السرية مدارسها
الخاصة كاخوان الصفا والقرامطة والاسماعيلية . كما طور الصوفية
مدارسهم فنمت نتيجة الاتجاهات المتنوعة التي اوجدت جيوية

التصوف . ان انتشار الربط والمخوائق والتكايا والزوايا الصوفية اجداداً من القرن (١١ م = ٥ هـ) فصاعداً ، عمم تعاليمهم وابقى على صبغتهم الزهدية ؛ ونعتبر بعض زوايا شمال افريقية نماذج طيبة لهذه البيوت التعبدية التي جرت فيها الى جانب ممارسة الطقوس الصوفية الخاصة ، حركة تعليم هدفت الى اعماء الاهتمام بالثقافة الاسلامية العامة ، كما انها غدت موجهها في الامور السياسية والاجتماعية .



الفتاة الصغيرة هي المساعد الطبيعي لربة البيت ، فبمجرد ان تترعرع ، تسام في الريف ، في اعمال النساء الشاقة ، اما في المدن فتخرج الى الشوارع مادامت غير محجبة ، وفي الاسر التي تكون نساؤها عاملات تتعلم الفتاة المهنة ، وإن كان هناك اتجاه عام الى عدم تعليم البنات المهن ، فان عملهن الاساسي هو الزواج . وفي العهد القديم للمجتمع الاسلامي ، نجد نساءاً متملمات في الطبقات العليا من المجتمع العباسي . لكن كما كانت الحال في اليونان القديمة ، كانت الجوارى والمحبرات هن اللاتي يبرعن في فنون الغناء والرقص بالاضافة الى ما يتمتعن به من جمال ، بل كن أحياناً يتنن ثقافة واسعة : ويعطينا كتاب الاغاني نماذج لامثال هؤلاء النساء ، وتمثل لنا تودد العالمة قصبة من افاصيص الف ليلة وليلة . ولم يسمح للنساء بصورة عامة بدراسة القرآن .



نجد تعارضنا اليوم في العالم الاسلامي بين النظم التقليدية والنظم

المدرسة التي تنفذ معها جنباً الى جنب . وتتمثل هذه المعارضة في التعليم بصورة واضحة . ان المدارس القرآنية مازالت موجودة ، ومازال العصبية يحملون لوحاتهم في أيديهم ويهزون اجسامهم عند ترتيلهم ، ومازال المعلمون كذلك يعطون دروسهم في المساجد ، وما انفكت الجامعات القديمة تجذب إليها جمهوراً من الطلاب ، ومع ما اصابها من روح التجديد فهي لا تزال تحتفظ بعاداتها القديمة وطابعها التقليدي ، وحتى مدارس المغرب التي تميزت كثيراً مازالت تدرس الفقه . وبازاء دور التعليم التي ترجع الى عشرة قرون خلت تقوم دور العلم التي تحاكي احدث ما نشاهده في اوروبا . وتفتح جميع انواع المدارس الفرنسية في شمال افريقية أبوابها للمسلمين . اما تركية فقد اتجهت اتجاه كلياً نحو تجديد نظامها التعليمي في ثلاث درجات ، ولاتملك مصر وسورية والعراق مدارس أولية جيدة فحسب بل شرعت كذلك شروعا طيبا في التعليم الثانوي والعالي ، وقد تقدمت جامعة فؤاد في القاهرة قبل الحرب تقدما يدعو الى الاعجاب . وتعتبر جامعة عليكرة وحيدر آباد في الهند الاسلامية من المراكز الثقافية الفعالة يساعدها نظام تعليم ابتدائي وثانوي جيد التنظيم . ان وجود هذه المحيطات التربوية المتناقضة جنباً الى جنب يؤدي الى عدم توازن بين مختلف طبقات الشعب ، وعدم التوازن هذا له تأثيره في هذه الحياة الاجتماعية .

اما الحركة النسوية الواسعة الانتشار فتقود النساء الى أن يأخذن دورهن في تطور التعليم . وقد شعر جيل الشباب الناشئ بأضرار تشيئة زوجاتهم على الطراز القديم . واستطاع بعض النسوة منذ قرن أن يحصلن على تربية نافعة في بعض المدارس المسيحية ،

حيث جلس جنباً الى جنب مع الفتيات الكاثوليكيات والبروتستانتيات .
وفي السنوات القلائل الاخيرة ، أسست مدارس وطنية للبنات في كثير
من الاقطار ، وفي تركية وغيرها أخذ التعليم يتقدم حثيثاً ، كما أخذ
التعليم العالي يقيس للطلاب المسلمين في الشرق والغرب معا .

يتزوج الشاب في حوالي العشرين من عمره ، وتختلف طبيعة
هذا الزواج اختلافاً بالغا في العائلة الابوية النظام ، حيث جميع الافراد
يظلون متحدين اثناء حياة رب العائلة ، عنه في نظام العائلة الحديثة جداً
حيث نجد الزوجة الواحدة ، ونجد للزوجين بيتها الخاص بها .
وتعكس أوضاع المنزل هذا التباين بين الطرفين : فاما منزل حديث
أو شقة مجهزة بالكهرباء أو قصر واسع يضم عدة فروع من عائلة
واحدة ، واما منزل من منازل البحر الابيض المتوسط القديمة ، أو
خيمة أو كوخ ، أو كهف قديم .

ولم يبق من قصور الخلفاء والشخصيات القديمة الاخرى سوى
الذكرى التي يحفظها لنا الادب . وفي كلا طرفي الاسلام المكان
وازمان ، تقوم قلاع الامويين في سورية ، وقصر الناصريين في غرناطة
وهو الحمراء . والاجزاء التي ما زالت قائمة في المشفى ، وفي قصر عمرة
وقصر الحائر وغيرها ، تشهد جميعا على وجود بنايات متقنة جداً وغاية
في الفخامة بحيث يصعب على علماء الآثار عدم اعتبارها ساسانية
الاصل . ان الورثة الحقيقيين للملك الملوك « الشاهنشاه » ، وهم
العباسيون ، لم يتركوا من القصور التي بنوها من مواد وثيقة وجيلة
معا والتي كانت في زمانها بالغة الفخامة والروعة ، سوى أبواب
واسع طويل وجدت فيه غرفة لاستقبالاتهم الرسمية : والذي نجد فيه
المعماري فارسي . تكونت مساكن الخلفاء من أوارين منفصلة اقيمت

هنا وهناك في الحدائق بين البحيرات التي عكست الاشجار ، وبين
الجدول التي جمعت حفافها احواضا للازهار ؛ ومن قصور على
دجلة ؛ وبنائات دقيقة تتمثل نخامتها في زخرفتها بأشكال الفسيفساء
والزخارف الجصية والجسدية والمعلقات التي تزين الجدران والسجاجيد
تحت الاقدام ؛ كل هذه كانت أشياء قصيرة العمر . وقد شيد كل
أمير أو ابنه اذا استطاع الى ذلك سبيلا تاركا أو ابن اسلافه تنتظر
مصيرها ، وفي هذه الايام كان يبحث عن مسرات يومه ؛ وفي
الصيف صنعت جدران غرفته من الخيش المربط بالماء ، او تغطى
بالناج المذاب .

عرفت بلاد العرب « الحجاز واليمن » منذ الجاهلية بيوت ذات
عدة طبقات ، وقلاعا من السهل ان تقاوم ضد اسلحة البدو البسيطة .
وتكون الغرف المشيدة تحت الارض ملجأ في حالات تطرف درجات
الحرارة . وبين النماذج المتعددة للبيوت التي يسكنها المسلم الوسط ،
نجد ان بيوت البحر الابيض المتوسط ذات الطابق الواحد هي الشائعة .
صالة صغيرة تفتح على المدخل حيث يجد الزائر دكة يستريح عليها
منتظرا احد افراد المنزل او تقوده خادم عجوز خلال ممر الى فناء المنزل
المستطيل الذي يحوي في وسطه بركة ماء وتزينه بضعة شجيرات .
ويحيط بالمنزل ممرات تتدلى منها الكروم :

وعليها تفتح الابواب والشبابيك الضيقة للغرف ، واحدها
أوسع من الآخر وتمتد وتوسع في بيوت الاغنياء مكونة الـ (ليوان)
في ذراعين على هيئة ؛ وفي كل مكان فجوات في الجدران ، وهي
الرواشن تكون كخزانات او تصنع عليها رفوف . وفي احدى
الزوايا سلم يؤدي الى السطح حيث توجد احيانا غرفة عليا ؛ والسطح

هو مجال السماء وماجاها من في ليالي الصيف . اما الجدران من الخارج
فعارية ، فيها على الغالب بضعة نوافذ لا تفتح . اما الداخل فمحجوب
تماما عن أعين المارة ومحجى ضد حوادث السطو . والاثاث قليل :
بضعة صناديق غطاها النجار والرسام رسوم بسيطة ، وبعض المفارش
والحصر والسجاجيد ، وعدد من المعلقة على الجدران والابواب ؛
وادوات شتى واوان معدنية واخرى فخارية ؛ وكلها سواء كانت
متقنة او عادية اكدست شكلا قديما نبيلًا .

إن جمهور الرجال يندر أن يكونوا في بيوتهم خلال النهار ؛
فهم يبحثون عن رزق يومهم وينهبون الى دكاكينهم او امصانهم ،
وهمتمون بشئون عملهم ، ويتحادثون في الشوارع والاسواق
والمتنديات . ونجد لعب الورق اليوم منتشراً حول سواحل البحر
الابيض ، اما في القديم ، فرغم تحريم الحديث الذي اتم عمل القرآن
فقد كانت ألعاب الحظ تمارس بشتى انواعها على لوحة منقوشة ؛ وتسمح
بعض المراجع الفقهية بالشطرنج لعدم وجود عامل الحظ فيه وبوصفه
تراثا ملكيا جاء من الهند وفارس . ولم يستطع أي تحريم شرعي
خلال القرون أن يقضى على الولع بسباق الخيل والمراهنة عليها ، وهذا
عين ما يقال عن سباق الحمام ومهارة الديكة . وقد حصل كثير من
الشخصيات البارزة على شهرة بسبب مجموعاتهم من الطيور .

أخذت الالعب الرياضية مكانها في الحياة ، لا في حياة الصبيان
فقط ، بل وفي حياة الشبان أيضا . فقد مارسوا المصارعة كثيراً .
كما احتفظت لعبة الكرة التي تقوم بها فرقتان بشهرتها وسحرها . ونجد
المنجنيق يستخدم في معارك الصبيان وهي مراسم تقليدية . وتجري
في الاعياد الكبرى ألعاب تنطوي على براعة ، كما في العمرة أو في

حفلات الزواج والحفان وغيرها .

تنصح الكتب القديمة بتعلم فن السباحة ، وهو أمر عجيب في بلاد العرب حيث لا توجد غير خزانات الماء للارواء ، وان كانت هناك على أية حال سيول مفاجئة ومزعجة . إن الحمام اثار ليس من ابحار العرب ؛ فالجنود الفانجون وجدوه في سورية واقتبسوه ، وبالإضافة الى أنه صحي فقد لأم الطهارة الشرعية التي فرضت على المسلمين . لكن المؤمنين المخلصين احتجوا أول الامر على هذه البتايات التي قامت في مداخلهم تماثيل رجس ، والتي زينت جدرانها بالصور الموحية بالكبرياء والفطرسه ؛ ومع ذلك فقد بقيت التماثيل والتصاوير قائمة في خلال عدة قرون في الاسلام . إن تصميم الحمامات لا يتباين إلا في التفاصيل ، والحاجات التي يلبها هذا التصميم تجعلها مشابهة للحمامات روما . نجد بعد الدخول غرفة باردة فيها مساطب حجرية مغطاة بمقارص أو سجاجيد لجلوس صاحب الحمام (المولم) وراء طارضة تملؤها أقذاح القهوة ، ثم تأتي غرفة ثانية مدفأة بخلع الثياب والاستراحة في الشتاء ، وتستعمل كوسط بين الغرفة الباردة وغرفة « الحرارة » التي يعرق فيها الانسان ، وتحاط بغرف صغيرة فرعية يحمد فيها المستحمون الماء الحار والبارد . وهناك خادم يذلل الربون ويغسله بالصابون في « الحرارة » أو في احدى الغرف الصغيرة . وحين يمر بالغرفة المتوسطة يبقى هناك للاستراحة في الشتاء ، واذا كان الفصل صيفا يذهب رأسا الى الغرفة الباردة (المسلخ) . وللنساء ولع ومسرة في تأجير حمام بعد الظهر حيث يقمن احتفالا مع قريباتهن وصديقاتهن . أما الاغنياء فلم يحم حمام خاص في المنزل .

إن الاحتفال بأيام العيد يحتل مكانا عظيما في الحياة الاسلامية .
 والعيدان الرئيسيان هما الاضحى والفطر . ان العيد الكبير « الأضحى »
 القربان ، يحتفل بذكري اليوم العاشر من ذي الحجة وهو يوم النحر
 في « منى » الذي يشير الى نهاية مراسيم الحج ؛ وتقدم كل عائلة حسب
 هذه الفريضة جملا أو غنمة يكونان مجالا لاقامة وليمة يشارك فيها
 الفقراء . اما العيد الصغير « الفطر » فيحتفل باليوم الاول من شوال
 وفي كلا العيدين يلبس المؤمنون اذا استطاعوا ملابس جديدة
 ليشتروا في العملة والخطبة اللتين تقامان في المصلى خارج المدينة ؛
 ويتبادلون الهدايا والتهاني بالمصافحة كما ينصح الحديث . إن عيد ميلاد
 الرسول « المولود » يحتفل به في أنحاء العالم الاسلامي في اليوم الثاني
 عشر من شهر ربيع الاول ؛ ويبدو انه يرجع الى القرن العاشر
 (١٠ م = ٥ هـ) فحسب ولم يصبح رسميا الا في القرن (١٢ م =
 ٥٦ هـ) واعتبر عاشورا عيداً وهو يعقب عيد اليهود « تشرى » واصبحت
 له مراسيم احتفالية خاصة في المغرب . وفي نفس التاريخ يحتفل الشيعة
 بذكري مقتل الامام الحسين في كربلاء (٦٨٠ م = ٦١ هـ) ، لاقامة
 التعازي والمواكب حيث يضرب المؤمنون اجسامهم ووجوههم حتى
 تسيل منها الدماء ، وهناك أعياد ومناسبات خاصة بالشيعة : كالعيد
 الخاص ببذرة غدير خم ، و وفاة سلمان ، والخامس عشر من
 شعبان ... الخ ، واعياد الفرس الشمسية القديمة كالنوروز (٢١
 آذار) والمهرجان في (الخريف) . وتضاف الى الاعياد الرسمية في
 جميع الولاد الاسلامية طقوس يظهر فيها حماس هائل بمولد الاولياء
 (تدعى بالموسم في المغرب) وهذه الطقوس هي آثار أديان
 قديمة وطقوس موسمية . وتزور النساء قبب الاولياء بكثرة حيث

يحملن إليها نذويهن .

يتيح العيد فرصة للمطبخ ليظهر فيها ، واردة التي تتحكم فيها العادات المحلية . وحاول الحديث أن يفرض على مراعاة القواعد الاسلامية باعتبار ما يحبه الرسول وما يكرهه ، وعلى الاقل لقد اعطيت قوة القانون لذلك العادات التي تحدد سلوك الانسان خلال الوجبات . يجلس الضيوف عادة حول موائد خشبية واطئة أو حول الصواني الثقيلة من النحاس أو الفخار ، ويتناولون الطعام بالملاعق أو بالأيدي من يد المضيف دون استعمال صحون ، وقد بدأ الأغنياء بتشبهون بالاوربيين في مطابخهم . ان المطبخ يقاوم التأثيرات الاجنبية أكثر من اللباس . ويحفظ لباس البدوي والفلاح بمظهره القديم ، وهو التقيص والمروال وعباءة أو رداء يغطي الكتفين والجسم ، أما الموظفون كالنواد والمفتين والائمة والفتاه فما زالوا يلبسون الثياب القديمة ، التي يلبس عليها رداء أبيض أنيق ؛ في حين ان أهل المدن لا يزالون يلبسون المروال الواسع ؛ والصدوري والسترة والقفاطين المطرزة بالاشمطة الرقيقة ذات الالوان الهادئة تحت رداء رمادي ؛ اما العامل البدوي فما زال ، وفي المغرب خاصة ، يلبس البرنس والجلابة ، وأخذت الاغلبية من أغنياء وفقراء تقتبس الملابس الاوربية ، وهذه عملية أكثر دون شك ، وهي أقل كلفة ودواما في آن واحد . إلا ان هذه الملابس الاوربية كانت أكبر اساءة بالذسية لجمال الالوان وظلالها التي نشاهدها في الملابس الاسلامية البعيدة .

ويتمسك غالبية نساء المدينة باللباس القديم ، ويتميز بالثقل

وبعدد الالوان والسحر ، ومن المعلوم انهن لا يظهرنه الا لاطربهن
الادنين من الرجال ولبنات جنسهن . ويلبسن العباءة خارج المنزل
وهي ثقيلة تحجب كل معالم الجسم . ان الازياء الغربية مع تقلص
الحجاب ، أخذت تغزو الشرق وتفسد أصالته .

تلباين الحلي والمجوهرات عادة حسب الثمان والمكان : فهناك
الاقراط ، والعصابت المحلاة ، والقلائد والاساور ، والخواتم ،
وغيرها . وتختلف المعادن كذلك : فالاغنياء يستعملون الذهب والفضة
والاحجار الكريمة واللآلئ ، اما الفقراء فيستعملون النحاس والحديد
وغيرها . وتتطلب الاعياد وحفلات الزواج اظهار كثير من الحلي ،
وقد كان تأجير الحلي منذ القدم مهنة رائجة .

لقد تغيرت أزياء تصفيف الشعر وحلقاته كثيراً . فالبدو مازالوا
يتركون شعرهم مسترسلاً مضفوراً كما يفعل اليهود ، ويلبسون عمامة
خفيفة من القماش المطوي . وتعقدت العمامة في المدن كثيراً بعد القرن
التاسع الميلادي ، وزاد الفقهاء من حجمها حتى وصلت الى حدود غير
معقول . وتنتشر العمامة الضخمة في نفس الوقت الذي انتشرت فيه
مودة الرأس الخليق والقبعة (الشاشية) لكن في نهاية القرن الثاني عشر
(م) نجد أهل بغداد مثلاً مازالوا يقصون خصل شعورهم كمثل
يدل على التقوى . وكانت اللحية تصبغ كثيراً ، وكذلك الشعر
أحياناً ، ولون الحناء هو الذي فضله المسلمون تقليداً للرسول .
وتنتشر اليوم عادة الغربيين في حلقة الشعر ، لكن مازالت بعض المراسيم
الحملية باقية تعيد الى الذهن حلق الرأس واللحية الاسرى .

ان قصة المعارك الاولى لا يمكن ان تفهم إلا اذا تذكرنا بان
الاسلحة كانت في غاية البساطة : فالسيف والرمح والسهم هي الاسلحة

الثلاث الأساسية ، بالإضافة الى الدرع والزرود للوقاية ، وكان لبلاد العرب في القرن السابع نشاطوها ، وقد بقيت الاقواس في بعض المناطق كرياضة تقليدية نيلية . لقد شهدت فترة الحروب الصليبية نمو الاسلحة الميكانيكية والنار الاغريقية . وأصبح القوس في زمنه أحد الأسلحة المهمة في قوة المسلمين ثم الاسلحة النارية .

ظنت العقيدة العامة خلال القرون ان المرض هو نتيجة ألعيب الشيطان ، والجن والسحرة ، وان الشخص يشفى باستعمال اجراءات سحرية مضادة . لكن علم الطب الذي أوحى به الاغريق الواقعيون انتشر في الشرق قبل الفتوحات ، وكان للخلفاء العباسيين أطباء مسيحيون تدربوا في مدرسة جنديسابور . وقد جمع المسلمون في أيام مجدهم ملاحظات الاغريق في الطب وأضافوا عليها ، وهم أول من أدخله الى أدربا . والعرب هم الذين جعلوا الطب مع الفلسفة في صعيد واحد . وكان للشرق في القرن التاسع الميلادي مستشفيات التي سميت في البداية بـ « دور المجانين » وأنشأ العظماء في القرن العاشر الميلادي في المدن مستشفيات ، وهم الذين دفعوا أجور الأطباء والصيادلة وحاجيات المرضى وذلك بايجاد الاوقاف ؛ وشهد القرن (١٢ م) المستشفى بالمفهوم الحقيقي . وفي القرن العاشر حاول طبيب فارسي تنظيم مهنة الطب .

أحيط الموت كذلك بطقوس ، بعضها أوصى به الفقه ، والآخر بقايا عادات قديمة تتناقض مع السنة . وحين يرى أهل المريض انه يقترب من نهايته ، يذرون وجهه نحو القبلة ، ويتلون الشهادة باسمه يغسل البدن حسب متطلبات الفصل من جانب شخصين من جنس الميت لها المام بالمراسيم ؛ وبهذا يؤدي الفسأل أو المفصل عملاً دينياً يشاب

عليه يوم الحساب . لهذا السبب ينظر الدين الى الاجر الذي ربحه
بتقاضاه هذا الشخص على انه بدعة ؛ والعادة ان يعطى ثياب الميت .
وتسد فتحات الجسم بقطع من القطن المعطر ، ويلف الجسم نفسه
بقطعة أو قطعتين من القماش غير مخيطتين ؛ وهناك بعض الاحاديث
تقول بان هذه الثياب هي التي سيظهر بها الميت أمام الله . وقد سبق
ان قلنا بان الحجاج يحملون أكفانهم معهم الى مكة ليغمسوها في
مياه زمزم المباركة .

وحتى لحظة الدفن الذي يكون في نفس يوم الوفاة اذا حصلت
صباحاً ، أو في الصباح التالي اذا حصلت في غير هذا الوقت ، تقيم
نساء الاسرة الولولة التقليدية ، حيث يلمطن وجوههن وصدورهن ،
ويقمن بحركات يرمزن بها الى تقطيع الشعر ، ويخمشن خدودهن
ويمزقن ثيابهن . وتأخذ الجارات بنصيبهن في هذا الطقس ، الذي
يحوي كذلك كلمات تشيد بماثر الميت . وهذه الاشادة تكون على
صورة غناء ذي عبارات موزونة قصيرة نثرية أو شعرية ، يصحبها
الضرب على النقارة والمرأة التي تقوم بالنذب (وهي النادبة أو الندابة)
تكون ذات موهبة شعرية حقة : وكما في حالة غزل البدن ، اسند
انجاز هذا العمل الى أخصائيين مؤتمنين . وهناك أحداث صحيحة
تعارض الولولة وندب الميت ، الذي وصلت اليها منه أمثلة مشرقة
من الجاهلية في قصائد الخنساء .

تحمل الجثة الى المقبرة على النعش الذي غسلت عليه منقطة بقطعة
قماش فقط . ويحمل النعش الرجال يتبادل حمله أربعة أربعة على
أكتافهم ، لان هذا عمل تقوى يثابون عليه في الآخرة . وفي مقدمة
الموكب يسير العلماء والفقهاء والطلبة والاخوان وغيرهم يرتلون

الشهادة وبعض مقاطع الشعر الديني كبردة البوصيري [في مسدح الرسول] مثلاً . وتنضم النساء في بعض الاقطار الى مواكب الجنائز ويوالين النواح والولولة على عكس ما توصى به تعاليم السنة .

من المعتقد به عامة ان بعض الأشخاص - الشخصيات المهمة عادة - يجدون صعوبة في قبول القبر الذي جهز لهم ، ويجب ان يابجأ حاملوه الى حيلة لكي يتغلبوا على مقاومة الميت ، التي قد تكون قوية الى حد ربما توقفهم أو ترغمهم على العودة .

لا يجذب أغلب العلماء الاعلام جلب جثة الميت داخل المسجد ، مع ان العادة جارية على ذلك في كثير من أنحاء العالم الاسلامي . وحين يتم ذلك تقام المراسيم التي تؤلف صلاة الجنائز في منتصف قاعة الصلاة ، وفي جميع الاماكن التي لا تدخل فيها الجنائز الى المسجد ، تقام هذه الصلاة اما في المقبرة أو في غرفة خاصة تسمى بيت الجنائز ، ماحقة بالمسجد ومقامة خلف المحراب .

القبر عبارة عن غرفة مصممة بحيث تسمح بان يرقد الميت على جنبه الأيمن ، ويتجه رأسه نحو مكة والقدمان في الاتجاه المعاكس: هذا للحد تسبقه أما من جهة الطول أو من جهة العرض غرفة صغيرة تسمح بان توضع الجثة في الوضع الذي يتطلبه الشرع .

تعارض بعض الاحاديث النبوية التلال المستديرة التي تغطي القبور ، وتعارض بقوة النصب التي تتوجها ؛ وكلا هذين المظهرين نشاهداهما في كل مكان . بدأت عادة تشييد بنايات على القبور خلال القرن (١٠ م) ؛ وقبور السلاطين المالك في القاهرة أمثلة جميلة للمساجد الجنائزية العديدة التي نشاهدناها في أنحاء الشرق . ان القبور الموجودة في مقابر المذن الكبيرة مغطاة بقباب ؛ وبعضها يعلو

رصيف حجري أو من الآجر يرتفع فوقه عمود أو اعمدة من الحجر،
ينتمي بصورة خاصة في تركية بهامة حجرية . وللقبر عادة عند الرأس
والقدمين شاهد رخامي أو حجري ، حفر عليه كتابة جنازية أو
آيات قرآنية .

اعتقد الناس جميعهم ان موتاهم يحيون حياة أخرى تستمر فيها
حاجاتهم الارضية ، واعتقدوا فوق ذلك ان الادوات التي استعملت
في بيوتهم قد استخدمت في عمل نجس . ومن الصعب غالباً ان نعرف
أياً من هذين الاتجاهين هو الذي يتمثل في اتلاف كل ما يخص الميت .
وقد شمل هذا العمل في بغداد في القرن (١٠ م) القارب الذي
كان يحمل الميت في النهر . ان الاتجاه الاول الذي عقدته الرغبة
في الصلاة من أجل الميت هو الذي حفظ بين المسلمين عادات معينة
معروفة لدى الشعوب الاخرى كذلك ؛ الوليمة الجنازية التي تكرر
في نواحي متعددة ، والزيارات التي تؤدي الى المقبرة مصحوبة
بانجاز مراسيم معينة ، والاضاحي واعطاء الصدقات .. الخ . ان
ثياب الحزن لا تلبس عادة ، لكن الشخص يصبغ في المناسبات
بعض الثياب او أجزاء الجسم باللون الازرق ، أو لا يبدل ثيابه
لفترة معينة من الزمن .

تزار المقابر كثيراً من قبل المسلمين وخاصة النساء . ومع ان
كثيراً من المقابر تقام في بقاع قاحلة ، فان البعض يفرس حول
قبر احد الاولياء وقربه شجرة او يشق ينبوعا . ومواطن السكن
الاسلامية كثيراً ما تحوي مدافن تمتد في ظل اشجار ناكثة
تضللها اضاءة من النور الساطع يشع على القبور البيض . وتذهب
الفسوة الى هناك ايام الجمع ليروين اخبار المدينة ، ويجلبن معهن

اولادهم ، وكثيراً ما يرى الانسان ثيابهن الواهية تتحرك نحو محل الاجتماع ، في حين ترفرف الطيور الملونة على الاشجار باجنحتها . ان الموت يقبل باستسلام ، والاحياء الذين لا يتظاهرون بالحزن بغض النظر عن الواجيم الواجبة ، باعتبار ان مصرات الحياة سريعة الزوال ، يكتثرون من زيادة قبور الموتى دون حزن ، اولئك الموتى الذين يعيدون الى اذهانهم احب الذكريات . يبدو انه من الممكن محاولة اعطاء تقدير للمستويات الاخلاقية للمجتمع العربي في الماضي . ان دراسة نقدية للاخلاقيات في فترات متعددة من التاريخ الاسلامي يمكن اجراؤها مستخدمين كمصادر كتب المؤرخين وكتب الادب كقوامات الهمداني ، التي سخر فيها المؤلف من عادات عصره . والنتيجة التي يمكن الوصول اليها من هذه الدراسة هي انه بين القرنين (٨ - ١٥ م) كان المجتمع الاسلامي ايسر بأحسن ولا بأساً من اي مجتمع اوروبي في نفس المرحلة من التطور ، وهذه نتيجة ذات طرافة جد ضئيلة بالنسبة لنا . ويمكننا على اية حال ان نلاحظ ميزة اوميزتين ، ومع ان الرق لم يكن البتة ذا طبيعة بغيضة في العالم الاسلامي ، فانه كان سبب سممة سيئة من ناحية الاخلاقيات الجنسية . فان وجود الرقيق الشبان والخصيان لدى الاسر الغنية شجع على اللواط الذي كان وما زال من الرذائل الاجتماعية وقد كان منتشرأ الى حد كبير ولا نجد نصاً واضحاً يتعلق به . في نفس الوقت ادى رق النساء ووجود المراري لدى الرجال الى فوضى في الاسرة لا تقل عن فوضى تعدد الزوجات ومع ذلك لم ينعدم البغاء من المجتمع الاسلامي . والبغاء في المجتمع الاسلامي ليس على غرار ما كان عند البيزنطيين الذين قصره على الاجانب ؛

ذلك ان الزواج المؤقت وهو المنعة لبي هذه الحاجة ومع ذلك انتشر
البغاء . نجد في القرن (١٠ م = ٤ هـ) انتشار الرغبة في الاكتفاء
بزوجة واحدة بشكل ظاهر ، لكن كتب الادب في هذه الفترة
صورت لنا المجون في ازهى صوره ، ومما لاشك فيه كان للشرق
عادته في هذا الموضوع وحاسبته الخاصة ، وكل ما هناك كان
المجون امراً جارياً على الالسنه فحسب .

أخذ القرآن بالندريج يحرم الخمر . كانت الخمر بعد الفتوحات
مازالت تشرب في كل مكان ، كما كان الحال قبل الاسلام . وكانت
الحسبة ضد شرب الخمر ، وقد كسر دعاة الاصلاح الدنان في الحانات
باسم الحسبة . إن الصنعة الاوربية ، بتوريدها منتجاتها السامة ،
حوالت مجرد السكر الى تسمم ككحولي .

إن القاعدة التي تحرم على الرجال الخروج الى الشوارع بصحبة
النساء أو الاولاد التي نشرها الحنابلة ، أو الامر الذي فرضه الخليفة
الفاطمي الحاكم على النساء ألا يغادرن بيوتهن ، لا يصل الى درجة
مبدأ أخلاق مقرر . وعلينا أن نوضح المبدأ الذي أرشد المسلمين
وهذا ما .

إن مجتمع بلاد العرب القديمة كان يتميز بالمرودة كشعور قوي
موج . وهي الصفات التي تجعل الرجل يدافع عن عرضه وعرض
قبيلته . لقد أحل الاسلام الدين محل العرض ، ودعا المسلمين الى أن
« يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر » أي أن يطيعوا الاوامر
الالهية ويمتنعوا عما يحرمه الله ، ويمنعوا الآخرين عن ارتكابه .
ان الاخلاق والتقوى اصبحت شيئاً واحداً . ويؤكد الشرع دون شك
على اهمية النية التي تدعو المؤمن الى أن يعمل « لوجه الله » ، لكن

الصوفية هي التي قدرت الى أقصى الحدود وثبة القلب ، وقالت على لسان الغزالي ان الحب هو العنصر الاساسي في اعمال البشر . ومن ناحية اخرى أخذ الدين بنظر الاعتبار وجهة النظر الدنيوية الحديثة أعني المصلحة العامة وهي نوع من التضامن .

إن صيانة الرابطة العائلية ، وهي أساس الرابطة القبلية تمثل كذلك أساس الجماعة الاسلامية ، مع هذا تزعزعت حين استطاع الرسول أن يفصل الابناء عن دين آبائهم كما فعل الانجيل من قبله . والاحترام الذي يحمله الابناء لابائهم إنما هو حقيقة من حقائق الحياة الاسلامية . لقد وجه القرآن والحديث الانتباه الى السلوك القويم للنساء « قرآن س ٢٤ : ٣١ » . ويدعو القرآن الى اتباع العدل والامانة تجاه الجميع ، واحترام الوزن والكيل ، والاخلاص للعهود والايمان وتسليم الامانة الى أصحابها الحقيقيين ... الخ . ولا شك ان المؤرخين بالغوا في اشتراكية الرسول ؛ ومع ذلك فهو قد هدف الى اصلاح حال الضعفاء والاسرى والعبيد والزوجات والارامل ويتامى الحروب الاسلامية . هناك في المجتمع الاسلامي رغم الطبقات التي خلقتها الثروة والسلطة ، شعور بالمساواة تظهر بغرابة لدى الجميع . ان الالتزام الشرعي بدفع الصدقات ليس هجوما على الغنى بل وسيلة للتطهير وضمان ضد رد الفعل في الحياة المقبلة ، التي يجازي فيها على الافراط في التمتع بالامور الدنيوية . الاعتدال احد الفضائل التي عزتها العقيدة الى الرسول وهو قدوة كل مؤمن . وخرق هذا التوازن هو الذي يؤدي الى ام الرذائل وهو التكبر ، تلك الرذيلة التي منعت ابليس من السجود لادم كما أمره الله ، وبذلك ضيع نفسه . على المؤمن أن يتعاشى الاحتقار والادعاء وأن يظهر في جميع

اعماله وحتى في مشيخته تواضعا جما . وشعور التكبر الذي يساور الأب
إذا كان لديه عدد كبير من الارلاد وذيلة جاهلية . ويعارض الاسلام
الطمع والجشع ؛ لكنه يعارض كذلك الاسراف في الكرم الذي كان
احدى الفضائل العربية . وتؤكد السنة على بعض التفاصيل المعينة
للتأديب الذى له علاقة بالاخلاق . كل هذا ليس سوى مظاهر ،
والاخلاق الاسلامية ارتقت الى مستوى عال بفضل المتصوفة
والفلاسفة ففعلوا أكثر مما فعل التطبيق الديني الذى زود المسلمين
بفضائل بسيطة .

المصادر

Lane. Modern Egyptians; Bourrilly. Ethnographie
murocaine; Mez, Renaissance : W. Marçais, Tanges ;
Takruna; Bonjean et Ahmad Dyef, Mahmoud, enfant
du Caire; Al Aghar; Bonjean : une fille de la nuit.

الفصل الثاني عشر

الحياة الاقتصادية

الزراعة : عقود الفلاحة ، عقود الري . النجوم . التجارة .
السوق . الطرق ، التجار . الطبقات العامة ، الاتاج .
المعاملات التجارية : البيع ، الرقعة ، الودائع . الضريبة .
خاتمة .

إن البحث الذي يمكننا أن نقوم به هنا حول اقتصاد البلاد الإسلامية لا يمكن أن يتم إلا إذا اعتمد على النظم الإسلامية . ومن المناسب أن نحدد ، ليس فقط الاقتصاد الحاضر ، وهو الذي يدين بوجوده إلى التغيرات التي أحدثتها القرن الماضي في الحياة المادية للعالم بل كذلك تلك الأوضاع الحالية المنبثقة عن الظروف الجغرافية والتاريخية التي أثرت على حياة السكان في أقطار كالهند وجزر الهند الشرقية وآسية الوسطى وأفريقية السودان ، تلك الأقطار التي لم تكون حقا جزءا من الجماعة الإسلامية ، ولم تدخل في الإسلام إلا في فترة متأخرة . لذلك سنقتصر بحثنا على تفاصيل مختصرة عن الاقتصاد

الاسلامي القديم في حدود الشرق الادنى والبحر الابيض المتوسط .
ان اقتصاد هذه الاقطار بصورة عامة ريفي وزراعي . والشريعة
الاسلامية التي اهتمت بالدرجة الاولى ببلاد العرب تبحث في ملكية
الحيوانات الداجنة ، كالجمال التي يملكها البدو الاغنياء ، والاغنام
التي يملكها البدو الاقل غنى ، والحمير ، والثيران ، وزراعة بساتين
الدخيل والفاكهة التي تنمو بينها مزروعات الشعير والحنطة والذرة أو
الحضروات ، والمراعي المنبسطة وزراعة الواحات أو المناطق المرواة .
وبالبلاد تعيش على ذاتها قدر المستطاع . أما وادي النيل وسواد
الرافدين ترتبهما الغنية بفضل الفيضان أو الري ، فانهما من نوع
مختلف ، فهنا نجد بجانب الفلاحة الكثيفة القليلة الانتشار ، الزراعة
التي تستغل جماعات العبيد أو الدمال نصف الاحرار في الاقطاعات
الكبيرة التي تنتج محاصيل هائلة من الحبوب دون أن تهمل في نفس
الوقت بساتين الدخيل والفاكهة . تلك الاراضي تقع على طول ضفاف
الانهار الصالحة للملاحة الموجودة في بلاد الاسلام القديمة ، وبسبل
نقل محصولها الى المدن العديدة الممتدة على ضفافها . أما الفائض فيتمثل
على ظهور الجمال الى الاراضي المجاورة ، مع أن هذه التجارة في
المواد الغذائية مقصورة على بعض الحبوب والتمر والفاكهة المجففة والتوابل
الاجنبية . ان تجهيز مكة بالمؤن لحاجة الحجيج جعل من الضروري
حمل كميات كبيرة من الشعير والحنطة من مصر : تجلب بالبحر الى
جدة أو بالقوافل المسافرة عن طريق شبه جزيرة سيناء .

تتكون تجارة الشرق ، التي كانت تجارة رائجة منذ القرن
(٩ م = ٣ هـ) من مبادلة منتوج الاقطار الاجنبية بمنتوج الصناعة
المحلية . ان عمل الطبقات العاملة في المدن الاسلامية الكبرى لم يرض

الحاجات المحلية ، فحسب ، بل أمكن تصدير بعض الصناعات المحلية منها الى الخارج . والبضائع التي تحمل بالقوافل عن هذا الطريق صغيرة في الكمية ؛ وهي سواء كانت ينتجها المواطنون ، او الاجانب لا ينتفع بها غير مجتمع غني تعود عن كاليات الترف ، كما تبادل أيضا في اسواق أوروبا وآسية الوسطى والجنوبية .

إن النظم الاسلامية تمكس على نفسها كلا من هذين المظهرين لنشاط البلاد المسلمة : واولها وهو الام الخاص بالزراعة وتربية الماشية ، ثم المتاجرة مع الاراضي البعيدة . والشرعية الاسلامية تهتم كثيراً بمنتجات التربة بحيث ان هذه المنتجات هي التي تحمل العبء الرئيسي من الضرائب . والشرعية تفرض الضرائب بالدرجة الاولى على الحيوانات . ونجد الجمال والاغنام تتلام في كل مكان مع السهوب ؛ والجمال وسيلة لازمة من وسائل المواصلات ، وهي كالاغنام ، المصدر الرئيسي للطعام عند جماعات الرحل كما هي عند الحضر . والمناطق المروية تحوي ثمراناً ضئيلة الحجم لكنها قوية البنية . والحمار هو الدابة الشائعة للركوب بين الحضر وأهل المدن ، أما اسبانية والمغرب فلديها البغل ، لكن الحصان هو حيوان الترف في المجتمع العباسي ، كما كان في بلاد العرب القديمة ؛ وقد انتشر استعماله حين قدم الانراك من آسية الوسطى . أما الطيور الداجنة فنادر ما تربي بعناية . ويعتبر الكلب وهو محقر وضروري معا حارسا للحقل ونحيات البدو .

بعد الفتوحات ، نجد ان نظام الضرائب الاسلامي يرث من الدولة البيزنطية ضريبة على الفلال سميت بعدئذ الخراج . لذلك كان لبيت المال مصاحبة مباشرة في انهاء زراعة الحبوب والعنصل من

الاراضي البور . ان المقاطعات الكبيرة التي بقيت شاغرة بعد الفتح
أما لانها كانت ملكا للامير اطور ار لان اصحابها هجروها ، هذه
الاراضي منحها الخلفاء الى الشخصيات البارزة وغالبا ما كانت تنزع
ملكيتها منهم ، وقد زرعوا هذه الاراضي بشكل رديء بمساعدة
العبيد أو بتنظيم عقود عملية حسب الاسلوب القديم ، وقد امتلأت
الارض لذلك أسوأ استغلال ، وهكذا أهمل الكثير من الاراضي .
ومع ان العقيدة أثارت مشكلة عدم شرعية الاغتصاب ، فانها مع
ذلك شجعت الاستيلاء على الاراضي الشاغرة وبررت في أغلب
الاحوال ، حتى دون تفويض الامير . وتم الملكية بحفر بئر أو
فتح جدول ما دام وجود الماء هو الذي يجلب الحياة الى الارض
بعد البذر واقامة المنشآت ؛ ولكي تتجنب العقيدة الاغتصاب تقيم
حول موضع الماء منطقة كبيرة أو صغيرة يجب الاتمحل .

وبوجه عام لم يسمح الدين باستغلال الارض الا عن طريق
صاحبها ، أو عن طريق مؤجر مقابل مبلغ من المال أو الطعام
والعقيدة لم تعترف ، في حالة الارض المرواة بالمطروحة ، بالعقود
التي سمحت بها العادة والتي تنص على ان الارض تبذر من جانب
صاحبها ثم تعهد الى فلاح بالمزارعة ، أو تبذر ويشرف عليها
وتحصده من قبل الفلاح وهذه هي المخاربة ، والفلاح يحتفظ لنفسه
في الحالىن بحزم معين من المحصول ، وهذه هي في الواقع الاتفاقات
التي تحكم الزراعة في الشرق والغرب معا ؛ أما في المغرب والمتعارف
عليه ان يأخذ الفلاح خمس المحصول (محاس) . والعقيدة مع هذا
اصرت على اعتبار الازمات التي توجد تلك العقود مثيلة لتلك
التي يبرمها مالكو الارض مع المستأجرين ، وهكذا تقف معارضة

للحقائق .

مثل هذه العقود تستعمل الآن بصورة عامة .. ونفس الامر نجده في حالة المغارسة التي تكون حين يعطي صاحب الارض ارضه الى فلاح يخرسها بالاشجار ويستفيد منها خلال سنوات كثيرة ، وينال نصف الارض المغروسة عند انتهاء مدة العقد . مثل هذا العقد لم تقبل به العقيدة . ولما كان ليس في مصاحبة الزارع الى حد بعيد ، فان التطبيق العملي ادخل عليه كثيراً من التحوير .

ان عقد الري (المساقاة) الوحيد الذي تعترف به العقيدة هو ذلك الذي يستطيع المالك به ان يعطي بستانا للتخيل لبروي ويسمى ويصان ويحمى من الطيور او اللصوص ، مقابل حصة من الثمار بعد جنبها وتجفيفها . ونفس النظم يطبق على الكروم ، لكنه في رأي أغلب الفقهاء لا يطبق على البساتين المكونة من اشجار أخرى . ان المالك يجهز الآلات ودواب الحل وغير ذلك ، وعقد المزارعة الذي أسلفنا ذكره ، تسمح به العقيدة في حالة الارض «البيضاء» اي التربة غير المزروعة بين الاشجار والتي تزرع طادة بالحبوب والخضروات ؛ وهذا هو التطبيق الجاري في حالة مزروعات الزيتون والبرتقال والليمون .. الخ . وتصر العقيدة وهي على حق ، على ان كلا عقدي المزارعة والمساقاة يقوم بهما نفس الشخص

ان مشكلة حقوق الماء ذات أهمية رئيسية ؛ فان ملكية واستعمال الينابيع والجداول والآبار تحكمها مبادئ يقال انها ترجع الى الاتفاقيات التي عقدت بين هاجر واسماعيل وبين جرم فيما يتعلق بزمزم . وهذه في الحقيقة استعمالات فرضتها حكمة التجارب على فلاحي الشرق الأدنى وسواحل البحر الابيض المتوسط . ويدين

الشخص بفائض مائه لجاره ، بحيث يستطيع ان يشرب ويستقي حيواناته لكن ليس ضروريا ان يستخدمه لغرض الري .
والعقيدة التي نلاحظ بعد كل ماسبق انها رغبة في جعل عقود المزارعة مثيلة لعقود الايجار العادية ، لا تشجع مع هذا تأجير الارض وهي تقرر من حيث المبدأ بان المالك الذي لا يبذر أرضه يجب ان يسمح بزرعها لآخيه المسلم . وهذه امتداد لفكرة الملكية الجماعية والتربة لا تغدو ملكا خاصا وموضعا للتعاقد الا اذا زرعت بالاشجار ورويت كنتيجة لذلك . ان الملكية الجماعية في العالم الاسلامي عاشت في صورة ملكية قبلية ، وان نظام الاراضي المملوكة ملكا خاصا ما زال مشكلة اقتصادية وشرعية خطيرة . واذا كان وقف الذرية قد أصبح شائع الاستعمال ، فان ذلك لانه يلبى ميلا غريزيا نحسو الملكية الجماعية .

في العالم الاسلامي كما في كل مكان ، مرت الزراعة باوقات حرجة . فالفاتحون العرب ، عكس ما كان متوقعا منهم بالنسبة لممارستهم الغارات البدوية في الجاهلية ، احترموا الارض المزروعة وكانوا متلهفين بحكمة على حفظ المحصول كيلا يחסروا وارد الضريبة وقد حافظوا على نظام مشروعات الري السورية ، والقنوات وتصريف وادي الرافدين ، واستمروا على عادة الاستفادة من فيضان النيل . ان غلطة الخلفاء هي ايجادهم للمقاطعات الكبيرة التي وهبوا للمقربين اليهم ، لا لشيء الا لمصادرتها منهم بعدئذ ، وهكذا سببوا عن طريق أساليب زراعية رديئة نوعا من عدم التوازن في انتاج وتوزيع السكان . وفي الفترة الزاهرة خلال القرنين (٩٠٨ م - ٣٠٢ هـ) اندفع الناس من الريف الى المدن الكبرى حيث أملوا ان يلتقطوا فئات

الثروة التي كدستها التجارة في تلك المدن . وهكذا زادوا عدد الفوغا الذين ليست لهم قيمة اقتصادية والذين كانوا على استعداد لا يحدث كل ضروب الشغب والفوضى . وفي شمال افريقية أدى الاحتلال العربي في القرن (١١ م) وعدم كفاية الاتراك الى دمار مشاريع الري الرومانية البربرية ، وفي اسبانية مهدت الحروب الطويلة التي رافقت استرجاع الاسبان لها الطريق الى تفسخ الزراعة ، ذلك التفسخ الذي اصبح تاماً كنتيجة لغنى المستعمرات الامريكية المفرط .

وانا لمضطرون هنا الى ترك ما يتصل بالاوزان والمقاييس ؛ وهي كما لدى جميع الشعوب ، تباينت كثيراً على مر الزمن وعلى اختلاف الاماكن . وسنقتصر على القول بان مقاييس الطول كانت الاصبغ وهو ست حبات من الشعير توضع في خط مستقيم ، والقبضة وهي ستة اصابع ، والذراع وهو ثمان قبضات وهي في مصر (٥٨) سم . الخ . والمقياس المستعمل في مسح الارض المزروعة هو السطح الذي تستطيع فرقة ان تؤدي عمله في يوم وهو (الفدان الزويجة ، الخ) ، ويختلف في المساحة كثيراً حسب نوع المحصول ففي لبنان مثلاً يتباين اليوم من ربع الى ثلثي الهكتار ؛ وفي مصر اليوم ٢٠٠ م^٢ . ومقاييس الحبوب كانت العشر والقفيز والجرب ؛ والاردب في مصر يساوي ١٩٨ لترأ والمد هو المقياس المستعمل للحبوب ؛ وقد حاولت العقيدة ان تعطيه قيمة ثابتة فقالت انه مساو لـ ١٠٠ الفدان ، وهو مقياس حفظ في بيت الهنوب . ان مد الحنطة في لبنان اليوم يزن من ١٢ الى ١٨ كيلو .

كانت وحدة الوزن الرطل الذي تراوحت قيمته في سورية في العصور الوسطى بين ٦٠٠ - ٧٢٠ درهما ويساوي الدرهم المصري

اليوم (٣١٢) غرام ، ويساوي القنطار ١٤٠ كيلوا . ومقاييس
الاوزان الخفيفة هو المتقال الذي يساوي ٤٢٥ غرام ويقسم الى
اربعة وعشرين قيراطاً .

من بين العادات القديمة جداً التي سادت الحياة الزراعية ، نجد
مادة لم يستطع حتى الوحي ان يقضي عليها ، وهي عادة الفصول .
ان تقويم القرآن القمري غريب تماماً عن الحقائق الطبيعية التي تحكم
النظام الاداري والزراعي . احتفظ الملاحون بشكل يتباين من
محل الى آخر ، بتقسيم قديم للسنة الى اربعة وعشرين برجاً قريبا
بمضبطها موقع النجوم على الافق عند بزوغ القمر ومغيبه ، وتتعدد
مع حركة الشمس بحيث تجهز بعد عدة اصلاحات اوحث بها التجارب
تقويماً زراعياً غاية في الكفاية . كما ان الناس قنعوا بالنقاويم
الشمسية الفارسية والسورية والرومانية القديمة ، التي حاولوا ان
يجعلوها تتسق مع التقويم الاسلامي ، وفي القرن الثاني عشر للميلاد
نرى ان ابن جبير مثلاً يلاحظ جيداً تناظر هذه التواريخ الشمسية
مع السنة المسيحية (العجمية) . ومنذ بداية حكم الخلفاء أفهم الناس
على ان يعلموا ان الضريبة على محاصيل الارض وهي الزكاة والخراج
يمكن أن تجبى بعد الحصاد فقط ، ومن ثم يكون ذلك في تاريخ
يتغير بحسب التقويم القمري ، وان لم يكن مقبولا جباية الضريبة
مرتين في نفس الفصل على الرغم من تقلبات التقويم القمري هذا .

ان الرسول هو الذي أوجد هذا التقويم عند حجة الوداع
سنة ٦٣١ م = ١٠ هـ . تحتوي السنة على اثني عشر شهراً قريبا
في كل منها ٢٩ او ٣٠ يوما بالتوالي ومجموعها ٣٥٤ يوما . هذا
التوالي ليس مطلقا لان بداية كل شهر لا تحدد مقدما ، بل حين

يشهد شاهداً عدل بأنهما رأيا هلال الشهر الجديد ، وهكذا فإن بداية رمضان مثلاً لا تحدد بصوت رسمية مقدماً ، وربما يستغرق الصيام ٢٨ أو ٢٩ أو ٣٠ يوماً . ومن هنا قد يعاقب شهران يحتويان ٢٩ أو ٣٠ يوماً . وأكثر من هذا فإن نظام الأشهر القمرية لا يحوي أعداداً كاملة من الأيام ، وكان من الضروري استعمال نظام إضافة الأيام الذي عرف ببلاد العرب القديمة . واضيف يوم واحد الى الشهر الاخير من السنة ، احدى عشرة مرة في كل ثلاثين سنة .

أما أسماء الشهور فهي : محرم ، صفر ، ربيع الاول ، ربيع الثاني ، جمادى الاولى ، جمادى الثانية ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة .

يبدأ اليوم وينتهي بالغروب ؛ وليلة الجمعة اذن ، حسب التقويم الاسلامي ، تقع في تفويضا بين غروب الشمس والشروق يوم الجمعة . ويبدو ان الاسبوع معار من اليهود والنصارى : ومن الاخذ الى الخبيس نجد للايام أسماء مشتقة من أسماء الارقام الاربعة الاولى ؛ أما الجمعة فن اجتماع المسلمين في هذا اليوم ؛ وأما السبت فانه كسبات اليهود وهو اليوم السادس .

خضعت فترات اليوم لنظام أوقات الصلاة ، لاسيما اللحظات الفلكية الثلاثة الاساسية ، وهي شروق الشمس ، وتوسطها كبد السماء وغروبها . واستفاد العرب من المزالة الشمسية ، بل أنهم صنعوا ساعات مائية محتدين نماذج الاغريق وتقاليدهم . وهذه الساعات اصبحت عديمة النفع نظراً لادم وجود الاهتمام وللانحطاط العام الذي طرأ على العنوز ، ولم يبق منها سوى آثارها . ولما كانت تلك الساعات تلتحق بالمؤسسات الدينية والمساجد والمدارس ، فانها ساعدت

على ضبط أوقات الصلاة . إن استعمال ساعات الحائط الاوربية (التي ما زال سكان شمال افريقية ينظرون اليها نظرة غير ملائمة) والساعات اليدوية سرعان ما انتشرت في جميع أنحاء العالم الاسلامي ، وقد أشرنا الى أن مؤذن زمزم زود بمقياس للزمن نظم في غرينتش .

إن روح التجديد هذه في تفاصيلها لا تغير الحقيقة ، وهي ان التقويم الاسلامي على خلاف شديد مع النظام الشمسي ، وبالنتيجة مع تتابع الفصول ، الذي نظمت بموجبه في كل قطر ، مواعيد المراسيم والاحتفالات الدينية الرئيسية . يترتب على هذا الاختلاف ان الحج والصوم مثلا يحصلان في فصول تختلف من سنة لاخرى ، في حين ان أصلهما حددهما في موعد ثابت . وقد عرفت بلاد العرب قبل الاسلام كلا التقويمين الشمسي والقمرى معا ، اللذين لم تفهم تغيير انهما بدقة حتى الآن ، وأسماء الشهور ، حين نبعت عن معانيها ، تناظر التقسيبات الفصلية ؛ مثلا جمادى هو البرد ، ورمضان الحر ، وبيع الفصل الذى تكلمى الارض خلاله بالعشب . ان عيوب التقويم القمرى الخالص واضحة تماما ولم يحتفظ ، به الا لأنه مقرر بنصوص الهية (قس ٩ ، ٣٦١) وهذه الآيات لا يمكن تفسيرها بغير الصورة التي فسر بها الرسول . أما في التطبيق العملي فان التقويم الشمسي احتفظ به أو استرجع . وبالتالي نجد السكان الزراعيين يحتفظون بطقوس ومراسيم للفصول لم يتوصل اليه دراستها جيداً . ومن ناحية أخرى ، نجد الحياة الادارية والاقتصادية في مصر وسورية مثلا ، تستمر بعد الفتح الاسلامي حسب التقاويم الشمسية اليونانية او القبطية . وفي القرن ١٤ م نجد هذه التقاويم تستعملها عموما حكومات الممالك الضبط

الحوادث العامة والخاصة . وفي الفترة الحديثة نجد التقويم الغريغوري^١ مقتبساً في كل مكان في البلاد الاسلامية ، ولم يعد التقويم القمري سوى اطار ديني .

إن العهد الاسلامي وهو الهجرة ، لا يبدأ بالضبط في التاريخ الذي ترك فيه الرسول مكة مهاجراً الى المدينة ، فان بداية الهجرة حددها عمر بحيث ان السنة تبدأ في محرم ، وان أوله يحتفظ بالتاريخ الذي كان له في تلك السنة التي فرض فيها التقويم الجديد . ويبدأ العهد الاسلامي في اليوم الخامس عشر (أو السادس عشر) من تموز سنة ٦٢٢ م . وهناك قاعدة بسيطة تحدد بصورة تقريبية تناظر السنة الاسلامية مع المسيحية ، واذا جعلنا هـ كرمز سنة الهجرة وجـ للسنة الغريغورية يكون لدينا :

$$ج = ٦٢٢ + \left(\frac{هـ}{١٠٠} - ٥ \right)$$

وتعطينا جداول « وستنفلد » المقارنة التواريخ الدقيقة للشهر والاسبوع .

*

تلاعب السوق دوراً كبيراً في حياة المدينة ، بصفتها عمصراً أساسياً لعظمتها : ومن المناسب أن نعين معنى الكلمة بدقة . كان لمكة قبل الاسلام مكان تخزن فيه البضائع المجلوبة من اليمن والشام لغرض التبادل ، والتهيو لسفرة أخرى . ومن ناحية ثانية ، كانت هناك أسواق تقام في أيام معينة في مختلف أنحاء بلاد العرب ، وأسواق الحجاز مشهورة . ودراسة أسماء الأماكن في العالم الاسلامي تدلنا على

(١) وهو تقويم جوليان الذي أصلحه غريغور الثامن عام ١٥٨٢ .

انها مليئة بأسماء اسواق الاثنين والاربعاء . . الخ ، وتعني كلمة سوق بالمعنى الذي يستعمل في المدن ، مجموعة دكاكين ومصانع تتركز فيها الحياة الصناعية والتجارية كما تعني حتى الاسواق البسيطة . ففي سورية كان السوق نتاجا لثراث الاقتصاد البيزنطي . فالمصانع والدكاكين تقوم في المدن المتأثرة بالطرز الاغريقية ، على طول طريق النهر بين الباب الرئيسي للمدينة ومعبد الاله الاكبر الذي حول بعدئذ إلى كاتدرائية أصبحت مسجداً فيما بعد . وتجمع أصحاب الحرف والتجار في جماعات في حي أو عدد من الاحياء الخاصة مؤلفين بذلك السوق (ج . اسواق) أو البازار (في التركية) . ولا تزال نجد في جميع المدن الاسلامية تلك المناطق التي تكون أثناء النهار ذات ظل منعش ومضادة بكوي ترسل نورا ، وتكون مليئة بالحركة زاخرة بالالوان في حين تهجر ليلا وتعتوت ، ولا يبقى سوى الحراس الذين يحولون دون حوادث السطو و « ثقب المهدران » . ولم يكن من الضروري أن تتجمع الاسواق معا في جزء واحد من المدينة ، فكل صنف له سوته الخاص المنفصل عن الاسواق الاخرى ، هكذا نجد في كثير من المدن ان اسماء الابواب او البنايات تدل على موقع سوق العطارين والقصارين وغيرهما .

كان التجار الاجانب يخزنون بضائعهم في مخازن خاصة ، كما وجدوا مثابة لهم وابائهم في بنايات مستطيلة واسعة ، حيث نجد حول الصحن الواسع اسطبلات ومخازن يعلوها طابق ثان يحوي غرفا تفتتح على الفناء فقط ، وتتصل ببعضها عن طريق بهو دائري وهذا هو القيصريّة أي السوق الامبراطورية بالاصطلاح السوري الفلسطيني والمغربي ايضاً ، وهذه الفنادق او المخانات لا توجد في المدن فحسب

بل وفي المحطات على طول الطرق التجارية في الشرق . وعلاوة على ذلك توجد الاسواق بالمعنى العادي في المدن كما توجد في المقاطعات إما يوميا أو في ايام معينة فقط لبيع الانتاج المحلي ، والبهائم والخضروات والفاكهة . لقد رأينا ان حياة السوق معها كان نوعها يشرف عليها حاكم خاص هو المجلس .

لم يقتصر نشاط السوق على بيع الانتاج الوطني ؛ اذ توفرت فيها البضائع الاجنبية كذلك . وكان يوصل الى الشرق الاقصى عن طريق بري عرفة المسافرين الاوربيون ايضا ؛ لكن أكثر التجارة حلت عن طريق البحر . ولم تكن السنوات الاولى من الخلافة في مصلحة الملاحة البحرية ؛ ولم يكن العرب القانحون من البحارة ؛ في حين ان سكان سواحل سورية تقدموا الشجاعة القديمة التي واجهوا بها في وقت من الاوقات غضب الامواج بجمرة . ويعزى الى عمر القول الذي نصح المسلمين بالعزوف عن السفرات البحرية ، ويعود الفضل للامويين في بناء أساطيل فينيقية ومصرية من جديد ، ومحاولة القيام بحملات بحرية ضد البيزنطيين . وفي فترة متأخرة كان البحارة الاوربيون هم السبب في زيادة نشاط المواصلات البحرية مع الشرق الاسلامي . وفي المحيط الهندي حفظ التراث الايراني ، واستقبلت البصرة التي اتصلت ببغداد عن طريق دجلة وبعض القنوات السفن الفارسية والعربية التي وصلت حتى الصين .

وكان الربان (النوخذة) والملاح (المعلم) يقودان السفن الكبيرة ، التي تسير بالشرع أو المجداف بمساعدة الاصططلاب والبوصلة . وفي القرن (١٥ م) كان للربان والملاح تعليمات

بحرية مسجلة شعراً تعطى لها نصائح خاصة بالآخطار ومواضع الصخور وظهور السواحل والاقتراب من الموانئ . وحين وصل فاسكو دي غاما الى افريقية الشرقية لم يستطع الوصول الى المحيط الهندي الا بمعونة (معلم) عربي .

وكانت هناك كذلك طرق تصل اوربا ببغداد . وبواسطة الفرات يوصل الى البحر الابيض ، وكذلك وصل الى حلب وانطاكية منذ القرن التاسع للميلاد التجار اليهود الذين عرفوا ايضا الطريق المباشر الى الهند المار بالاسكندرية وفرما والبحر الاحمر . وحملت القراء والرقى الى اوربا ، وكان الطريق المفضل لاهل شمال اوربا هو الذي يصل الى روسيا وبراغ . واحتكرت السفن المسيحية السير في اواسط البحر المتوسط . ومنذ سنة ١٠٦٥ م رسا أسطول من جنوا في يافا . وقد تطور الصليبيون بتجارة قدر لها أن تظل مستمرة . ولم تعق كثيراً الحروب الداخلية التي عكرت صفو الشرق الادنى سفرات التجار : لكن الشيء الوحيد الذي كان قادراً على إيقاف هذه السفرات هي ثورات الزط والزنج والقرامطة . وخلال الحروب الصليبية كانت القوافل تدور بين صفوف المحاربين الذين وجدوا ربها في أخذ جزية دورية منها كانت انفع لهم مما لو نهبوا دفعة واحدة .

لقد رحب الامراء المسلمون بصورة ارادية بالتجار الاجانب الذين لم يعمتعوا في نظر العقيدة بآية حماية في دار الاسلام لبضائعهم وأرواحهم . وكانوا يستطيعون شراء الامان المضمون بجواز مرور مقابل مبلغ هو العشر . ويحدد الدين صلاحية الامان بسنة يعامل بعدها المستأمن الاجنبى كذمي ، وفي الواقع مدد بعض التجار مدة

بقائهم لمدة سنوات كثيرة . وعقدت معاهدات حوث قواعد خاصة بهم . وفي القرن ١٣ م حسب قول أحد المؤلفين كان الخمس المفروض على التجار يتراوح ما بين ٢٠٪ - ٣٦٪ . وكانت هناك دواوين للجبارك في الموانئ الرئيسية كالاسكندرية والبصرة وغيرها . واحتفظ الامراء بحصتهم في تقييد حرية التجار الاجانب الذين لم يستطيعوا حسب العقيدة ان يتاجروا بالبضائع الممنوعة ولا ان يصدروا الادوات كالاسلحة التي يسبب عدم وجودها ضعفا للدولة الاسلامية .

خلال القرنين (٩ - ١٠ م = ٣ - ٤ هـ) الذين يجب أن نتوجه اليهما اذا أردنا دراسة الدولة الاسلامية في قمة غناها واثرائها كان التجار من الشخصيات المعتبرة . فتجار بغداد والاسكندرية سيطروا على الاسعار ، سيطر الاولون على تجارة البحر الابيض وقصص مفامراتهم البحرية ، التي تملأ الادب بالعجائب والغرائب تلقي ضوءاً على فعاليات التفكير التجاري .

ومنذ القرن الثامن الميلادي فصاعداً كان أصحاب الحرف في الشرق الادنى ينترون في انحاء العالم الاسلامي وخارجه مصنوعاتهم التي نجد منها اليوم نماذج فاخرة في المتاحف الاوربية والكنائس والاديرة . وبكفي ان نستعيد اسماء الدمقس (دمشق) والموصلين (موصل) لتدرك التقدير الذي كنهه الغرب للمصنوعات الشرقية فالاقمشة الرقيقة والخممل والانسجة الناعمة المطرزة أو المصنوعة من الحرير الخاص خرجت من مصانع فارس وبغداد ودمشق وآسيا الصغرى . ونجد في مصر الصناعات القبط قد احتفظوا اقامه أجور متواضعة بتقاليد القرائنة في صناعة الحرير . وكانت للراكرز

الرئيسية للإنتاج تنيس ودهيلاط والاسكندرية وديب وغيرها .
وكان الطراز يصنع في هذه الانحاء ؛ والطراز أو التطريز أطلق
على الاقشة ذات الخطوط المطرزة التي تزين الثياب في بلاط الامراء .
وهذه التطريزات كعواشي أو خطوط على الكتفين وغيرها تحمل
اسم الخليفة . واذا تذكرنا ان اعظم علامة للتقدير بمنحها الخليفة
لاحد رعاياه هي ان يخلع رداؤه ويضعه على كتفي هذا الشخص الذي
يريد تشريفه ، فسنعلم ان الخلع التي وزعت كجوائز او كهدايا
للرعية كانت مزينة بهذا التطريز . وهذه العادة اقتبسها جميع ممثلي
الخليفة الذي كانوا ، خلال العهد العباسي مثلا ، يطلب اليهم أن
يلبسوا ثيابا رسمية ذات أشرطة مطرزة قليلا او كثيرا . وبالنتيجة
أصبحت صناعتها مهمة معبرة ، لكنها كانت ذات صبغة رسمية
لان تلك الخلع المطرزة لم تكن من بضائع التجارة وصنعت الخلع
في مصانع الخليفة او تحت اشراف موظفيه ، ويجمعها هــؤلاه ثم
تحمل الى البلاط . ووضعت فارس على أردية ملوكها أو سمة مطرزة
وكان لاعضاء مجلس الشيوخ والفرسان في روما على أرديتهم أو سمة
أرجوانية ، وظهرت هذه مرة أخرى في بزنطية وما زالت الى
اليوم في بعض انواع الملابس الغربية . أما الانسجة الاخرى ،
وهي منتجات المصانع العائلية فيجب أن تمر بيد وكلاء يختمون
بالات القماش وتخرج من ثمة من يد وسيط الى آخر دون ان تفتح ،
وقضى التلاعب الكثير على هذا النوع من الائتمان . أما أجور
الصناعة فقد كانت زهيدة لكن الرسوم العالية جعلت الاقشة
مرتفعة الثمن .

في كل فروع الصناعة ، تحول الانتاج يوما بعد يوم ، على

الرغم من أننا لا نعرف من آثاره الا القليل ، الى نماذج بارعة ، ما زال بعضها يعيش الى اليوم : ونحن نعرف كيف كانت صناعة السجاد في الشرق وكيف كان بإمكانها أن تكون . ونعوي المجموعات الاثرية العالمية نماذج عديدة من أواني الخزف للاستعمال المنزلي ، ومن النحاس والزجاج والادوات الكالائية الصغيرة ، ومناضد الكتابة ، والصناديق على مختلف أنواعها ، مطعمة بالحجارة الكريمة والفضة والعاج . ونشطت صناعة الجلود كالوسائد والسروج وغيرها أما التجارة التي منحتنا نماذج من المنابر غاية في الاتقان ، فقد انتعشت كذلك . ونجد ان أوراق البردي التي حلت في القرن ٩م محل الجلود ، أفصححت المجال بدورها بعد مضي قرن للورق الذي جاء أدل الامر من الصين عن طريق سمرقند ثم انتج في سورية منذ القرن (١٠ م = ٥٤) . وفي نفس الفترة كانت فارس ووادي الرافدين يصنعان العطور التي استوردها التجار سابقا من الخارج . وقد بحث التجار عن العطور في كل مكان حتى ان العقيدة شجعت المؤمنين على استعمالها حين ذكرتهم بان الرسول كان يحب العطور .

نظمت الشريعة الاسلامية المعاملات المالية التي نتجت عن هذا النشاط الصناعي والتجاري ، لكن بطريقة ثابتة وغير تفصيلية : الا ان العادات المحلية تكاملت مع الشريعة واعانتها . ولم يعن القرآن بالعقود الخاصة بالاراضي ، بل عني بالعقود التي ابرمت لتنظيم الحياة الاقتصادية « لجمهوريّة مكة التجارية » : البيع ، الاتجار ، الودائع ، الاجور ، الفائدة ، المبادلة .

اهتم الدين بصورة خاصة بالشروط التي تحكم بالمبيعات ، معتبراً عقد البيع هو النموذج . أما المشاكل التفصيلية فحلت بطرق كثيرة

مخاطفة لتباين حسب المذاهب الفقهية ، وكان التباين حتى في تلك
الامور المهمة الخاصة بطبيعة الشيء المباع وتحديد نوعه بدقة .
وقد اثير اهتمام كبير الى الشهادة اللفظية كحجة ، في حين اختلفوا
على أهمية تدوين المعاملة . ان موافقة الطرفين يجب ان توضح
بقول صريحة تبقت من اثر قديم خاص بالتعود من الشر ، وهذا
القول هو أول شرط لقانونية العقد . وتنتهي عملية البيع ، حين
يتصافح المشتري ، والبائع باليد اليمنى متبادلين الايجاب والقبول :
« هل تشتري هذا مني ؟ - أجل ، اشتره » او بعبارة أخرى
مماثلة « هل تبيعه هذا ؟ - أجل ، أبيعه لك » . أما الشرط الثاني
للعقد فهو ان يكون موضوعه شيئاً نافعاً ؛ فالقانون يحرم بيع
شيء لا يستطيع الشخص تسليمه كطير طائر ، ولا يمكن أن يبيع
الشخص حيواناً ضارباً ليس منه فائدة ، ولا الاشياء عديمة القيمة
الاجتماعية كالآلات الموسيقية وأدوات اللعب ، ولا الاشياء غير
الطاهرة كالحنظير أو النبذ ، لكن هذا التحريم الاخير لا ينطبق
على الذمي أو الاجنبي المستامن . وهناك عدم اتفاق على قيمة التملك
وبالتالي حصل خلاف على بيع كلب حراسة او كومة سماد ،
ويسمح بصورة عامة ببيع القرآن ، لأن ما يبتاعه المشتري هو -
الورق الذي كتب عليه والجلد الذي يضمه . ويتم البيع بتسليم
البضاعة ودفع السعر ، وللمشتري حق الخيار .

إن الرهن والودائع هي من العقود الهامة في مجتمع يقيم فيه
التجار مدة طويلة بعيداً عن وطنهم . ان الرهن يكفل دين المسافر الذي
يبقى الدائن مدة طويلة لا يعرف عن أخباره شيئاً . بينما عقد الوديعة
يحمي تلك البضائع التي لا يستطيع المودع أن يحملها معه ، أو التي

لا تكون آمنة في مخزنه الخاص ، والشخص الذي يتسلمها ، بحفاظته عليها باخلاص ، يقوم بعمل من أعمال التقوى ، سيثاب عليه في الحياة الاخرى . ويقبل كلامه حين يؤكد بأنه سيعيد الامانة .

وتزخر كتب الادب بوصف خائي الامانة . وهي مليئة بقصص الحيوانات الضالة التي يعثر عليها وهذا هو الموضوع المزمع المؤلف في مناطق الرعي . والمالك يدين بجائزة وهبة للشخص الذي يعيد اليه جملة الضال ، حتى وان كان الشخص لا يتخذ من هذا العمل مهنة له .

يحرم الاسلام التسليف - بفائدة . وقد حرم القرآن الربا ، (٢٧٦٠٢) كرد فعل ضد أخذ الفائدة التي سادت بين قريش ، الذين اعتادوا في حالة عدم دفع الدين وفادته ، منح المدين مهلة ومضاعفة المبلغ المطلوب . إننا لا نعرف ما هي الظروف التي حدثت بالرسول الذي تمثله لنا الاخبار كتاجر قديم ، الى تحريم أي نوع من التسليف بفائدة بصورة كلية ، والاختيظيم مقايضة المعادن الثمينة والادوات ذات القيمة تنظيماً دقيقاً : وكان هذا التحريم وما زال عبثاً ثقيلاً على المعاملات المتبادلة بين المسلمين . والعقيدة موافقة لبعض الاحاديث مع شيء من التباين في التفاصيل ، لا تسمح إلا بتبادل كيتين لها قيمة متساوية من أشياء يسمح بها القانون ، ويلزم ان تحصل المقايضة حالا وليس لاجل . ومن ناحية اخرى لا يسمح القانون للدائن بأن يحن أي ربح من دينه : لان الدين بدون فائدة عمل ديني يسمح به سيثاب عليه في الحياة المقبلة .

هكذا نجد من الطريف أن نلاحظ بأنه في نفس هذا المجتمع الذي طبقت فيه هذه المجموعة من الفواحد تمت في القرنين ٩ و ١٠ م

نظم الصيرفة والمعاملات التجارية التي اقتبسها أوروبا بعدئذ والتي
تتناقض شكلا مع الشرع القرآني . من هنا وجب اللجوء عند الضرورة
الى الحيل الشرعية ، مثال ذلك البيع المزدوج ، فالمستدين يبيع قطعة
من القماش الى الدائن ويسلم السعر نقداً ، لكنه كان سابقاً قد اشتراها
من الدائن بسعر أعلى لكن لأجل ، هذا هو عقد المخاطرة الذي
دعته أوروبا في العصور الوسطى باسم المهارة ، والذي سمح به الدين
الاسلامي . في ممارسة الصيرفة عملياً ، استفاد الصيارفة اليهود والنصارى
من تحريم القرآن لها فمارسوها وركزوا أعمالهم في بغداد ، في حين
سيطر التجار النصارى على جميع التجارة الخارجية . ان الكبيالة
والسند تحت الاذن ، وكلاهما لم يقبل بهما الدين ، كانا منتشرين في
العالم الاسلامي من اقاصه الى اقاصه .

أدت مقايضة المعادن الثمينة الى معاملات مستمرة . وكانت
العملة في الايام الاولى للإسلام من الذهب في الغرب في الولايات
البيزنطية — الدينار — ومن الفضة في الشرق في الولايات الفارسية
— الدرهم — . وفي القرن (١٠ م = ٤ هـ) تنافست العملات وسارتا
جنباً الى جنب في بغداد . من هذا نتجت معاملات تبادل مستمرة
بتدخل عملة ذات قاعدة معدنية . وحين ضرب الخلفاء عملات ذات
قيم متعددة انغمست الاسواق بقطع نقدية ذات اصول وقيم مختلفة
كان على الصرافين الموازنة بينها تحت اشراف المحاسب . ومن ناحية
أخرى أعاد الصيارفة اليهود والنصارى مبالغ كبيرة الى الدولة
والتجار ، وتعاملوا بالنقود ، كما اشتغل الاغريق بأعمال النقود ولم
ينضم اليهم الارمن إلا في العهد التركي .

المصادر

Plesner, suţ, E. I; Grohmann, tiraz, E. I., Schaht
riba, E. I., Juyntoll, Handbuck.

الفصل الثالث عشر

الحياة العقلية

الشعر والفقه الامويان . الفرع الثالث العباسي : النثر ،
الشعر ، الفقه . الفرع الرابع : النثر الفني ، المعرفة ، الفن .
المتعمد . النهضة العربية . ابراه ونزكبة . الفلسفة والعلم .

عني الفصل الثاني من هذا الكتاب باعطاء نظرة شاملة عن
تاريخ المجتمع الاسلامي ، كقائمة لدراسة النظم . ويعمل هذا
الفصل على استعادة نفس الرحلة عبر القرون وذلك لوضع الادب
والفن في مكانها المناسب في تاريخ النظم الاسلامية .

ان الحقائق الدينية تسود بصورة مستمرة المجتمع الاسلامي
حيث يختلط ما هو روحي بما هو زماني . وفي كل حالة نستطيع
الرجوع الى القرآن لا لأن الادب والفن يقتبسان ويستوحيان منه
فحسب ، وانما لان صورة الاسلوب القرآني نفسه ، ومفرداته
واوزانه ، هي التي تسيطر بالذات على صور التعبير عن الفكر والحس
الاسلاميين . وبينما يحتفظ الشعر بنماذج الشعر الجاهلي البدوي ،

فظل وثلياً ، وكان من الصعوبة بمكان كبير ان يخلص من ذلك ،
ويجد له اطاراً جديداً ، ومصادر مستحدثة للإلهام ، نشاهد على
العكس ان النثر نشأ نشأة قرآنية ناسجاً على منوال العكس
المقدس . وقد لامت الاوزان القرآنية الذوق الطبعي للنفس العربية
ذلك الذوق الذي يميل الى التوازن والتوازي بين الافكار والثراء
اللفظي والتقابل بين النظريات او دحض بعضها للآخر ، هذا
الذوق كان مستعداً على الدوام لتقبل الازدواج في العبارات الذي
نشاهد في النثر المسجوع كما لو كان هذا الازدواج شطرين لبيت
شعري . هذه الاوزان عينها نقابها كذلك في الموسيقى العربية
ونجدها تسيطر على الزخرف العربي في لحن موسيقي يتجزأ ثم يتجمع
فيأثلف ثائية ، كل ذلك في صورة نماذج متناظرة ومعقدة معاً .

لقد ارجع ذور اللجاجة من علماء اوربا النشيط في القرن
التاسع عشر الفقر الروحي الذي ساد المجتمع الاسلامي انذاك الى ما
في الدين الاسلامي نفسه من عوامل تأخير .

يمكننا قبل كل شيء ان نجيب على امثال هذه القضايا بانه من
الهساسة والسذاجة ارجاع الضعف الذي يصيب اية طائفة اجتماعية
الى نظمها وبصورة خاصة الى دينها اعتقاداً بان الدين قوة مستقلة
عن المجتمع نفسه . انه لمن الخطل التفكير كذلك الا اذا نظرنا الى
الدين على انه وحي وناموس شرعته الالهية لخلقها كتعويض
لحماية الاله للناس ، فيخضع هؤلاء للناموس الالهي دون جدال
وفي بعض الاحيان دون فهم واحاطة . في حين انا اذا توقفتنا
ان يكون الدين مجرد ظاهرة اجتماعية يشغل ببساطة المكانة الاولى
بين النظم البشرية ، عندها نستطيع التفكير بان اي شعب جدير

بالدين والنظم التي لديه ، وسواء نشأت هذه النظم وذلك الدين بمحض ارادته ، او تقبلها من لدن شعب آخر عن طريق الدعوة السلمية او الحرب ، فانه لا يقضي عليه بالفناء مادام قادراً على الاستجابة بصورة ملائمة لاحتمالات التاريخ وأحداثه . الايام ان الحياة هي كفاح مستمر ، عند الشعوب والافراد على السواء ، ضد العوامل المدمرة التي يعلنها الماضي أو الطبيعة عليهم . ولئن انكرنا على الفرد او الجماعة ما عندهما من قوة ارادة ايجابية فستظهر الحياة الانسانية وكأنها محكومة بجمبرية مطلقة تجعل اية جهود عبثا وباطلا ، وهذا من شأنه تقريب ساعة الفناء .

هكذا لا يمكننا التفكير بان الدين الاسلامي كان العلة الاساسية لضعف المجتمع الاسلامي : انه لم يعترض على الاقل لفترة دامت عدة قرون حيوية الادب والعلم والفن ، وهذا ما سنناقش عليه نظرة عجلى فيما ياتي .

يتكشف تاريخ الحياة العقلية والفنية للإسلام ، كما تتكشف نظمته ، بابتداء عصر الخلافة الاموية ، ذلك العصر الذي لا نعلم عنه بعد القدر الكافي ، على الرغم من ثراء أوجه نشاطه المختلفة ونزعاته . أما الشعر فكان بدوياً صرفاً وشبيهاً بالشعر الجاهلي الى درجة امكن معها القول في هذا العصر بان الشعرين الجاهلي والاموي متعاصران . وقد ضعف اثر العامل الديني على الشعر بحيث تكفى لمسات قليلة لرد هذا الشعر الى الجاهلية . وقد ركز البلاط الاموي اهتمامه [من ناحية الشعر] على الحب والغزل . ومن الجدير بالملاحظة ان هذا الشعر المعاصر للفتوحات او الذي يعقبها مباشرة لم يعكس شيئاً منها كما ينعدم فيه عنصر الملحمة بالمرّة . والاله الذي امر بالجهاد

أردى الشعراء ومن هنا نجاهل هؤلاء فيما يظهر انتصاراته على غير المسلمين . أما النثر الاموي فليس لدينا منه سوى مقتطفات غير مباشرة وجميعها مطبوع بطابع الدين واتجاهه . وفي هذا العصر تثبت الحديث ، ويبدو ان المحاولات الحاذقة الجدية لجمعه في ايام الامويين تشير بصورة واضحة الى سير الكتاب العباسيين بعد ذلك في نفس السبيل لجمعه وتدقيقه .

وخطب الجمعة التي لمست احيانا أمورا غير دينية بالمرة ، كان الرؤساء أو الولاة يلقونها على المؤمنين ويرتفعون بها الى مستوى البلاغة المطلوبة انذاك باستعمال النثر المسجوع ، الذي برز فيه القرآن وظهر قيمته . وكانت لغة الحديث وخطب الجمعة الى هذا العهد [الاموي] من الخضرع لاشكال لغوية ثابتة محدودة الى درجة انها لم تكن صالحة لتخدم كاداة للفكر المجرد المسلسل .

وبينما تحاول اللغة كبقية المبادئ والنظم ان ترفع رأسها وتهدم الجدار الذي يحيط بها ، نشاهد ان القرن قد ظهر منذ أول الامر في شكل كامل . هنا ما يدفعنا الى القول بان حاجات العبادة كانت تتطلب من العمل اكثر من حاجات العقيدة ، وان الاسلام شاد المساجد قبل أن تكون لديه فلسفة دينية او تشريع ؛ وهذا أمر ليس بالغريب . ولعل القائلين من المؤمنين الشديدي الاعجاب بفخامة الكنائس النصرانية ، قد أرادوا ان يظهر ان قدرتهم على ان في امكانهم ان يضارعوا النصرانية ويبنوا مساجد لا تقل جمالا عن كنائسهم . ولم يكن الامويون مساجد فحسب ، وانما شادوا القصور لينعموا فيها بتصميمهم الكبير من متع الحياة ؛ وقد شيدت هذه القصور متاخمة للصحرى ، وهي في صورة قلاع محاطة باراض مزروعة تزين

أكثر أجزائها أروع فنون الزينة التي لم تهمل في نفس الوقت اظهار
 الصور البشرية . وفي المدائن الكبيرة كالقدس ودمشق والمدينة
 وكعبة مكة البس الامويون وبصورة خاصة الوليد (٧٠٥ - ٧١٥ م
 = ٨٦ - ٩٦ هـ) المساجد نموذجاً سوريا - Bizantia أصيلاً جديلاً
 تمام الملائمة زخرفة الرخام الملون والفسيفساء المذهبة المحيية لدى الفنانين
 البيزنطيين . ويبدو ان حماس الفاتحين قد وجد التعبير عن نفسه في
 هذا المجال ؛ الا ان الذي قام باعمال البناء هم المهاجرون السوريون
 الذين كيفوا لعقربتهم الخاصة التقاليد البيزنطية الماثورة .

يؤلف القرن الاول من الخلافة العباسية العصر الزاهر للادب
 العربي ؛ ولم تعمل العصور التالية أكثر من التطور بما أبدعه هذا
 القرن الاول ، وكما نشأ الفكر والفن في ظل العهد الاموي عن طريق
 احتكاك العرب بالحضارة البيزنطية ، كذلك نشاهد ان امتزاج
 الشعوب والحضارات أدى في عدة عقود من السنين الى دفعة عظيمة
 من التقدم بتأثير الروح الايرانية والهيلينية . ونظمت اللغة في
 شكل دقيق جعلها تخدم بسهولة التعبير عن الفكر المجرد ، وقد أدى
 الى هذا التغيير في اللغة تلك الترجمات الفهلوية (ابن المقفع) والترجمات
 الاخرى عن السريانية ، وهذه الاخيرة قد نقلت عن اصول يونانية ،
 وهكذا تغيرت اللغة العربية بفعل هذه الظروف الضرورية التي طرأت
 على الجماعة الاسلامية . أما صور الجدل الديني والاختلافات الدينية
 التي ظهرت في المؤلفات أو في أحاديث أصحابها فقد بحثت عن الحجج
 التي تدعم اختلافاتها عن بعضها في القرآن والسنة ؛ في حين ان
 النحاة اقتبسوا اصول قواعدهم من صور الاستدلال الجدلي التي
 ظهرت في « الكلام » عند فلاسفة الدين والفقهاء الذين ورثوا

سبور الاستدلال هذه من اليونانيين ؛ هكذا صار النحو بوصفه
 مساعداً على التفسير القرآني علماً ظهر في البصرة والكوفة ثم في
 بغداد ، ولا تزال مؤلفات علم النحو حتى اليوم واضحة في التعبير
 عن قيمة ما أصابه من رقي . بهذا الشكل تيسرت اللغة لنوع من
 النثر المعبر عن مقالات أدبية وكتب قصيرة في النقد وعن نوع من
 الاستطلاع العلمي المزيف واطهار الاعتراض والموافقة على وقائع
 تاريخية ليست معروفة جيداً ؛ وبعض هذه المقالات قد جمع في
 مجلدات ضخمة ان قبلناها واستحسنها فاننا على أية حال لا ننكر
 ما فيها من عدم التجانس . وكتاب « الحيوان » الجذاب للجاحظ
 ككتابه الآخر « البيان والتبيين » من حيث انه مجموعة مقالات
 او فصول يظهر فيه بصورة حية مصفاة الذوق العربي الميال الى
 الوقائع المنفرقة مرواة بشكل مشرق وموضوعة في قصة لمحاولة جعل
 الناس يفهمون ويولعون بافكار دقيقة او عميقة ، مع انهم كانوا
 آنذاك يهينون عن ما في التفكير الفلسفي او الاخلاقي من استقصاء .
 وكتب مثل « عبون الاخبار » لابن قتيبة هي مؤلفات في الاخلاق
 العملية . وقد بدى في هذا العهد ، على الرغم من النقص الكبير
 الحاصل في التعليم الشفوي ، تهذيب سكرتارية دوائر الخلافة
 (الكتاب) الذين وضعت لهم حتى القرن الخامس عشر للميلاد مؤلفات
 أوجز فيها العلم المعروف في ذلك الزمن .

ولقد أضافت مؤثرات غربية إلى مصدر هذا الادب كل جديد ،
 ذلك ان الدين البحت هو عماد العلم الذي وجد أداته الضرورية للتعبير
 في ذلك النثر المولود حديثاً : المتمثل في الاحاديث المجموعة والقصص
 التي شرح بها القرآن وكتب الفقه والفصول الجدلية ، كل هذه

اتخذت مظهراً أدبياً ساعد على نشرها بين أناس طامنا ولعوا بحسن
اللغة .

أما التاريخ فيبدو في جزئه الأكبر بوصفه علماً مساعداً على
شرح القرآن والحديث فجمع بين سير الانبياء ، وقصص الفتوحات
وتراجم الصحابة ، وأخذ علم التاريخ بمحاكاة النموذج الفارسي
مظهر الشمول فعمل على رواية تاريخ العالم خادماً بذلك السنة النبوية
ومحفظاً بالمظهر الخارجي للحديث . ورغبة في ضبط شروط الجبابة
والرسوم وتنظيم طرق البريد الخليفية ، ظهرت الحاجة الى معلومات
جغرافية رتبت في العهد العالي بحسب التراث الذي قدمه بطليموس ،
وكان نسيج هذه المعلومات مشاهدات المسافرين . هكذا نشأت
الفلسفة العربية على هامش الاسلام .

في هذه الفترة المبرعة للادب العربي ، كان للشعر نصيب وافر
إذ أخذ الشعر الحي يحقو الاساليب التقليدية عند البدو والامويين .
لأنه في مجتمع مهذب وعتيق كالمجتمع الذي ظهر في القرنين العباسيين
الذهبيين ، يكون الحكم في الحياة لمتعة الحسية التي عبرت عن نفسها
بأحسن صورة عند أبي نؤاس ومن سار على نهجه ، كما انتشرت
مقطوعات قصيرة من الشعر الذي يتقدم ما في اخلاق الناس من شرور
وطهرت هذه المقطوعات في مظاهر عنيفة وخشنة واستمرت مشيرة
الى جوانب الثورة المنظمة للحياة الاجتماعية . في كل هذا نجد ان
الامور تسير لا على النهج الديني وإنما على حدة . وصدرت عند بعض
النفوس الرفيعة كأبي العتاهية أقوال في الشعر جارحة وصحتها المطلقة
الدينية بوصمة الزندقة . وأخيراً نشأ نوع من الشعر الصوفي المعبر
عن الحب الالهي في صور من الحب الانساني أو الارضي ، وانه لما

يبعث على الاضطراب والازعاج بعض الشيء ان يبرع في هذا جيداً
 شاعر كما يني نؤاس الفاجر في كل شيء . هكذا مات الشعر القديم فعلاً ،
 وان بقي محافظاً بهيبة قدمه وصار الاعجاب به يزداد يوماً بعد يوم :
 وأفاد من المعركة التي نشأت بين المخلصين للعربية بصورة مطلقة وبين
 أولئك الذين يريدون أن يضعوا في الصف الأول من المجمع الاسلامي
 أولئك المتحولين الجدد الى الاسلام ، لاسيما الايرانيين منهم ، وهذه
 هي الشعوية . ومن ناحية أخرى كان الشعر الوثني الذي لعنه كل
 من القرآن والرسول من حيث انه جعل مثال الانسان الاعلى
 « للمروءة » لا « الدين » هذا الشعر نفسه سرعان ما أصبح عوناً
 على تفسير بعض اجزاء من القرآن والحديث للمؤمنين من أبناء القرن
 الثالث الهجري ، إلا أن هذه الاجزاء لم يكن يفهمها الشارحون
 إلا بصعوبة ولايضاح القياس . أو صلة المماثلة لم يتيسر للفرد غير تلك
 الامثلة المستقاة من الشعراء القدامى ، وكنتيجة لهذا الانكباب على هذه
 الامثلة أدخلت أشعار الشعراء بطريقة غاية في الغرابة في تفاسير
 القرآن .

أما فن العمارة ، فقد احيا السنن الاموية ، ولكن بانجماء
 بلاثم ماثورات ما بين النهرين (مثال ذلك سامراء) . وقد
 شيدت الابنية في بقاع ليس فيها حجر ، لذا استفيد من اللبن المش
 وهي طريقة الآشوريين والبابليين ، فكان نصيب هذه الابنية
 عدم قدرتها على البقاء . ومن دون ريب كانت القصور أماراً كميكة
 هشة مثال ذلك قصر التاج ببغداد ، أو كانت كمرادقات خفيفة مقامة
 هـا وهناك بين الرياض تمثل زينتها الفاخرة أم عنصر في جمالها .
 أما تذوق الموسيقى والغناء فكان امراً طاماً شاملاً على الرغم مما وصمهم

به العقيدة ؛ هكذا عرفت آلات العود والقيثار والعود الكبير والسنتير
والمزمار والبيق والطبل والمزهر وفي القرن ٤ هـ كان للامراء نوبات
تضرب أمام بيوتهم عدة مرات في اليوم ؛ وانتقلت العادة الى المالك
والعبدانيين ، ووصلت عن هذا الطريق دون شك الى اوربا .

إن عهد الدولة العباسية الممتد بين القرنين (١٠ - ١٣ م = ٤ - ٧ هـ) ، كان لا يزال غزير الزهر في النتائج العقلي ؛ وهو عهد اضطرابات
خطيرة في مجالي الدين والسياسة ، وبلغ ضعف الخلفاء في هذه الفترة
حد التطرف لكن الحياة الاقتصادية نشطت في هذه الاثناء الى بعد الحدود ،
وكان مجتمع المدن ، وهو الذي بلغ فيه التجار غاية العظمة ، قد ساهم
في امور العقل وأولع بها . وبدل أن يقترب الادب من الحياة نراه
يهجر النثر القوي الذي وجدناه عند كتاب العهد الفات و أصبح مجرد
زيننة وصناعة . استعمل الكتاب الاوائل السجع لمجرد إعطاء
أفكارهم توافقا وانسجاما وبذلك ارتفعت قيمة هذه الافكار . ان
النثر الموزون المسجوع لسور العهد الاول في القرآن قد استعيد في
تأليف الخطبة لدينية ، وعزز هذا النثر في المراسلات التي كان يرسلها
ديوان الخليفة . وأصبح نفس هذا النثر في القرن الرابع الهجري
الشكل المعتاد للنثر الفني ، واعطاه اسلوبا يقوم جماله دائماً في زهائه
وتعلقه بالطباق والجناس . وما عدا تلك التوافه الادبية المقبولة
كقوامات الحمدي (ت - ١٠٠٧ م = ٣٩٨ هـ) والحريري
(ت - ١١٢٢ = ٤١٣ هـ) فان النثر الفني للقرن الرابع لم يخرج لنا
إلا أدبا ثريا في مبناه فارغا في معناه . هكذا أمكن الوصول الى قمة
الفن بنثر كان غاية في ذاته ، ولم يكن ليكلف نفسه بمشاق التعبير عن
آية أفكار .

استمر النثر العادي كوسط لكثير من الادب الرفيع الذي لم يتخل عن جمال الشكل القديم غالبا . وفي تلك القرون تابع العلماء بنشاط كبير الدراسات الدينية ، وهي القرون التي سادت فيها الشعبية وقد أحيا الغزالي (ت . ١١١١ م = ٤٠٢ هـ) الدراسات الدينية ، وهو الذي أحاط بعلوم زمانه كلها ، ويعتبر من خير الكتاب الذين عرفهم الادب العربي . وهو أول من استعمل الفارسية والعربية في الكتابة ، وبذا ضمن تقدم الفكر الاسلامي في ايران . وحياة المغامرات التي عاشها التجار أضافت شجنا الى الثروة والأخبار المجهولة في ما كتبته « واصفوا البلدان » والذين كانوا هم أنفسهم من السائحين . والجغرافية « البشرية » ، التي يبدو أنها ابتداء حديث ، عرفها العرب ، كما عرفها الاغريق من قبلهم . وأحس المجتمع العربي باستطلاع حي دفعه الى معرفة الاشياء الغريبة والاجنبية وتطلب اعاجيب البلاد البعيدة . وشغل المؤرخون أنفسهم بالاضافة الى ما ذكرنا ، بالتحقيقات الفردية عن حياة الامراء ، والقبائل والمدن ، كما اهتموا بطبقات الشعراء والنحاة والفقهاء ، وذلك حسب قاعدة اقتبسوها من اعلامهم الذين - بقوم .

وظل الشعر يحتل مكانة مشرفة ، وذلك لان الناس جميعا استمروا على نظمه ، وما كنا لنجد أية مزاجا جديدة فيه ، ولم يظهر شاعران حقيقيان هما : أبو فراس والمتنبي في القرن الرابع هـ في ذلك الوسط الغريب لدى الامراء الحمدانيين في حلب . ولفترة من الزمن ، وفي ذلك الخضم البليغ الاضطراب الذي وقعت فيه الخلافة دفعت الظروف جاعة من البدو ، كانوا أفراداً مغامرين غلاظا خبيثاء معا . هؤلاء أنفسهم قدر لهم أن يدافعوا عن الاسلام والعروبة ضد

امبراطور القسطنطينية . هكذا نجد في وقت هبطت فيه قوة الخلافة الى أسفل دركاتهما ، ولد شاعر في الكوفة ، وبعد مغامرات بدوية منبته لقب المتنبي ، وبسخرية من القدر ، جاء الى بلاط حلب حيث الفى ما قدر له من توفيق . وقد وهب نبوغا ليس له ند في استعمال الالفاظ والمهارة في تبديلها حسب المراد ، وكانت له سلطة عليا على أوزان غنية ومتنوعة ، وقد استطاع بفضل عواصف الفارات البيزنطية أن ينشر على قصائده ريحا ملحمية . ومع انه صهر شعره في بوتقة القوال البدوية القديمة ، التي يحتمل فيها للكان الاسمى مديح الحامي الكريم ، مما كان لثبا سافلا ، فقد استطاع أن يتغنى بذنك المعجب والافتخار اللذين كانا للمرورة البدوية في الفاظ خصبة مصقولة ، في الوزن والقافية . والى هذه الاصاللة المزدوجة في الموضوع والشكل يدين المتنبي بمجده الباقي ومكانته كشاعر لغوية حديثة .

إن الحروب الصليبية لا نجد لها إلا في كتابات المؤرخين ، الذين كتب بعضهم في أسلوب عصري . ولم يكن لهذه الحروب من تأثير على الحياة الدينية إلا من حيث انها اعطت نور الدين وصلاح الدين حجة لحشد جموع الشرق الادنى تحت لوائها لغرض اعلان الجهاد . ومع هذا فمن المناسب أن نعترف بأن هالك آثاراً لذلك في المؤلفات الشعبية التي عذمت المؤاهن والتواريخ ، والتي يمكن أن نعزوها الى القرن (١٣ م - ٧ هـ) من أمثال الف ليلة وليلة ، وقصة عنتروقة على غارات بني هلال . في هذه المؤلفات يمكننا أن نجد ملامح تشير الى الصليبيين وإن كان أساس هذه الكتابات غريبا في هذا المجال ، وجاء بعضها من الفارات البيزنطية .

أما اذا نظرنا في عمارات سورية ومصر ، فعلينا أن نبحث

عن الانقباسات المتبادلة الخاصة ببناء القلاع ونجد في مساجد الشرق الزخارف كثيرة جداً ، كما هو الحال في النثر للمسجوع في الأدب ، ويعيد المرابطون والموحدون في مراكش الى الذهب الاسلام في نقائمه القديم ، هكذا أعادوا فن المساجد الى بساطة منسجمة في بنائه وزخرفته . وهذا ايضا هو العصر الذي انتج فيه الفن الفارسي والفن الهندي - الاسلامي اثراً معقداً ، كانت غالباً ذات روعة ، حسب النموذج الشائع للآثار الاسلامية ، تلك الاعمال التي تدين بجمالها للتراث المحلي والعبقريّة الخاصة للممارين الذين انتجوها .

ان تحریم انتاج مشابهاً للكائنات الحية ، الذي قرره الحديث في عصر الكفاح البيزنطي ضد الصور ، قد خرق باستمرار ، الا في المساجد . وكان لقصور الامويين تصاوير وتمائيل للشخصيات كما كان للحمامات في القرن (١١ م = ٥٥) تمائيلها وتصاويرها الشهوانية ، التي عاش قسم منها طويلاً . وقد افترط السجاسيد والمعلقات في تمثيل الحيوانات ومناظر من الحياة العائلية ، كذلك غطيت الاباريق والاصص والصواني والصناديق الصغيرة بنفس هذه الصور ، وبصور الناس كذلك . ويقال ان الخليفة الاموي في الاندلس قد أمر بنحت تمثال نصفه لحبيته الزهراء على باب قصره في مدينة الزهراء . وكان الفقهاء والروح التقليدية المحبة «للمدارس» سبياً في فرض التحريم بدقة الذي أمكنه ان يطبق في مجال الابلية الدبلوماسية حسب .

ومنذ القرون ١٣ - ١٩ م كان الادب العربي بالمعنى الصحيح تقليداً خالصاً وخالياً من أية طرافة . وما زال نظم الشعر سائداً ؛

واستعملت قوافيه واورائه نفسها في نظم الفصائد التعليمية في مدح النبي
كبردة الشيخ البوصيري ، وفي تأليف الوصايا الخاصة براكبي
السفن ، وكتب الذجو ، ووضع قواعد الشطرنج الخ . وقد انتجت
الثقافة كذلك بعض مؤلفات نافعة ذات مكانة : فوجد لمصر في زمن
المماليك انتاجا مهما في كتب التاريخ ، أما مقدمة ابن خلدون
فمؤلف ذو قيمة بالغة . وفي حقل الجدل الديني نجد ابن تيمية
شخصية أصيلة وذات اثر .

ان هذا العهد الطويل الذي كانت اصالة الادب ابانه ضعيفة الى
هذا الحد ، قد ترك على العكس عمارات لا تشهد ببقاء انبل جوانب
التراث الاسلامي فحسب ، بل وبوجود افكار جديدة في فن
العمارة كذلك . وقد خلف الايوبيون والمماليك والفرس والسلاجقة
والعثمانيون والمرابطون والموحدون والمرانيون وبنو نصر أضرحة
جميلة ومساجد وقلاعاً وقصوراً . أما الفنون الفرعية فقد طبقت
في أغراض مختلفة واسعة النطاق ، وقد سمح قربها الزمني نسبياً
ببقاء عدد كبير منها .

شهد القرن ١٩ م أحياء الأدب العربي وموت الفن الاسلامي .
ان الأدب الجديد الذي كتب بالعربية بمجاهد في ان يعبر عن
العواطف والافكار التي كانت تخنلج في أذهان المسلمين منذ قرن ،
ولاسيما خلال نصف القرن الاخير ، وقد أعاق نموه التام غزارته
وعدم كفاية أساليبه في التعبير . وبلاحظ انه في القرن الثاني
لهجرة أحس المسلمون بمحاجتهم الى نثر بلائم التعبير عن أفكار
كانت طريفة جداً بالنسبة للفاخرين العرب ، ولم يجدوا في الشعر ولا
القرآن ولا الخطب الديلية ولا الاحاديث اليومية ، الاداة التي تلي

حاجتهم . وقد أنجعت جهود المترجمين نثراً غزيراً ، كان جميلاً وواضحاً
وقد زاد في اكتناله بعض الكتاب النابغين . أما في القرن ١٩ م ، فلم
توجد حاجة الى خلق نثر جديد ، إنما شعر الناس بوجوب تحويل
ما عندهم من نثر وتخليصه من النثر الفني ، ومن السفايف التي أنفلتت
منذ القرن ١٤ هـ ، وهو نثر أمكن لبعض الكتاب الفكهين من استعماله
لغرض التسلية ، لكن استعماله للاغراض الجدية كان مضحكاً .
وكانت المشكلة الرجوع الى مدرسة النثر السهل للكتاب العكبار في
القرن ١٣ هـ ، وفي نفس الوقت هدفت المشكلة أيضاً الى ترجمة الكتب
الاوربية والاقتباس منها ، وانعاش لغة الكتاب بالتعبير الحي المتغير
الذي نقابله في الشارع والحقل . ويفتقر النثر العربي الى الآن الى ذلك
الكتاب الكبير الذي يمكنه أن يفرض أسلوبه ويكمل دفعة واحدة
الواجب الثقيل جداً الذي أخذه المجمع اللغوي في القاهرة على عاتقه .
وهذا الاخير اهتم قبل كل شيء بمجموعة المصطلحات الفنية ، وليس
هذا دون مبرر ، لا سيما وان الكتب العلمية قد سادها جو من الخلط
شنيع .

إن الكتابة العربية قاصرة . وهي تعتمد كبقية الكتابات السامية
على الامة الاساسية التي للاحرف الساكنة ، اما أحرف العلة فهي
بصورة خاصة عوامل اشتقاق وتغيرات اللفظ . هكذا لم تكتب العربية
أولا غير الاحرف الساكنة ؛ بعدها عند أواخر القرن الثاني هـ في نفس
العصر الذي خضعت فيه الكتابة العربية للإصلاح الماسوري ؛ ادخلت
الكتابة العربية ، في صورة اشارات صغيرة موضوعة فوق الاحرف
الساكنة أو تحتها ، مجموعة ناقصة من ثلاثة أحرف علة بمجمله هي
الفتحة والكسرة والضمة ، وقد قابلت هذه ثلاثة أحرف علة طويلة

هي الألف والياء والواو . ومن المشكوك فيه كثيراً أن تكون
 الاشارات قد وفّت بكل أصوات اللغة : وهي اليوم قاصرة قصوراً
 واضحاً . بالإضافة الى ما تقدم ، الفى المثقفون ان معرفة نظام احرف الة
 مستخلص الى حد كبير من قواعد اللغة ، لذا اعتقدوا ان مردواعي
 نغزم اهل هذا النظام في كتاباتهم اليدوية ، مع العلم أنه تكون
 بصورة دقيقة في الكتب المطبوعة على الاخص . والعربي لا يحاول
 اقامة كتاباته اليدوية بالحركات ووضعها فوق الاحرف أو تحتها الا
 حين يريد أن يثبت نصاً قرآنياً غير الغابل بطبيعته لأي تحوير أو تغيير
 أو أن يؤكد المعنى الدقيق لبيت من الشعر أو لقطعة نثرية صعبة على
 الهمم ، أو في النهاية ليشير الى القراءة الدقيقة لاسم علم .

إن نواحي النقص في نظام للكتابة كهذا تظهر بصورة أوضح
 حين أخذ التعليم ينتشر بين الشعوب الاسلامية : وأصبح فن القراءة
 غير مقصور على طبقة ذات امتياز كانت تعتقد من قبل بفخر ان في
 امكانها حل رموز كثيرة الالغاز . واصبح من المناسب قبل كل شيء
 ايجاد نظام عملي في وضع علامات لاحرف الة الموجزة ، وكان مثل
 هذا الاصلاح مبسراً ، لو رجع المسلمون الى تلك المجموعة الفقية من
 العلامات المعروفة في العربية القديمة وهي الفتحة والكسرة والضمة ،
 ولكن لو حصل شيء من هذا لكننا بعيدين عن الحقائق القائمة آنذاك
 وكان من الممكن ايجاز الاحرف الساكنة ، ولكن كانت تظهر عوائق
 في هذا المجال من جانب اللهجات المختلفة ، والذين حارلوا الغالب على
 مثل هذه الصعوبة الخاصة جداً قابلوا نزعتين ، أشرنا اليهما من قبل :
 نزعة تذكر بالجماعة الاسلامية القديمة حين حكمها خليفة عربي ود لو
 يحتفظ بالكتابة المأثورة كما هي ، ونزعة أخرى لم تهب تغيير الحقائق
 القومية .

ونفهم جيداً صعوبات أي إصلاح يطرا على الكتابة وضبطها وهو إصلاح يبدو أنه يمس أكثر المصالح قدسية لدى الجماعة الإسلامية ، وذلك حين نتذكر الكتابة التركبية وتحول نطقها وكيف أن ذلك تطلب ثورة سياسية وتطوراً اجتماعياً سريعاً وتحولاً مفاجئاً من تنظيم اجتماعي « ديني » إلى آخر علماني . واستعملت الالفباء اللاتينية في كتابة التركبية ، وادخلت في آذربيجان ، في سنة ١٩٢٣ م ، وأصبحت الزامية في تركبية منذ أول حزيران ١٩٣٠ . هكذا فرضت التأثيرات الدينية باستعمال الالفباء العربية في اللغة التركبية علامات لاتتلاءم مع هذه الأخيرة وتوقعها عن السمع بصورة كلية ، ولم يخف مثل هذا الإصلاح في التأثير على الرأي العام العربي وقد حملت القومية الألمانية في تركبية هذا الإصلاح ضد ما يدعو اليه العرب من وحدة المسلمين جميعاً وقوت هذه القومية حملتها بانكار القيمة الدينية التي للغة القرآن : هكذا صارت خطبة الجمعة واذان الصلاة تنطقان اليوم باللغة التركبية (العصاملية) .

نجد الشعر في الحركة الأدبية اليوم ، على الرغم من محاولة أحيائه المباركة ، لا يزال في أطاراته البدوية أو العباسية القديمة ؛ إلا أنه انقطع لحسن الحظ عن محاكاة الشعراء الذين جاؤا بعد القرن (١٠ م = ٤ هـ) باستثناء الشاعر المتنبي الكبير ، وقد ظهر في العربية شعراء لهم نبوغ في نصف القرن الأخير . وعلى العكس نجد القصص والروايات على محاكاة تامة لما عند الأوروبيين ؛ ففي العربية نجد من يحتذي حذو موباسان أو تشيكوف إلا أن العناية بالملاحظة الشخصية وبالواقعية أنتجت مؤامات في هذا الصدد ذات قيمة حقيقية . والمسرح ، وهو أمر غريب عن الحياة الإسلامية القديمة ، لم يتذوقه المجتمع الإسلامي

الحديث إلا ببطء : وبدأ هذا المسرح بترجمات وإقتباسات من الفرنسية والانجليزية ؛ ومنذ خمسة وعشرين عاما نشأت مسارح ذات نزعات اخلاقية واجتماعية لا تخلو من أصالة . وفي الحوار المسرحي ، أكثر مما في القصص ذاتها ، نجد لغة التخاطب اليومية ولغة الشارع تدخلان عناصر ممتازة من الحياة والواقع . ومن الصعب ان نفهم لماذا لم تنتعش في المجتمع العربي الكوميديات الخفيفة السارة والانتقادية في حين ان المسرح بدأ يجذب الناس اليه ؛ أما تذوق الشعر فانتشر بصورة كاية كما كان من قبل ، وساد ميل كبير الى كل ما هو مبضحك وغريب ؛ ومن القرن الرابع الهجري كان للشرق الادنى مسرح الظل الذي تطور في المستقبل فأصبح (القرغوز) ، واعتاد الجمهور أن يرحب بحرارة بالموهوبين ذوي القدرة الكبيرة على التقليد ؛ وميدان الغناء في مراکش كان منذ عهد قريب المسرح الذي يعلوه ممثل راقص جريء وبارع يسلي البسطاء بعرض ما عنده من صور الظل المضحكة للأشخاص المتفرجين . ونفس هذا الميل الى المبالغة الهزلية ساد الرسم في كل مكان . وبدأ يمكننا لهذه النزعات الطبيعية أن تتحول الى فن .

وجد النثر العربي القديم لنفسه مجالا في مقالات النقد والحجاج ؛ واعتبر الكتاب المحدثون هذه المقالات نفسها النموذج لما يكتبون ؛ وقد فتحت الطباعة أمامهم مجالا واسعا لاطهار ابداعهم .

لقد ولد الادب الفارسي في القرن الرابع الهجري في خراسان زمن السامانيين والغزنويين ؛ وهذه بقطة قومية في اطار اسلامي ؛ وقد مات الفردوسي حوالي عام ١٠٢١ م ، وفي حركة موازية للادب العربي ، كان لايران في القرون ١١ - ١٣ م شعراؤها ، ومؤرخوها

وفلاسفتها ومتصوفتها . والبعض من هؤلاء قد كتب باللغتين معا . ان الاحساس بالافكار المعبر عنها بأسلوب رقيق وجهت الايرانيين الى محاكاة النثر الفني العربي الذي لا يطاق للقرن الرابع الهجري . وكما نجد لدى الترك قد انتج الايرانيون تراثا غزيراً من الحكايات الوطنية ، في حين ان مجموعات اخرى جاءت مقلدة للترجمات العربية المقتبسة عن الهند بطريق الفارسية أو الفهلوية . ومنذ القرن (١٤ م) نجد الآداب الفارسية قد أصابها الركود ؛ ولم تبعث إلا بنفس التأثيرات التي احبت الآداب العربية .

وتحت التأثير الايراني ولد الادب التركي ؛ وقد كتب السلاجقة بالفارسية ، وأوائل الكتب التركية في القرنين ١٤ و ١٥ م كانت بوحى من الفارسية . ولم يظهر اثنان مهم وأصيل الا في القرن ١٦ م في عهد عظمة سلاطين استانبول ، في موضوعات الشعر والتاريخ والثقافة الدينية . وبعد ثورة ١٩٠٨ ، نشأ في تركية ادب حديث ، رسخت زمامه الاجتماعية والواقعية بعد عام ١٩٢٤ ، وذلك عندما ظهر شعراء وقصاصون نابغون .

في انحاء العالم الاسلامي كله قامت نهضة ادبية مصحوبة بفقر فني يستثير الشفقة . ويتوقع المرء ، كما في بلدان وعهود أخرى ، أن يجد غزارة عامية معقدة من الزخرفة ، لكن التأثير التركي ضم الى هذه الزخرفة فن عمارة شنيع ، يبدو انه يحتذى حذو اسلوب البناء الفرنسي العسكري الذي شاع منذ عهد لويس الرابع عشر . وقد نتج عن هذا بنايات تدعو الى الرثاء و « تجديدات » تستحق الشفقة . أما الفنون الفرعية فقد سحقتها المنافسة الآلية والاقتصاد الحديث ؛ السجاجيد ، والانسجة ، والجلود ، والمطرزات ، والخزف واعمال

الصفر ، كل هذه اخذت تضمحل او تكيف نفسها وفق ذوق اوروبي اكثر كآبة . ومنذ بضعة اعوام نجد المستوردات اليابانية قد قضت في سورية على صناعة فناجين القهوة . وتعمل الدول الالمانية على احياء الصناعات الميئة بفتح اسواق جديدة لمنصاتها .

كان نمو العلم والفلسفة العربيين يختلف تماما عن نمو الادب والفن لذا فضلنا ان نتحدث عنها في نهاية هذا البحث العاجل لمراحل الحياة العلمية عند المسلمين : عددنا في الفصل الثالث موضوعات الخصومات التي أوجدها علماء الدين ، والذين وسعوا الفكر الديني الاسلامي في صورة تبعث على الابتهاج كثيراً . ونجد الفلاسفة ورجال العلم قد وضعوا على هامش الاسلام وهم الذين يجب أن نعين مكانهم في التاريخ العام ؛ ولم يكن هؤلاء أي تأثير على النظم الاسلامية لكن مؤلفاتهم قد سيطرت على علوم العمور الوسطى المسيحية .

لقد حقق هؤلاء اتحاد العلم بالفلسفة : والفلاسفة المسلمون ، هم نظريا ، علماء تشريح وفلسفة وفلك وطبيعية و كيمياء ، وفي الواقع العملي هم أطباء ومنجمون وسيميائيون وصانعوا الآلات المائية . ومعرفتهم أجنبية غريبة عن الاسلام . وهم كعلماء الدين استفادوا من التراث الاغريقي ، وليس فقط من مذاهبهم في المنطق ؛ وامكن المسلمين ان يطلعوا على المعارف الاغريقية عن طريق الترجمات السريانية أول الامر ، ثم أخذوا يتفهمونها بصورة مباشرة ؛ وان المركز الطبي اليمقوبي في جنديسابور منذ القرن الخامس كانت له جامعة ومدرسة للطب ، حيث حصل الخلفاء العباسيون على أطبائهم ،

ومن هذا المركز بالذات يجد كل العلماء مهاجرون الى بغداد بالتدريج .
ومن ناحية أخرى نجد ان العرب الاصليين هم قلة نادرة في قائمة الفلاسفة
حيث لا نجد غير الايرانيين والصوريين والعراقيين والمصريين من
أصول مسيحية أو يهودية ؛ ويجب هنا أن نخص بالذكر الكندي
الذي كان عربياً . وكان ينبغي أن نتحدث عن الفلاسفة المكتوبة بالعربية
أرى من أن نتحدث عن الفلسفة العربية .

حقق الشرق الاسلامي ، بين القرنين ٩ - ١٣ م ، تقدماً محسوساً
في الرياضيات « فالجبر كلمة عربية » ، وفي الفلك والتشريح وفن
الشفاء والكيمياء . ودون شك درس هؤلاء المعارفون غالباً كتب أسلافهم
في مثابة أكثر من التي أولوها الطبيعة ، بحيث أنهم اخرجوا
نظريات عقيمة أثبت بطلانها البحث الحديث ؛ لكنهم قاموا بتجارب
دقيقة وعرفوا كيف يسجلون النتائج . وحتى القرن ١٥ م نجد ان علماء
للعرب المسيحي ، يعيشون على تراث العلماء العرب ، وتراث أرسطو .

كان أرسطو المعلم الأكبر للفلسفة العربية قبل أن يصبح المرشد الأعلى
لمدارس الغرب ، ومصدراً لسخرية متفرجي مسرحيات مولير لكن
العرب عرفوا أرسطو عن طريق الافلاطونية الحديثة بصورة خاصة .

إننا لنجد العلل الاربعة الاولى لأرسطو في أساس مذاهب الفلاسفة
المسلمين ؛ وهي الملة الفاعلة ، والملة المهيولانية ، والملة الصورية ، والملة
الغائية . وهذه تألف بفكرة القوة والفعل وبفكرة الفيض ليتكون من
ذلك كلمة الكل الالهي . ان الملة الفاعلة والمبدعة ، المرتبطة بالكلمة
الرواقية (لوغوس) تتدخل بسلسلة من العقول التي يدعوها اخوان
الصفا مثلاً العقل الخالق والعقل الفعال والنفس الكلية والموجودات .

واستخدم الفلاسفة معارفهم العلمية ليؤثفوا مدهاب عن العالم
وهقائد عن النفس ونظريات عن الشر ، وهي النظريات التي فصلتهم
عن الاسلام ، لكن كان لها بينهم قرابة حميمة ، من حيث انها
أنت جميعا من نزعة توفيقية موقدة كثيرا أوقيل من آراء الاغريق .
ولاستحالة اعطاء فكرة واضحة عنها هنا نرى من الافضل أن
نوجز عقائد أقدمهم وهو الرازي المتوفى سنة ٩٥٢ م . وهو كطبيب
وسيميائي اشتهر في الغرب باسم « رازيس » .

إن رجل العلم في الرازي أعلى من الفيلسوف . صاغ الرازي
بوضوح نادر مبدأ يبدو اليوم بديهية ، وهي في نفس الوقت أساسية
جدا لتقدم العلم ؛ حاصلها انه يلزمنا ان نعتبر ان آراء السابقين يمكن
إعادة النظر فيها ، وعائنا أن نبذل جهداً متواصلا للذهاب الى
ما وراء بحوثهم ، بأمل ان الآخرين سيكملونها من بعد . إن هبة
آراء الأقدمين التي دفعت الاوربيين في القرن ١٧ م الى نبذ نظرية
الدورة الدموية ، قد سادت الحياة العقلية للاسلام ، ودفعت المجتمع
الاسلامي الى أن ينهم الرازي بالهرطقة بعنف . أما ميتافيزيقاه
فتعترف بخمسة جواهر خالدة : الخالق ، النفس ، المادة ، المكان
الزمان . والنفس التي هي جاهلة والتي لا تنهذب إلا بالاختيار ، لها رغبة
الاتحاد بالمادة ؛ لذا نرى الخالق الذي هو علم كله ، قد ألّف ذرات
المادة بحسب العناصر الخمسة : التراب ، الماء ، الهواء ، النار ، الفضاء .
وهذه متناقضة في كشافها على التوالي ، كما تكون عدداً هائلا من
المركبات . وقد بقي فيها من الشر ما لم يمكن ازالته عنها . ثم اعطى
النفس عقلا وادراكا ، وذلك كما تنذكر طهرها السابق ، وكما
تأمل الانفصال عن عالم المادة الذي سبب الشر الذي فيه ألم للنفس .

إن كان كل نفس عن النفوس الفردية التي تؤلف هذه النفس مأجزة عن تحرير نفسها بمجهود منفصل . إن النفس الانسانية ، بحسب فكرة مشتقة بصورة غير مباشرة من أرسطو أخذ بها كل الفلاسفة العرب ، متألفة من نفس راعية [شهوانية] وهي ساقلة ونباتية ، ومن نفس غضبية وهي حيوانية ، ومن نفس ناطقة الهية . ولكي نتطهر النفس ، يجب أن تفود النفس الناطقة النفس الثانية وبذلك تسمح للنفس بعد أن تجتاز انتقالات عدة في كائنات أخرى ، أن ترجع الى طهرها الاول . ولكي يتجنب المرء الشر عليه أن يتعاشى التطرف في العاطفة وأن يكون لديه اتجاه وسط للتوازن ننصح به العقيدة المسلم كذلك .

الانسان إذن جزء من نظام عام للكون . ويعتق الفلاسفة العرب جميعا عقيدة تقول بالتوافق التام بين عناصر الكون ، وعناصر الطبيعة البشرية ؛ وهذه الاخيرة هي عالم أصغر في عالم اكبر ويشمل التوافق أصغر التفاصيل . ان عقل العالم ، وهو فيض مباشر من نفس العالم بحكم العالم ، بنفس الطريقة التي يقود فيها ادراك الانسان جسده .

ازدهر العلم والفلسفة في نفس المجهود التي ازدهر فيها النظر الديني والادب والفن . وهذه الحركة الكبرى الغربية عن الاسلام قد استمرت خلال القرون (٨ - ١٣ م) ، ونذكر هنا بعض الاسماء اللمعة كجابر بن حيان (ت ٨٠٣ م) ، والكندي (ت ٨٧٣ م) والغارابي (ت ٩٥١ م) وابن سينا (ت ١٠٣٧) ، والبروني (ت ١٠٤٨) وابن رشد (ت ١١٩٨ م) . ومنذ القرن (١٤ م) لا نجد رجلا علم ذي قيمة . ويجب أن نعترف بأن الدين الاسلامي ان لم يكن سبب هذا الانحلال ، فان الانحلال نتيجة لذلك الاتجاه الذي طالت به الفرق

الدين والفقهاء وهم فرقة علماء الدين من (للمدارس) ، فاصبوا العداء كل علم تجاوز الحد ، فالفلك يجب ألا يعدى تركيب الاصطrolab الذي ياعد على تعيين اوقات الصلاة ، والرياضيات يجب ألا تعدى حساب حصص الارث : وكل ما عداها من علوم كان خطراً على العقيدة . وليس في بلاد الاسلام وحدها حفز الدين بهض فرقه على اطفاء شمعة البحث العلمي : ولما لم يقف حائل في وجه طغيان هذه الفرق ، فان الروح العلمية ذاتها التي وجدناها متأصلة كثيراً لدى طبيب في القرن العاشر « هو الرازي » قد سحقت بفعل الجمود الذي ساد طويلاً بحيث لم تظهر هذه الروح العلمية الا لدى عدد ضئيل جداً من المسلمين .

المصادر

Abd-el Jalil, Breve histoire de la litterature arabe, 1943; Kratochowsky, E. I, Suppl. 26; Brockelmann (S.62); Gibb (S. 101) ; Soussey, Prosateurs turcs, 1935; Brehier Philosophie du moyen age; E.I., Ibn Sina, Ibn Rushd, Rhazi, etc. Wensinok, Ghazali (en françois).

الفصل الرابع عشر

الاسلام الحديث

لا نستطيع أن نطمح الى انهاء هذا الكتاب الموجز بصفحات ندعي فيها الحكم بدقة على حاضر الاسلام والعنف بمستقبله . وفي وقت يبدو فيه توطيد أركان السلام أصعب وأشق مما كان الحال في اشغال نار الحرب ، لا نشعر البتة بأننا قادرون على التنبؤ بمصير الشعوب الاسلامية . من الواضح انه انتهت اليوم قضية خضوع الجماعة الاسلامية لخليفة أعلى ، كما كان الامر حين كانت قوة سياسية وعسكرية من الطراز الاول في ذلك العالم المحدود المتراخي بين اوربة وآسية الغربية . ان الشعوب الاسلامية للنتثرة في مناطق ، هي عدا الهند وجزر الهند الشرقية ، ذات موارد اقتصادية شحيحة ، هذه الشعوب يبدو انها غير قادرة على التجمع في كتلة منفصلة من الدول . ويبدو ان مصيرها هو اندماجها مع بعضها اندماجا يتم تحت اشكال معبأنة سوف ترسخ شيئا فشيئا ، وذلك في ظل التجمعات الكبيرة في المجالين السياسي والاقتصادي التي سوف تظهر خلال النصف الثاني من هذا القرن . ولكن من المشكوك فيه ان الحضارة الاسلامية سوف تلتئم مع الحضارات الانجلو - سكسونية والروسية والفرنسية التي يقود كل منها مجموعة من الدول الاسلامية ، ونحن حين نقرر هذه الحقيقة

رانا نرجع الى موضوع هذا الكتيب الذي يعالج ليس تاريخ الدول
 الاسلامية وإنما تاريخ الحضارة الاسلامية التي يسيطر عليها الدين .
 كان الدين هو القوة المسيطرة على التطور الثقافي لجميع الشعوب
 التي دانت باليهودية والمسيحية والاسلام . وقد انصاع الدين لتطور
 المجتمع ، تخفف دون شك من سيطرته ؛ ورغم ذلك ما زالت له سلطة
 كبيرة ، من اللازم تقدير قيمتها الفعالية . ان اعتناق عقيدة دينية ما
 انما يستند على وحي يقرر انه حمل الى الناس الحقيقة الخالدة والهداية
 وناموس الله العظيم ؛ وقد ثبت الوحي الى الأبد معرفة العالم وماهية
 الحياة . وفي الوقت ذاته ان ما علمه الوحي الناس بوصفه حقيقة غير
 قابلة للنقاش قد بدا خليطاً منوعاً مضطرباً ؛ وبحصل هذا مرة بعد
 اخرى كجهد مثابر للعقل الانساني ليحمل الناس خطوة فخطوة
 في سلم المعرفة . ومن المريب أن نشاهد كيف ان الدين المرتبط بالوحي
 لا يؤذل أي جهد ليسير في موكب المعرفة الصاعد . وعلى العكس يبدو
 ان الدين يصير على نصيح الناس لنثبت أفكارهم في صور لا تتغير ،
 وينصحهم برفض أي تفكير أو مناقشة ، والقناعة بالفرائض الدينية
 التي تبقي مؤمني القرن العشرين في دائرة الطقوس الرمزية التي حكمت
 حياة أسلافهم الاقدمين . ان الدين مرتبط بعري لا تنقسم
 بعنائده وشعائره . ان الكلمات والاشارات التي قد تنفع
 كشارات للاتقاء الى حزب سياسي ماعدمة النفع في دعوة الروح
 الى الانصال بالله الحقيقة . يجاهد العلم في تحطيم أولى العقبات التي
 اخفت عن العقل البشري سعة اللانهاية ؛ وعلى الدين أن ينكسر فقر
 مبدأ التشبيه الذي يجعل الانسان خاضعاً لاله مصنوع على شكله .
 وحين يسلك الدين مسلكاً يهدف فيه الى البحث عن الروح ، فسيتقطع

الناس عندها عن اللجوء الى نزعة مادية لتعينهم على الوصول الى فوح من الايمان . ان الاسلام الذي لا يتحكم فيه سلك الكهنوت ، وهو السلك المقيد برتوب العقيدة والشعائر ، قد يستطيع بهذا أن يعود ثانية الى تلك المناقشات الدينية الحرة التي انارت بوهج ساطع تاريخه بين القرنين (٨-١٢ م - ٢-٥ هـ) لكن الاسلام مازال مصبوغا بروح طبقة الفقهاء القديمة ، وهم قضاة و علماء دين انحدروا بالعقيدة الى مستوى الثروة الاسكلائية . وحق لو لم يعد مسلمو القرن (١٩ م) الى مناقشة المسائل الاساسية ، فانهم على الاقل اعطوا نظمهم صورة جديدة تماما . وربما نجد بابا للامل في نمو نزعة التجديد التي ترغب بحماس اكبر مما سبق في طاب الروح . لكن الارتقاء الجزئي للنظم الاسلامية قد تحقق تحت التأثير الاجنبي ، من حيث ان « بعض الكفرة » والمصلحين لم يطرحوا امام الانظار غير اغراض عملية . وقد فهموا انه من غير الصحيح نسبة التفوق المادي لاوربة الى مؤثرات شيطانية ، ورأوا ان في امكان الشرق ان يتعلم من جديد . هكذا نجد بعض الشباب المسلمين قد بادروا الى تعلم العلوم العملية واطهر قسم منهم كفاءة تستحق الاعتبار قد ترتفع فتبلغ مرتبة ايجاد مذاهب علمية ؛ لكنهم لم يجدوا في المجتمع الاسلامي دائما : المسكنة التي تتناسب وما يستحقون . وآخرون كثيرون خصصوا جهودهم لدراسات تتلاءم كثيراً مع اذواقهم الطبيعية الميالة الى الفصاحة والنقاش أي الى دراسة الحقوق والفلسفة والاجتماع . وقد نال هؤلاء تقديراً أكبر من سواهم في بلدانهم وهم الذين ، هياؤا النفوس بأحاديثهم وكتاباتهم الى تجديد النظم ، ولما كانوا يحملون معهم نظريات فلسفية واجتماعية يمكن وصفها بأنها وضعية - جديدة ، فانهم أداروا ظهورهم الى الاسلام وقاموا بحركتهم في تركية وغيرها .

لقد بحث تركية ، فكرة الجامعة الاسلامية وفكرة الخليفة وهو الباشا - الامبراطور ، الذي يحمل عمل النبي وظل الله في الارض . وهكذا أصبحت تركية علمانية وتبنت مبدأ التمثيل الشعبي ، وبدلت ادارتها بديلا تاما . وقد دهش الغرب لهذا التكيف السريع التام للشعب التركي الى الحياة الحديثة : الحكومة ، مجموعات القوانين ، التعليم ، الفعاليات الاقتصادية ، وحتى الازياء نفسها قد ارتضت فكرة ازالة الحجاب النسوي وتغيير اللباس . وقد فكر البعض انه اذا كانت الطبقات الوسطى مستعدة استعدادا كافيا للاحتكاك بأوربة لتقبل هذه التطورات الفجائية ، فان كتل الشعب قد ارتضت هذا التحول بصعوبة كبيرة ، وبالتالي كانت الوحدة الخلقية للطبقات الاممة غير معينة . ان السنين المنصرمة أظهرت ان الجمهورية التركية قادرة على أن تؤكد وتصون مركزها كدولة مستقلة « نفوسها ثلاثة عشر مليونا » .

وفي الطرف الآخر من العالم الاسلامي نجد ان الوهابية قد شادت حول الحرمين الشريفين ، قلعة راسخة لا قدم النقائيد الاسلامية . وهي تلتفت باكثر المذاهب السنية تزمعا أي الحنبلية ، وتستند لأشد رؤساء هذا المذهب تعصبا وهو ابن تيمية (١٣٣٥ م) الذي غدت كتبه عقيدة عبد الوهاب (ت ١٧٩٢ م) . وتزعم الوهابية انها تريد أن تعيد الاسلام الى الاحترام الخالص للقرآن والسنة وتعارض كل البدع ، كعقديس الاولياء والبقاع التي عاشوا فيها وقبورهم . ان الامير ثم الملك ابن سعود اسس نوتا من الاخوان الوهابيين الذين غدوا له سنداً وعونا حروبيا لتأكيد سلطته . يبدو ان وجود مبادئ الوهابية وغلظتها في التطبيق حكما عليها بان تظل بعيدة عن الحركة الحديثة

للتقدم انما هي ؛ لكن هناءً أيضاً نجد روح ابن تيمية هي التي تحفز
 الزعيم وتدفعه الى أن يخلص المصلحة العامة . ان ملك الجزيرة يحاول
 أن يدخل روح التجديد على جماعته الضاربة باللفة ستة ملايين ليهيأهم
 لمعارك السلم والحرب معا . ولا يخرج من منهجه الاصلاحى غير البدع
 التي تظهر له خطرة على الدين والاخلاق . ولا يمكننا الاعتقاد أن
 حول الحرمين وتأثير تقديس بيت الله وقبر نبيه ، سيجد دين
 القرآن له روحانية جديدة .

وفي منتصف الطريق بين الترك والواهيين ، نجد السلفية تمثل
 رأياً وسطاً قادراً على أن يكسب عامة المؤمنين ، ويطور الاسلام . يعتقد
 هؤلاء ان القرآن هو نفسه ناموس القرن العشرين ، كما كان في
 القرن السابع ، لكن يجب ان يفسر تفسيراً جديداً ، وأن يفتح
 باب الاجتهاد ، أي حق وضع رأي جديد على تطبيق احد جوانب
 الشريعة الاسلامية لتلبية حاجات العصر . ومتابعة لاحد رضا والشيخ
 عبده نجد السلفية قد جددت كثيراً تفسير القرآن بحيث ان بعض
 اتباعها قالوا بجملة جافية بأن القرآن قد ذكر الجرائم والطائرات .
 وآخرون شغلوا انفسهم بمشاكل اجتماعية اكثر نقعا ، كمشاكل الزواج
 وتنظيم الحياة العائلية ، وهم كالواهيين اعداء الشعائر السحرية الخاصة
 بتقديس الاولياء وتطبيقات الاخوات وجماعات الصوفية . ومع
 ذلك لا يبدو انهم نوريون بدرجة كافية بحيث يمكنهم احياء
 الاسلام بافكار أكثر تجرداً وسخواً فيما يتعلق بالعالم والله .

هكذا نجد ان هذه الحركات المتباينة قد ظهرت تحت تأثير
 مؤثرات قومية تستجيب لضرورات جغرافية وتاريخية . وهذه
 الاخيرة قد فرضت ولا تزال مصائر خاصة على الجماعات الاسلامية .

إن الخمسة والثلاثين مليوناً من مسلمي جزائر الهند الشرقية يكونون مجموعة خطيرة في بقعة غنية تحت حماية هولندا وسيجدون مكانهم في النظام الجديد للشرق الأقصى . أما الهند فيحتل مسلموها ٦٩ مليوناً ، مركزاً مرموقاً بين شعوب متباينة في العرق والدين والحياة الاجتماعية . وسيقومون بدور رئيسي في تطور البلد ، لو عرفوا اظهار تفوق قيمتهم الروحية والاجتماعية . ان مسلمي روسية الاوربية والآسيوية وهم ثمانية عشر مليوناً ، تعيش بعض جماعاتهم تحت نظام يمكن أن يتطور الى اتحاد دول حرة حقاً .

ان الموقع الجغرافي للشرق الأدنى ، الذي يجعل منه مجمع ثلاث قارات ، ونقطة ارتباط العروق والمدنات ، هذا الموقع يحفظ للشرق الأدنى أهمية خاصة ، لا يقابلها ما له من قيمة اقتصادية او ما يحويه من سكان . ومع هذا ففي الشرق الأدنى منطقتان ذاتان خصوصية ، مصر والعراق . اما مصر « هبة النيل » فتمثل شخصية للانسانية من انبل واقدم ما نعرفه ، وتضم عشرين مليوناً من المسلمين . ومنذ القديم والى اليوم تحسد مصر على وادعها الضيق الخصب ، ومن هنا تعاقب عليها أسياد كثيرون وكحارسة لآبواب البحر الأبيض والبحر الاحمر ، وملتقى قارات ثلاث ، ترى مصر تحس لذلك بعدم تعيين مصبرها السياسي . وكما يحس ستالين بأنه خلف يمين الكبير وكترين الثانية ، وكانحل الجمهورية التركية محل المملكة الحثيثة في القرن العشرين قبل الميلاد ، فان ملك مصر يريد أن يعتقد بأنه وارث الفراعنة . والقاهرة هي المدينة الاسلامية التي تنافس فيها الحياة العقلية أشدها ، وحيث يغرم المرء باحيا صورة بمشاكل الوقت الراهن . بينما العراق « ثلاثة ملايين نسمة » فيحتفظ بالخصوبة

المأثورة « لارض السواد » التي يرويها الرافدان ، وقد اظهر في هذا القرن ثرواته الزيتية الزاخرة . وعلى عكس ما كان الحال أيام العباسيين ، فان حاصمة اليوم ليست هي حاصمة العالم الاسلامي . ولم يعد له باب مفتوح ، عن طريق الخليج الفارسي ، على الهند والصين ويمجري زبته الى للبحر الابيض ، اما الانوار العقلية لبغداد فباهتة اليوم . وقد حفظت سورية (مليونان ونصف مليون نسمة) عبر قرون التاريخ الطويلة وثوراتها عن الحياة الروحية . والمسلمون والمسيحيون فيها في الدرجة الاولى من الصراع الادبي ، والحياة الدينية في سورية لا تزال نهضة والجهود متوجهة الى صور الكفاح السياسي . الا ان تنوع العروق البشرية وتباين العقائد الدينية يحد من الوحدة القومية التي تعمل على التبلور حول دمشق . وان الجهود المتنوعة للأحزاب السورية غير قادرة على أن تمحو التأثيرات الاجنبية ، كذلك التي لتركية اوروسية ، أو تأثيرات انجلترا التي هي منبهة على الدوام ومعنية بمشاكل الشرق ، أو تأثيرات الولايات المتحدة ومشاريعها العالمية . وفرنسة التي عملت على تقدم الثقافة في سورية ، فشلت في تدبير الشؤون السياسية فيها .

ان ايران معزولة نوعا ما بسبب شيعيتها ، وأصالة عرقها البشري ولغتها وفكرها ، وموقعها الجغرافي الذي يجعل منها محالا للتنافس بين الاطماع الروسية والانجليزية .

لقد جئنا على ذكر قيمة الحركة الدينية الوهاية . ان الدولة العربية التي تكونت في ١٩٢٥ في بلاد العرب لم تسعفها الطبيعة بخيراتنا ، ولن تدخل ضمن دائرة الاقتصاد العالمي الا اذا ظهرت قيمة نتاجها الارضي .

كان للغرب الاسلامي منذ القرن (٨ م = ٢ هـ) حياته الخاصة وقد نما
 باصا لعه بمرور الزمن سواء كان ذلك في الاندلس ايام الخلافة الاموية
 ثم ايام ملوك الطوائف ، أو في المغرب ، وصقلية والبالارز من اسيادها
 المتعاقبين من ادارة و اغالبة و فاطميين و زياريين و مرابطين و موحدين
 و حفصيين و مروانيين و شريفيين .. الخ ، وان الاثنى عشر ملونا من
 مسامي المغرب يتعلقون بمذهبهم المالكي ويعتزون به و ينظمهم المصطفغة
 بالصيغة البربرية و ميولهم الادبية والفنية الخاصة بهم . ومنذ قرن
 تطورت افريقية الشمالية ضمن نطاق الفلك الفرنسي ، وقد جاءت
 جماعات من الشعوب الاسبانية والاطالاية لتؤكد في شمال افريقية
 العنصر الاوربي . ومهما كان المصير المقبل لهذه البلاد ، فانها ستكون
 دولة اوربية على أية حال .

وقد تحولت جماعات من السود ذات اعداد كبيرة الى الاسلام
 في افريقية ، الا انهم لم يمتزجوا جيدا بالحياة العالمية .
 يظهر المسلمون في كل مكان رغبتهم في الحصول بقوة على
 استقلال تام ، ويبدو ان اكثر شعوب الاسلام لم تستكمل عدتها له بعد .
 هكذا يخاف ان تؤدي آمال هذه الشعوب الى فوضى ، وبالتالي تصبح
 هذه الآمال عائقا دون تنظيم السلم والحرية العالمين .

واننا نتمنى ان نرى الجماعات الاسلامية متكاملة ومتضامنة مع
 بعضها ، بدنيا وعاداتها في دولة تنتسب الى احدى التكتلات الجديدة
 لشعوب العالم . وتستطيع جماعات الاسلام هذه أن تلعب عند ذلك
 دورها الاقتصادي والسياسي ، ولو عرفت ان تتطور ، في اطار كهذا
 باتجاهها الديني ، فستضيف اذن ائمن اضافة الى توكيد القيم الروحية
 للبشرية .

ونخشى كثيراً ، ونقول ذلك بقسوة ، ان يكون المجتمع الاسلامي على فقر أخلاقي ، وانه لن يقف على قدميه من هذه الناحية . ويؤكد البعض في ظنه ان اخلاق الاسلام الاولى غير معتبرة . الا ان مجموعة من المآثورات حفظت حتى الآن بين جماهير الناس نوعاً من السند الاخلاقي ، لا يستطيع المرء بأي حال أن ينكر قيمته الاجتماعية . والاذهان ليست مستعدة دون شك الى استبدال ما لديها من دعائم أخلاقية بنوع من المبادئ المجردة تفتقر الى أي نوع من التصديق الملموس .

اننا نعتقد ان الصفوة من المسلمين والاوربيين يسهم التفاهم على بضعة مبادئ مشتركة وذلك لتنمية شخصية خلوقة لدى الناشئة . وان مما يثير الرعب والفرع لدى الاجيال التالية ، هو ما نحن عليه اليوم من فقر عقلي واخلاقي ، أي فقر المثل العليا . ويخاف المرء كثيراً من المتشبهين المزيفين والابدال الاغبياء ، من الذين يحملون ذاكرات موسوعية تعطي شيئاً من ظاهر العلم ، وتظهر قدرة على الكلام ووفرة في الالفاظ تجعلان المرء يحدث بحرارة بالغة عن أمور يحفلها . وازاء تنوع المعارف ، وتناقض العقائد ، يلزم الناشئين دون ان يرغبوا على الاختيار من بينها ، ان يلمسوا قبل كل شيء العظمة ذاتها التي تكون لمثل هذا التنوع او عدم التعمق ، وعليهم ان يخلصوا انفسهم في البحث دون كلل عن مشاكل العالم والحياة . ان الشباب ، مهما كانت طبيعة نشاطه ، فانه لو نشأ في مدرسة قومية كهذه ، فانه سيجد كل يوم الارادة المنهجية التي تجعله يرفض أي شيء لا يفهمه ولا يستطيع أن يربطه بوحدة من وحدات ثقافته . ونكرر هنا ، بأننا لا نأمل ، ان يرفض الشاب المسلم سبر المجهول

او ان عليه ان يهمل الحلول التي يقدمها اليه التراث الديني الاسلامي .
ولكن اذا اقتنع بقوة العقل وبمحدوده ، فانه سيسام بعقله وعاطفته
في ما يفهمه وفي ما يريد الاعتقاد به . هكذا سيستطيع من أجل
تقديم شخصيته ودفعها بأحسن صورة الى الامام ان يفصل في نفسه
بين « الروحي والزمني » .

اننا نرجو أخيراً أن لا يكون نجاح الشاب المسلم كبيراً في
التأمر ، كما نرجو ان لا يفقد كل الصفات الساحرة التي ورثها عن
أسلافه : تلك الصفات التي هي نوع من الاستسلام الباسم ، لارادة الله
لا يخلو من عظمة ، ونوع من الاتجاه الى الخارج يصل الى حد
الروعة ، واحساس عميق بالتضامن يجلب الطيب والاحسان المستر ؛
وتذوق للحياة السعيدة ، مع احساس رقيق باللون ، والطبيعة ،
واتساق الاشياء .

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٥	٢	نشاهد	لكن نشاهد
٢٥	٢	بالرغبة على	بالرغبة في
٢٦	١٦	ووجه	ووجد
٢٧	٨	اوصيت	أوحيت
٣٤	٤	٤٤٨	٤٤٧
٤٧	٢١	العباديين	الاباضيين
٤٨	١٢	العبادي	الاباضي
٥٠	١	٣٥٩	٣٥٨
٥٠	١٤	غاضبين	غاضبين
٥٨	١	بحثاً	عبثاً
٦٠	١٨	من على	على
٧٥	٥	مل	حل
٩٢	١١	عبد بن حنبل	أحمد
١١٢	٤	ابتداء آ	ابتداء آ من
١١٤	٢٠	تقضي	تضيق
١٥٥	١٤	مشروعاته	مشروعات
١٦٠	٩	المسكربين	تحذف

المصواب	الخطأ	السطر	الصفحة
تحذف	الذين	٣	١٦٦
معايير	معايير	١٥	١٨٧
ان تثير	تثير أن	١٩	١٩٨
أبوي	بطريركي	١٥	٢٠٩
تعارضاً	تعارضنا	١٩	٢٢٢
رقية	وثيقة	٢٠	٢٢٤
تتناقض	تتناقض	٢٠	٢٣١

ملحوظة : أضيف الى آخر صفحة ٢٤ ما يلي : للجماعة الاسلامية .
وقامت هناك دولة اسلامية عظيمة ،